

لا طريق إلى الجنّة

حسن داوود

دار الساقي

لا طريق إلى الجنّة

صدر للمؤلّف

- **بناية ماتيلد**، رواية، بيروت 1983. طبعة ثانية، دار النهار، طبعة ثالثة، دار الآداب. طبعة رابعة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر. تُرجمت إلى الإنكليزية (دار غرانتا 1998)، ثم إلى الفرنسية (دار أكت سود، باريس).
- **تحت شرفة آنجي**، مجموعة قصصية، 1984.
- **روض الحياة المحزون**، رواية، 1985.
- **أيام زائدة**، رواية بيروت 1990. طبعة ثانية، دار الجديد، بيروت. طبعة ثالثة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر. الطبعة الرابعة، دار الساقي 2012. تُرجمت إلى الفرنسية (دار أكت سود، باريس) والألمانية (دار لينوس، سويسرا)، والإيطالية (دار جوفانس، روما)، والإنكليزية (دار تليغرام، لندن).
- **نزهة الملاك**، مجموعة قصصية 1992. نشرت قصص منها بالفرنسية والإنكليزية والإندونيسية والصينية.
- **سنة الأوتوماتيك**، رواية، 1996. تُرجمت إلى الإنكليزية (دار تليغرام، لندن).
- **غناء البطريق**، رواية، 1998. طبعة ثانية، دار النهار بيروت. الطبعة الثالثة، دار الساقي 2012. تُرجمت إلى الألمانية (دار لينوس، سويسرا)، والفرنسية (دار أكت سود، باريس)، والإنكليزية (تحت الطبع). فازت بجائزة أفضل كتاب لبناني صدر في عام 1998.
- **ماكياج خفيف لهذه الليلة**، رواية، دار رياض الريس، بيروت، 2003.
- **لعب حيّ البياض**، رواية، دار الآداب، بيروت، 2005.
- **مئة وثمانون غروباً**، رواية، دار الساقي، بيروت 2008. تُرجمت إلى الفرنسية (دار أكت سود، باريس). نالت جائزة المتوسط الإيطالية.
- **فيزيك**، مجموعة قصصية، دار الساقي، بيروت، 2010.

تصميم الغلاف: شذا شرف الدين

حسن داوود

لا طريق إلى الجنّة



دار الساقي

ISBN 978- 1- 85516- 927- 2

الطبعة الأولى، دار الساقي، 2013

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 2033 - 6114

+961- 1- 866442، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

 @DarAlSaqi

 دار الساقي

 Dar Al Saqi

الفصل الأول

يوم أخبرني الطبيب بمرضي غلبني شعوري، في تلك المرّة أيضاً، بأني يجب ألاّ أظهر أمامه خائفاً. كنت قد عرفتُ بما جاء يقوله لي منذ أن أطلّ من باب غرفتي، عابساً صامتاً ومبقياً على جسمه الثياب التي يرتدونها في غرفة العمليّات. قال لابن أخي الذي كان ملازمي في المستشفى أن يتركنا قليلاً بمفردنا. وإذ خرج ابن أخي قرّب الطبيب يده من مقبض الباب وأقفله. كنت سأفهم من أيّ شيء يقوله أنّني أُصبت بالمرض الذي أخافُه. وهو لم يسمّه على أيّ حال. قال لي وأنا لا أزال جالساً على الكرسي بجانب السرير إنّهم وجدوا شيئاً في الخزعة التي أخذوها منّي. أتاني الخوف قويّاً. في لحظةٍ غطّى عرقي كلّ جسمي وارتفعتْ إلى رأسي موجةُ سخونة مدوّخة. وقد أبقيت عينيّ ناظرتين إلى بلاط الأرض حين أضاف إلى ما كان قاله أنّ ما بي لا يهدّد حياتي. لم يقلّل ذلك من خوفي. ولم أرفع عينيّ إليه سائلاً إيّاه أن يزيد شيئاً قد يطمئنني. كنت أريد أن يتركني وحدي ليجنّبني حرجي من انكشاف خوفي أمامه. أن أقوم إلى الحمّام لأجفّف عرقي وأزيله عنّي بالمنشفة الكبيرة، وأن أخرج بعد ذلك إلى الشرفة الضيّقة ليمسح وجهي الهواءُ الذي أعرف أنّه سيكون ناشفاً وقليلاً.

كنت قد أعددت نفسي من قبل لأسمع ما قاله لي الطبيب. ليس لأسمع أنّ مرضي قد أتاني، بل أعددت نفسي لأداري خوفي من مرضي وأخفيه. قبل أشهر من ذلك اليوم، بل قبل سنوات، كنت

أحسّ به آتياً إليّ. هو نفسه وليس سواه، إذ لم يكن يخيفني أن أُصاب بقلبي، وهو المرض الثاني الذي يخاف الناس أن يقعوا فيه. كأنّني اخترته، هو السرطان، الأولّ بين الاثنين، الأسد وليس النمر. فكنت أتعرّق وأحسّ بالارتجاف حين يأتي أحد على ذكره أمامي. أو كأنّي زرعت بذرته فيّ وربّيته ليكبر، شهراً بعد شهر، حتّى يحين مجيئه.

لم يسمّه الطبيب الذي لم يُطل بقاءه عندي في غرفتي. قال لي، فيما هو يعيد يده إلى مقبض الباب ليفتحه، أن أستعدّ لأخرج الآن، وأن آتي إلى زيارته في عيادته غداً أو بعد غد. يوم أو يومان لراحتي، كما يظنّ، ولطمأنتي أيضاً، لأفكّر أنّ المرض ليس سريعاً وأنّه، في يوم أو يومين، لن يعطّل شيئاً فيّ.

بلال، ابن أخي، الذي لم يتأخّر كثيراً عن الظهور أمام الباب، بدا عارفاً بما بي. لا أكثر من نظرة سريعة واحدة، مستكشفة وفزعة، أرخى عينيه من بعدها لتظلاّ لائذتين بالنظر إلى كلّ ما تقعان عليه حوله. نسيتُ حاجتي للذهاب إلى الشرفة، لكن المنشفة كانت بين يديّ مبسوطة كأنّما لأجفّفها من العرق الذي تشرّبتْه لتوّها، ساخناً لا يزال. قلت له، متقويّاً بأنني عمّه وهو ابن أخي، إنّنا سنعود إلى زيارة الطبيب بعد يوم أو يومين. لكن، برغم ذلك، خذلني صوتي. طلع رفيعاً وضعيفاً كأنّه صوت ولد. حتّى أمامه، هو ابن أخي الذي لم يزد عمره على الثالثة عشرة، وجدتني محاولاً إخفاء خوفي. وقد فكّرت في أنّني، حين أصل إلى بيتي، سأبدأ ذلك أمام زوجتي التي ستكون عارفة، إذ لا بدّ أنّها وجدت مَن يتلفن للطبيب سائلاً إيّاه. أولادي أيضاً، الصبيّان أوّلاً، اللذان لن يتأخرا عن أن يعرفا بما بي، على رغم

خرسهما. الناس الذين سيأتون لزيارتي، لكن ليروا كيف أنّي مريض بعد أن سمعوا بأنّي مريض. ثمّ أبي، الذي، لمرّة واحدة، سيُخرج عينيه من سهوه الذي يُغيّبهما ويروح يحدّق فيّ موقفاً يدي وهي تقرّب ملعقة الأكل من فمه.

قلت لبلال وأنا أعيد المنشفة إلى الحمّام أن يأتيني بعمامتي من الخزانة. في المرآة بدا لي وجهي وقد رقّق جلدَه وحمّره العرقُ الكثير الذي نضح منه. ولما جاءني بلال بالعمامة مقلوبة، حاملاً إيّاها بيديه الاثنتين، قال لي إنّي لا أستطيع أن أترك الغرفة قبل أن يأذنوا لي. أنا أيضاً كنت أحتاج إلى وقت قبل أن أخرج إلى الممشى الطويل بين الغرف المفتوحة أبوابها. ذاك لأنّهم لن يكتفوا بالنظر إليّ عابراً الممشى فقط، بل إنّهم سيحيّونني وأنا سيكون عليّ أن أردّ على تحيّاتهم. وعليكم السلام، أجيب بها مسموعة، كلما قال أحدهم السلام عليكم يا شيخنا ملتفتاً إليّ. في فيلم شاهدته نظر طبيب إلى رئتيه المسودّتين في صورة الأشعة ثمّ قال لزميل له واقف بقربه: "هذا سرطاني... لم يعد لديّ وقت كثير". قالها هكذا، كأنّ الصورة التي ألصقها على اللوح المضاء واحدة من الصور التي يراها كلّ يوم، أو كأنّه يرى رئتيه مثلما يرى رئات مرضاه. آنذاك، في وقت ما شاهدت الفيلم، ظننت أنّ الناس كلّما كبروا صاروا أقدر على التحكّم في هيئاتهم، مهما كان الذي يفكّرون فيه.

***

مع أنّني ما زلت مرتدياً هذه العباءة وهذه العمامة منذ مطلع شبابي،

ما زلت، إلى الآن، أراني كما لو أنّني أُلبستهما رغماً عنّي. لا أقول إنّي لا أعرف كيف أتدبّر مشيتي بهما، أو أن أخاطب الناس في طريق عودتي إلى بيتي، أو حتّى أن أصلّي بهم جماعة أو أخطب أمامهم في الحسينيّات، فكلّ ذلك أفعله. بل إنّ الناس، وهم قاعدون في أماكنهم، كانوا يكثرون من رفعهم الصلاة على محمّد وآل محمّد، مستحسنين هكذا ما يسمعونه منّي. لكنني،مع ذلك، أبدو كما لو أنّني أقول لنفسي هيّا فلنذهب إلى العمل، وذلك كلما مددت يدي لآخذ عمامتي قبل خروجي من البيت. في الصورة المعلّقة عندي في غرفة الاستقبال كانا كلاهما، أبي وجدّي السيّد مرتضى، راضيين معاً بثياب العلماء التي يرتديانها. بل إنّ أبي زاد على ذلك بأن أهمل كيّ عباءته التي تبرز خيطان قطبها غليظة نافرة كأنّه هو الذي خاطها، بيديه، وبالمسلّة لا بالإبرة التي يشتغل بها الخيّاطون. مثل ثياب الميدان، كنت آنذاك أقول لأخي عدنان، مشبّهاً لباس أبي بثياب العسكريين. فقط وأنا هناك في النجف عرفت أن إهماله للباسه عقيدة ومذهب اتّخذهما هو ورفاق له هناك.

"أنا أريد أن أدرس في الجامعة، وقد قبلوني"، قلت له مرّة، ثمّ مرّة أخرى. ما لا يحبّ سماعه لا يبدو عليه أنّه سمعه. يظلّ يمسّد لحيته إن كان يمسّد لحيته أو يظلّ ماشياً إن كان يمشي مفكّراً في شيء. مرّة واحدة قال لي إنّني أنا الذي يجب أن أذهب إلى النجف، وليس أخي، الكاره للعلم. بدا لي كما لو أنّني أُقدّم أضحيةً وأنّي، فوق ذلك، مثل الأضاحي لا يحقّ لي أن أعترض أو أن أسأل. "قولي له أن يكلّم أخاه السيّد عقيل ليرسل إلى هناك واحداً من أولاده" رحت

أقول لأمّي التي يصغي إليها وحدها، وإن كان لا يعمل بما تقول. "أولاد عمّك عقيل سيكونون مثل أبيهم"، تجيبني مذكّرة إيّاي به، هو عمّي السيّد عقيل، واقفاً بين النساء، عندنا في بيتنا، ليمازحهنّ ويضاحكهنّ على رغم كبر جسمه وارتدائه ثياب العلماء.

بعد أن لبست العباءة والعمامة بقيت أشعر أنّني مستعير ثياب سواي. حتّى أنّني كنت أستغرب نفسي كيف أنا حين أعود إلى ضيعتي في الصيفيّات. أستغرب نفسي حين ينظر إليّ أحد على الطريق، تلك النظرة الأولى التي تسبق وصوله إليّ وقوله لي السلام عليكم. يراني أصغر ممّا يجب عليّ أن أكون. وهو سيعود ينظر إليّ، ملتفتاً نحوي، بعد أن يصير ورائي، لكي يتحقّق مما استغربه فيّ وليرى مشيتي التي، حتّى يومي هذا، لا أعرف إن كانت حقّاً مشية رجل يؤمّ الناس في صلاتهم. ذاك أنّي أنقّل رجليّ تنقيلاً، فيما أنا أخطو بهما مؤرجحاً يديّ إلى الأمام والخلف فأبدو كما لو أنّني مسرور بخفّة حركتي.

مشيتي هذه لم يغيّرها تمريني أمام المرآة في بيتنا ولا قول أبي لي، مرّة واحدة، إنّني أمشي كأنّني أهمّ بأن أرقص. في أحيان كنت أفكر في أنّني يجب أن يصيبني شيء يبدّل حركة رجليّ وجسمي، كأن تصير عظام قدميّ توجعانني أو أن تتشنّج، بمرض خفيف، فقرات في ظهري. وقد جرّبت ذلك أمام المرآة أيضاً حيث رحت أطأ الأرض بجوانب من قدميّ وليس بقدميّ كلّهما. أصير أهتزّ في الغرفة التي أكون فيها وحدي، إذ حتّى هنا في بيتنا لا ينبغي أن يشاهدني أحد أتخايل هكذا أمام المرآة، ماشياً إليها تلك الخطوات القليلة التي تفصلها عن الحائط المقابل لها. "حلو، اسم الله عليك" كانت ستقول

لي أمّي إن رأتني واقفاً أنظر في المرآة إلى جسمي، أو مقرّباً وجهي إليها محدّقاً فيه.

"حلو" هذه، على لسان أمّي، أترجمها بحركة من رأس أبي ويده يبين فيها طارداً شيئاً لا يحبّ أن يراه. يفكّر أنّ المرايا هي للنساء وحدهنّ، وأنا، كلّما رأيته يكلّم الناس الذين يأتون إلى بيتنا، أقول في نفسي إنّه لا يعرف كيف يكون وجهه حين يتكلّم. ليس أنّه لم يكن ينظر في المرايا الآن، كنت أقول آنذاك، بل هو لم يسبق له أن نظر فيها أصلاً. كان يرفع شفته العليا عن أسنانه ولثّته فيما هو يحدّق تحديقاً في من يكلّمه، هكذا كما لو أن عينيه الصغيرتين لا تكفيانه ليرى رؤية واضحة. وأمام الناس في الحسينيّات كان يخلع عمامته غير مكترث لأن تظهر لهم دائرة رأسه التي بيّضها خباؤها تحت العمامة . وإذ، في مرّة، وقف ليسوّي ما يلبسه تحت جبّته، وذلك أمام المئتين الذين كانوا قد أتوا لسماعه، قلت إنّه لا بدّ يفعل ذلك عن قصد، وإنّه يعلم أنّ الناس لن يتهامسوا على كراسيهم معايبين فعلته ولن تأتيهم الضحكات ليكتموها.

ذاك لأنّهم كانوا يصدّقونه ويطيعونه. وهو لم يكن يمتحن نفسه معهم حين يقول لهم، مثلاً، إنّهم كسالى قاعدون ولا عجب بعد ذلك أن يؤكلَ حقّهم. حتّى إنّهم في مرّة قاموا عن طاولاتهم تاركين عليها أوراق اللعب والنقود التي كانوا يتراهنون بها حين رأوه قادماً إلى الساحة التي وزّعوا طاولاتهم على أنحائها. كنت معه آنذاك، رجلَ دين مثله، وقد وقفت أتفرّج على قلبه الطاولات بيديه، واحدة بعد واحدة، وهم مبتعدون ومتفرّقون في أطراف الساحة. "تعال...

امشِ...» قال لي بادئاً المشي قبلي، تاركاً الرجال حيث هم، منتظرين ابتعادنا ليلمّوا ما تساقط من نقودهم وأوراقهم وأشيائهم الأخرى على الأرض.

يعرف أنّهم سيقبلون بما يفعله. حتّى إنّه لا يفكّر أبداً في ما سيتبع قلبه للطاولات وقوله لهم في أثناء ذلك إنّ الحرام لا يقع فيه إلاّ أبناء الحرام. ونحن نبتعد عنهم، غير ملتفتيْن إليهم، خطر لي كما لو أنّ ما بينه وبين الشيء الذي يفعله أو يقوله مسافة لا تزيد شبراً عن عينيه أو يديه. لا يكون يفكّر في أشياء كثيرة حين يرى أمامه ما يُغضبه. رحت أتلفّت إليه بطرف عينيّ فيما نحن نمشي مسرعين في تلك الطريق الضيّقة. ما كان يدور في رأسه هو ما يجري في داخل رأسه فقط، لا الناس الذين تركهم هناك، لا الناس في المكان الذي كنّا ذاهبين إليه، ولا أنا المتلفّت إليه متردّداً ومتسرّقاً.

* * *

الموجة الساخنة التي تدوّخني قويتْ في رأسي وأتعبتني. على الطريق، عندما خرجنا من المستشفى، سألني ابن أخي إن كان من الأفضل لنا أن نستأجر سيّارة توصلنا. كان ذلك سيريحني، لكنّني بدأت المشي باتّجاه سيّارتي التي كنت قد ركنتها في الشارع الذي يعلو شارع المستشفى. وقد تبعني ابن أخي، بادئاً النطنطة ورائي من جهة إلى جهة محاولاً أن يصل إلى أن يصير ماشياً معي، عند أحد جنبيّ. كان الناس يتدافعون مسرعين كأنّهم يسابقون بعضهم بعضاً إلى بوّابة المستشفى. وأنا كان عليّ أن أظلّ متنبّهاً لتدافعهم، مهيّئاً يديّ الاثنتين

لأردّ بهما من قد يصطدم منهم بي. وقد زاد ذلك في تعبي، حتّى إنّني رحت، بين كلّ خطوتين أو ثلاث، أدير وجهي لأرى إن كان ابن أخي ما زال قريباً منّي. وهو كان يعرف لماذا أحرص على قربه فيقول لي، مرّة بعد مرّة، أنا هنا وراءك يا عمّي.

كانت الأيّام الثلاثة قد غبّرت السيّارة ووسّخَتْها، لكن كانت هناك مسافة خالية أمامها تعفيني من تقديمها وتأخيرها مرّات. بعد أن جلست وأرحت يديّ على المقود، سألني ابن أخي إن كنت أحتفظ بشيء ليزيل به ما علق على الزجاج أمامي. كانت بقعة الوسخ ملتصقة بالزجاج، مدهنة وسميكة. تلفّتّ حولي لأرى أين هي علبة المحارم، لكن من دون أن أكون مكترثاً لأن أجدها. وإذ توقّفت عن التلفّت، مرجعاً رأسي لأريحه على المسند الذي وراءه، أدخل ابن أخي يده بيني وبين المقود ليرشّ الثقبان الصغيران ماء على الزجاج. لم يأت منهما إلاّ صوت الجفاف الذي أعرفه، والذي يطلع مثل هدير خفيف. ومن دون أن ينظر إليّ أو يقول لي شيئاً، استدار ابن أخي إلى المحالّ التي على الجهة الأخرى من الطريق. أخرج من العلبة التي جاء بها مفتوحة ستفة من الأوراق جعل يحفّ بها البقعة المدهنة السميكة التي بدت أنها لن تُزال. كانت قد تيبّست على الزجاج، وكان عليه أن يعود ثانية إلى المحل ليحضر منه قنّينة ماء. لكنّني، قبل أن يستدير ليتّجه إلى هناك، أشرت إليه بيدي أن يصعد إلى مطرحه، رغم علمي بأنّ تلك البقعة ستظلّ طول الطريق أمامي، تُتعب نظري وتقرفني.

الكيلومترات الثمانون التي تفصلني عن بيتي لن تزيد في تعبي. بل إنّها ربما ستريحني إن ظلّت الطريق أمامي خالية من السيّارات.

ثمّ إنّ التعب الذي أنا فيه لن يُنعسني. تلك المرأة التي جاءت من فنزويلا لتقيم عندنا في بيتنا ظلّت تجيب أبي، كلّما سألها عن مرضها: النوم... النوم... كانت تقول بصوتها الذي يطلع أجشّ مكهرباً من حنجرتها المثقوبة. ونحن في البيت كنّا نعلم أنّها لا تنام أبداً، إذ لم تكن تتوقّف الأصوات التي تطلع من لهاث نَفَسها ومن فتحها حقائبها ومشيها بعد ذلك بين غرفة نومها والمطبخ الذي في آخر البيت. لم تنم هذه الليلة أيضاً، كانت أمّي تقول لأوّل من يفيق في الصباح، وذلك بصوت تحرص على ألاّ تسمعه المرأة التي يمكن في أثناء ذلك أن تكون في أيّ مكان: خلف أمّي وهي تتكلم، أو قريبة من باب الحمّام المفتوح حين أكون أغسل وجهي وأذنيّ، أو تكون في الممشى بين الغرف، واقفة على الرغم من أن ليس في الممشى شيء يمكن أحد أن يفعله. و لم تكن أمّي تتأفّف أو تتشكّى أو تقول لأبي مَن من الناس غيرنا يقبل أن تعيش في بيته امرأة لا يعرفها. بل إنّها، فوق ذلك، كانت تقول مشفقة عليها إنّها مسكينة لا تعرف أحداً، وإنّها جاءت من فنزويلا لأنّها لا تحبّ أن تموت هناك.

وهي، المرأة، أنجزت ماجاءت من أجله عندنا في بيتنا. دخل أبي إلى الغرفة حيث كانت ممدّدة وقال لأمّي، الواقفة بقربه، إنّها ماتت، هكذا من دون أن يرفع جفنها ليرى بؤبؤ عينها أو يلتقط يدها ليعرف إن كان نبضها لا يزال يعمل. ماتت، قال، ثم استدار ليخرج من الغرفة كأن لا شيء مما يتبع ذلك ينبغي فعله.

النوم. أشعر به كيف سيكون بعيداً ومستعصياً حتى وأنا مهدود من تعبي ولا قوّة فيّ لأحتمل أن يعبر كلب مسرع قاطعاً الطريق من

أمامي. وقد تشبّث بي تذكّري للمرأة واقفة عند باب المطبخ ممسكة بإصبعيها تلك الحديدة التي تُخرج من الثقب الذي في وسطها نَفَسَها وأصواتها. وأنا في التاسعة أو العاشرة آنذاك كنت أتعلّم المرض واسمَه، متركّزين معاً في تلك البقعة الصغيرة المجوّفة أسفل رقبتها. "أصابها مرض السرطان"، كانت تقول أمّي لزائراتها هامسة بالكلمتين، المرض واسمه، كأنّها تعرّفهنّ على ما لم يسبق لهنّ أن عرفنه. "مرض السرطان!"، كنّ يتلقّين ما يسمعنه فزعات ومشفقات معاً. ذاك أنّهنّ كنّ يعرفنه، لكن كأنّما عن أحد مات به في إحدى القرى وجاءهنّ منها خبره.

حين بلغنا أوّل الأوتوستراد أوقفتُ السيّارة وقلت لابن أخي بلال أن ينزل ويزيلها، تلك اللطخة التي عرفتُ أنني سأظلّ أحدّق إليها كلّما تعلقتْ بها عيناي. لم يجد شيئاً إلا المفتاح الذي أخرجه من جيبه وراح يحكّ به الزجاج محدثاً أزيزاً جافّاً. ثم نظر إليّ ليرى إن كان عليه أن يُوقف ذلك الصوت الذي قد يخربش الزجاج ويجرّحه. تأخّرت في أن أجيبه، من صفنتي وكسلي. قال لي، حين عاد إلى مقعده، إنها لن تُزال إلّا بالبنزين. وقد أخرجني قوله ذاك من صفنتي، لكن للحظة تساءلت فيها كيف له، هو الصغير، أن يعرف ما يفعله السائقون ليزيلوا اللطخ التي تلتصق بسيّاراتهم.

– تعرف كيف تسوق السيّارة؟

سألته بعد أن انتبهت إلى أنّ تفكيري في ما يعرفه عن البنزين قد أخرجني، ولو لتلك اللحظة الواحدة، من التفكير في مرضي.

وهو، العارف بما بي، انتظر أن يأتيه سؤالي مرّة ثانية. وإذ لم أفعل،

اكتفى بأن التفت إليّ ثمّ إلى مسافة الأوتوستراد التي تمتدّ أمامنا.

* * *

– أوصلك إلى بيتك أو تأتي معي إلى بيتنا؟

كان صمتي على الطريق قد أضجره وأتعبه. ثم إنه لن يحبّ أن يكون معي لحظة ما تكون زوجتي واقفة عند الباب، صامتة وتتسرّق تحديقها إلى عينيّ.

– أمي وحدها في البيت، من ثلاثة أيّام هي وحدها.

أتتني صورة أمّه في بيتها، واقفة على بعد ثلاث خطوات أو أربع من حيث كنت أجلس على تلك الكنباية الواسعة. وقد تشبّثتُ،على رغم تعبي، بصورتها تلك، كأنّني أختبر نفسي إن كان تذكّري لها سيريحني. في زياراتي التي كنت أقوم بها مرّة كلّ شهر كنّا نجلس متباعدين، أنا على طرف الكنباية وهي على طرفها الآخر. و لم أكن أريح نفسي في جلوسي، كأن أجعل وجهي وجسمي مائلين إلى جهتها. "هذه من أبي"، كنت أقول لها وأنا أمدّ لها يدي. وهي، من دون أن تقول شيئاً، تقرّب يدها لتأخذ النقود الملفوفة بورقة لكي لا تبين من خارجها. و لم يصدف أبداً أن لامست يدها يدي. يدها تلك التي لم أكن أطيل النظر إليها حين تصبح على ذلك القرب مني. "سأعمل قهوة يا سيّد"، تقول لي. وأنا، لكي أوحي بأنّ ما قد يبقيني هو الوقت، أنظر إلى ساعتي، ثمّ أبدو كأنني أجري حساباً في رأسي لأقول من بعده: "لا بأس بالقهوة، لكن من دون سكّر". ولا أطيل التفاتي إلى مشيتها وجسمها بعد أن تستدير ذاهبة إلى المطبخ. لا أكثر من ثانية واحدة، أو ربّما أقلّ من الثانية،

يعود وجهي بعدها مستوياً مع جسمي.

– لكنّها لا ترجع إلى البيت إلاّ بعد الظهر، قلت له لأذكّره بأنّها لا تقضي كلّ الوقت وحدها، لكن أيضاً لأعرف منه أنّها لا تزال تذهب إلى شغلها مثلما كانت تفعل.

ولكي يساعدني على طمأنتي له بأنها ليست وحدها، قال، ملتفتاً بوجهه إليّ، إنّ المعلّمات رفيقاتها يأتين معها أحياناً بعد المدرسة.

– كثيرات؟

– هنّ رفيقاتها؟

أومأت له برأسي إيماءة خفيفة لأبدو أنّني لست مهتمّاً كثيراً بما سألته.

– في مرّات يأتين كلّهن...

يعرف، حين أكلّمه عنها، أنّني أنتظر أن أسمع ما هو أكثر مما يحمله سؤالي. يعرف ذلك. في أحيان يجيبني بما أنتظر أن أسمع، ذاهباً في جوابه إلى أبعد من سؤالي المراوغ. في أحيان كنت أفكّر أنّ فضولي هكذا تجاه أمّه يُعجبه.

– أوصلك إذن إلى بيتك.

– لا، لا، أنا أنزل عند المحطّة... هناك أجد دائماً سيارة توصلني.

لكي أبقى معه في هذا الحدّ من التواطؤ، كنت في كلّ مرّة أسكت أنا وأسكته عما كنّا نقوله. هكذا كنت أفعل. الآن أخرجني تعبي من رغبتي في التحدث عنها. تلك الرغبة التي كنت ساعدت نفسي على الاندفاع نحوها.

– معك أجرة الطريق؟

– معي، أجاب ممدّداً جسمه على المقعد ليستطيع أن يوصل يده

إلى داخل جيبه. "أنت أعطيتني وأمّي أعطتني" قال فيما هو يريني ما في كفّه المنبسطة الممدودة.

* * *

بعد أن أوقفت السيّارة، هناك حيث كانت سيارات ثلاث تنتظر اكتمال عدد راكبيها، استمهل نفسه للنزول. بدا لي، فيما يده باقية على الباب نصف مفتوح، كأنّه سيعيد النظر بنزوله هناك. لم يدم ذلك أكثر من لحظات التفت إليّ من بعدها وسألني إن كنت أرغب في أن يبقى معي. كان يعتذر عن نزوله من السيّارة وتركه لي. ثمّ، بعد أن نزل وأطبق الباب، انقلب عن هيئته وقال لي، من فتحة الشباك، أن أنتظر كي يزيل اللطخة التي ما زالت أمامي، عالقة على الزجاج. كنت راغباً في المسير من فوري لكنّه أبقاني، ناظراً إليه يركض نحو السائقين الواقفين معاً يتحادثون بقرب إحدى سيّاراتهم.

كانت قنينة الماء البلاستيكيّة ممتلئة بالماء إلى ما يزيد عن نصفها، ومتسخة لكثرة ما استُعملت وأُعيد ملؤها . لكنّني، حين رأيت الماء يُصبّ على الزجاج أمامي، انتبهت، فجأة، إلى جفاف حلقي وعطشي. كان قد أفرغ آخر ما في القنينة من ماء حين أشار إليّ أن أُشغّل المساحات. وقد غَلبتْه اللطخة هذه المرّة أيضاً. وأنا أفهمتُه، بحركة من يدي، أن يصرف نظره عنها وأنّني سأذهب الآن.

* * *

لا يأتي المرض هكذا من دون أن يسبقه شيء يستدعيه. على ما تبقّى

من الطريق، وقد صرت وحدي، راحت الأفكار التي تخطر لي تتسابق لتحلّ كلّ واحدة منها محلّ الأخرى. ربّما كان بيتي هو الذي أمرضني. الهواء الذي أتنفّسه مسموماً لأنّه يظلّ عالقاً في الغرف ولا يخرج منها. أو ربّما أمرضتني زوجتي التي، رغم أنّها لا تعرف أن تظهر إلاّ بالثياب المهترئة المبلّلة بالماء، لا تتوقّف عن أن تُفهمني، بنظراتها وحدها، أن ليس هكذا يعيش الناس. لا تعجبها الحياة التي لا تعرف كيف تعيش حياة سواها. حتى إنّني، كلّما رأيتها في الممشى الضيّق الذي تسند جسمها إلى حائطه لتتركني أمرّ، أحاول أن أتخيّلها في هيئة أخرى فلا أفلح. لا أفلح حتى في أن أزيد على خدّيها حمرة ولو قليلة، فذلك البياض الباهت الممصوص من خباء البيت يجعل وجهها ممطوطاً وبلا لون، كأنّه مسلوخ من رقعة جِلد واحدة.

تُلصق جسمها بالحائط، جسمها كلّه، من مؤخّرتها إلى أعلى رأسها، كأنما من أجل ألا يلامسها شيء منّي حين أمرّ. وحين تقترب من باب غرفة الاستقبال التي أكون جالساً فيها مع مَن يزورونني، تروح تناديني، لأن آخذ منها ما في يديها، كأنّها تزجرني. "صينيّة الشاي"، تقول، أو تقول لي، من وراء الباب أيضا: "أبوك"، إن كان أبي يحتاج أن أفعل له شيئاً. في أحيان أفكّر في أنّها كانت جميلة مرّةً، مرّة واحدة، وذلك حين كانت واقفة عند مدخل بيتها، هناك في أعلى الدرجات. قال أبي ما شاء الله فيما هو يقرّب منها عينيه الصغيرتين. وهو قال ذلك أيضاً لأبيها السيّد جعفر حين صرنا في داخل البيت. كانت آنذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. "نعم أقبل" كتبتُ لأبي رادّاً على الرسالة التي قال فيها إنّني الآن يجب

أن أتزوّج. "إنّها الابنة الصغرى للسيّد جعفر قريبنا في الكوثريّة" كتب لي، وهو اكتفى بذلك عنها حيث لا يحسن به، هو أبي، أن يصفها كأن يقول مثلاً إنّها جميلة، أو أن يفصّل في وصفها فيقول أشياء عن عينيها أو عن فمها أو عن صوتها حين تتكلّم. "نعم أقبل" كتبت له، لأبدو واقفاً قبالته وهو يجري عقد الزواج، هكذا من ذلك البعد الذي يفصل ضيعتنا عن النجف.

رأيتها أقلّ جمالاً حين وصلتُ إلى النجف معه. ليس أنها كانت كما هي الآن ضعيفة وبلا لون، لكنّ السنوات الأربع أو الخمس غيّرتها عمّا كانت يوم رأيتها. كانت غريبة تلك النظرات الأولى في عينيها، فقد كانت تطيلها بدل أن تغضّها كما تفعل البنات. كانت تبقي عينيها ناظرتين إليّ حتى بعد أن ينتهي ما كنت أقوله لها. كأنها كانت تبلغني، بتلك النظرة الزائدة التي تستمرّ لثانيتين أو ثلاث، أنّي آذيتها بقبولي أن يأتوا بها إليّ. وأنا رحت أفكّر في أنها ربما كانت مثلي، تنتظر أن تتاح لها حياة أخرى؛ أنها مثل رفيقاتها من البنات، تحلم بأن تعيش حياة غير التي عاشتها عند أهلها، والتي ستعيشها معي.

تلك النظرة المعاتبة، بل والمؤنّبة، ظلّت ترميني بها على الدوام: حين تقوم بعد أكلنا لتحمل الصينيّة والصحون إلى المطبخ، وحين أقول لها وأنا واقف أمام الباب إنّي خارج، وحين أفتح الباب بعد أن أعود من خروجي، وكذلك حين كنت أُقبل عليها لأجامعها، وكذلك حين تهمّ، بعد المجامعة، بأن تنحني لتلتقط ثيابها عن الأرض وتذهب بها حاملة إيّاها إلى الحمّام.

آنذاك، بعد أن تأخّر إنجابها أكثر من عشر سنوات، كنت أقول إنّ

هذه المجامعة لا تنجب أولاداً... وحين صارت تلدُ بعد ذلك صرت أقول إنّ من تكون مثلها لن تحبل إلاّ بأولاد مثل الذين أنجبتهم.

* * *

خلف باب الحديد الذي دفعته بيدي كانت ابنتي هبة جالسة عند منتصف الدرجات الصاعدة إلى بيتنا، وفي حضنها دميتها. حين رأت أنني أنا الذي دخلت من الباب عادت تنظر إلى الدمية، النائمة على الدرجة بقربها والمغطّاة حتى ذقنها. لم ترفع رأسها إليّ حين وقفتُ أمامها، ولا حين كلّمتها سائلاً إيّاها إن كانت قد أطعمت دميتها. "تعالي... تعالي معي..." قلت لها مادّاً يدي إليها لتقوم. لكنّها ظلّت مشغولة بالعينين الصغيرتين اللتين تعودان تنفتحان بعد أن تُطبقهما بيدها. "قومي، قومي لعّبيها في البيت، هي لا تحب النوم على الدرج". وإذ ظلّت العينان تعاندانها أقفلتْ عليهما بكفّها كلّها كأنما لتنوِّم الدمية عنوة.

تركتُها هناك، وصعدتُ الدرجات ثقيلاً أدفع رجليّ دفعاً .

كانت زوجتي قد سمعت خبط أقدامي على الدرج. رأيتها واقفة وراء الباب المشقوق تسوّي حجابها متعجّلة على رأسها.

– ماذا قالوا لك؟

لم يخبرها أحد. لم تجد أحداً تطلب منه أن يتلفن للمستشفى، أو أنها لم تسعَ لأن تجد أحداً.

– قالوا أن أرجع بعد يومين

كنت أستطيع أن أؤجّل إجابتي لها، لكنني، فيما أنا أفتح الباب

الآخر، ذلك الذي يؤدّي إلى الغرفة التي استقبل فيها ضيوفي، أعدت مصحّحاً ما قلته:

– بعد يومين أو ثلاثة قال الطبيب.

لحقتْ بي إلى غرفة الاستقبال، صامتة لا تقول شيئاً. حتى حين صارت واقفة أمامي، تنظر إليّ أرفع عمامتي عن رأسي، ثمّ أخلع عباءتي، ظلّت تنتظر أن أُكمل ما بدأت بقوله.

وحين هبطْتُ بجسمي بعد ذلك على الكنباية، ساكتاً، بدا كما لو أن صبرها القليل قد نفد:

– بعد يومين أو ثلاثة، ماذا سيصير بعد يومين أو ثلاثة؟

– لا أعرف، قال إنّي مريض.

بالتدريج، مَلْمحاً بعد ملمح، سيغيّر وجهها هيئته، من الحياد إلى الفضول، ثمّ إلى الهيئة التي تبديها مستغربة غير مصدّقة. ذاك لأنّها بلغت حدّ أن تعرف ما هو مرضي، وأن تعرفه باسمه.

– سيدخلك الطبيب إلى المستشفى؟

– لا أعرف... قال أن أذهب إليه بعد يومين أو ثلاثة.

وهي تعرف أيضاً أنّ عليها، الآن وفي هذه اللحظة، أن توقف أسئلتها التي تجعلني أدير رأسي من جهة إلى جهة ولا أعرف أين أنظر بعينيّ. "سأعمل لك شاياً" قالت فيما هي تستدير متوجّهة إلى المطبخ.

* * *

رحت أفكّر، وأنا جالس على كنبايتي في غرفة الاستقبال، في أنّه

كان عليّ منذ زمن أن أُخفض الصورة التي على الحائط أمامي. كان أخي عدنان، كلّما أتى لزيارتي، يسألني ممازحاً لماذا علّقتهم هكذا مثل المشنوقين. كانت تلك الصورة، صورتهم، في أعلى الحائط، قريبة من السقف، وهو ظلّ يقول لي إنّني يجب أن أُخفضها لتصير على مستوى عينيّ الرجل الناظر إليها. وأنا كنت أجد ذلك صحيحاً حيث إنّي لم أعد أتميّزهم، هم الثلاثة، بهيئاتهم الواضحة، لا بالنظارة ولا من دونها. أروح أتذكّرهم في الصورة تذكّراً كلما نظرت إليها، عالية وصغيرة في داخل البرواز الفضي المجدول.

الآن، وأنا جالس على الكنباية نصف ممدّد، خطر لي أن أرى الصورة عن قرب. أن أرى أبي في عمر الثلاثين، كما كان، ناظراً إلى المصوّر بعينيه الصغيرتين كأنّه يحثّه على أن يستعجل وينصرف بكاميرته من أمامهم. كانت أمّي تقول، معوّضة له عن صغر عينيه، إن الوهرة التي فيهما تُخيف كلّ من تقعان عليه. "حتى القطتان اللتان تربّتا في بيتنا كانتا تستديران مبتعدتين من خوفهما، صافنتين في الأرض كأنهما ولدان"، كانت تقول واصفة وقت خروجه إلى مصطبة الجنينة ليريح نظره من عتم غرفته، كما ليقف على رجليه بعد أن أتعبه القعود هناك، في وسط صفّ الطراريح.

– لدينا سلّم هنا في البيت؟

نظرت زوجتي إليّ من فوق الطاولة الصغيرة التي رفعتها عن الأرض لتدنيها منّي:

– السلّم، لماذ السلّم؟

– سأُخفض الصورة، هي عالية ولا يقدر أحد أن يرى مَن فيها.

التفتتْ نحوها وهي ما زالت منحنية فوق الطاولة التي وضعت صوقها الشاي ثمّ، قبل أن تستقيم واقفة، أدارت وجهها إليّ:

– أنت ستنزلها؟... الآن؟

– ليس الآن، لكن يجب أن تكون هناك.

وهي التفتت هذه المرّة أيضاً لكن إلى حيث أشرت بإصبعي، بل وأطالت النظر كأنّما لتفهمني أنّها تفكّر في شيء آخر، وأنني أنا أيضاً يجب أن أفكر في شيء آخر.

– على كلّ حال كان مريضاً وأنت هناك في المستشفى.

– مثلما يمرض كلّ مرّة؟

– مثلما يمرض، أجابت كأنّها تقول لي إنّه أتعبها مثلما يُتعبها عادة.

لكن رغم ذلك خطر لي أنّ ما أمرضه هذه المرّة هو غيابي عنه.

– كان ينام في سريره؟

– نام في سريره ليلة وعلى كنبايته ليلة... لكن اشرب الشاي أوّلاً، قالت حين رأتني أمسكُ بيديّ طرفي الكنباية لترفعاني.

ليس فقط غيابي أنا عنه، بل أيضاً بقاؤه جالساً على كنبايته الوقت كله من دون أن يقف أمامه أحد يكلّمه.

– الصبيّان...

كنت سأسألها إن كان الصبيّان يسلّيانه بأن يلاعبا أختهما أمامه، لكنني انتبهت، كأنما فجأة، إلى أنني لم أسألها عنهما بعد.

– ... أين هما؟

– خرجا، في المرّات التي قَبِل فيها أبوك أن يأكل، كان أحمد هو الذي يطعمه، بالملعقة.

تخيّلت ابني أحمد واقفاً حاملاً صحن الأكل، منتظراً أن يزدرد أبي ما في فمه حتّى يقرّب إليه الملعقة ملآنة طافحة فلا يعرف أبي كيف يأخذ منها ما يقدر على مضغه.

– أكل؟

– من؟

– أبي.. هل تغدّى؟

أن أُطعمه، الآن، هو ما ينبغي عليّ أن أفعله. هو ما سيريحني. سأبدو، وأنا أدخل إليه حاملاً أكله، كأنني لم أغب عنه.

***

كأنّني أُصمته بما أضعه في فمه. يأخذ ما في الملعقة بشفتيه لكنّ عينيه لا تلبثان أن تعودا إليّ، ناظرتين في وجهي. وهو يعرف أنّني سأتمكّن من إسكات فضوله بهذه الكلمات التي أعيدها مرّة بعد مرّة: "كل يا أبي"، "بالصحة يا أبي"، "هذه أيضاً"، "هذه فيها الشفاء". لكنّه، مع كلّ كلمة أقولها يُشعرني بأنني أتعبه وأؤذيه. " كل يا أبي" أقول له وإن كنت أنتظر أن يزداد إلحاح نظراته ويشتدّ حتى ليخيّل إليّ أنه يكاد يُطلع صوته الذي أبقاه محبوساً في داخله كلّ هذه الشهور ليقول لي: "أين كنت؟... قل لي أين كنت".

لكن بصوت هو غير صوته الأوّل، الساخط الذي يزجر سامعيه. "أنتما هناك، كفّا عن الكلام" كان يقول لإثنين يتكلّمان في أثناء ما

كان يخطب في الحسينيّة. وهو، إن لم يسكتا، كان سيقول لهما، هكذا أمام جميع الجالسين: "اخرجا من هنا". وهما كانا سيتلفّتان حولهما من حرج، مستصعبين الخروج، وسيظلّان كذلك حتى يُخرجهما الناس. وهو لن يعود إلى الكلام إلا حين يرى ظهريهما يتواريان في نزولهما على الدرجات: "من عرف الله وعظّمه..." يقول عندها مستأنفاً تفصيل ما كان رُوي عن أبي ذرّ.

"أحسنت.. أحسنت" راح يقول لي وأنا ألقي خطبتي الأولى بعد عودة لي من النجف. وأنا لم أكن أستحقّ أن يثني عليّ، فقد كانت رجلاي المختبئتان خلف منبر الحسينيّة ترتجفان، وكان صوتي يطلع متردّداً بين أن يكون صوتي الذي لي وبين أن أجعله في قوّة أصوات الخطباء. "أحسنت... أحسنت" كان يأتيني صوته عن يمين المنبر حيث كان يجلس مواجهاً الناس. كان يقصد أن يُسمعهم ما يقوله لي حتّى يظلوا ساكتين مصغين إلى ما أقول. وأنا كنت أعلم ذلك لكنّي كنت أقبل به، بل وأنتظره. أنتظر أن يعود إلى قوله "أحسنت" مرّة بعد مرّة علّني أصدّق أنا نفسي ما يقول.

وكنت أعرف أنّه لن يعود إلى الكلام عن تردّدي في خطبتي حين خرجنا من الحسينيّة. لم يجب بشيء حين قلت له إنّني لم أكن كما ينبغي لي أن أكون. ظلّ ساكتاً مستغرقاً في النظر إلى الطريق أمامه. فكّرت آنذاك أنني أخجلته، ليس فقط من ضعف صوتي وارتباكي في ظهوري، بل أيضاً لتعريضي له إلى أن يستحسن، أمام الناس، ما لم يرضه و لم يعجبه.

"كُلْ يا أبي.. هذا الطعام يقوّيك" بقيت أقول له. وهو يطيعني

بأن يفتح فمه كلّما قرّبت إليه الملعقة. ربما كان ينتظر أن أطيعه مثلما يطيعني بأن يظلّ يأكل على رغم شبعه، أن أقول له إنّني كنت في المستشفى وإني راجع إليها بعد يومين أو ثلاثة.

* * *

"أكل كلّ ما في الصحن" قلت لزوجتي الواقفة في وسط الممشى تنفّض، بضربات سريعة، الغبار الذي غطّى ثياب هبة. لم تلتفت إليّ لتأخذ الصحن الفارغ من يدي. ولما توجّهت أنا لأضعه على المجلى، سمعتُ هبة تتهيّأ لتشرع في البكاء. كانت الضربات التي اشتدّت على مؤخّرتها قد أوجعتها، وهي فهمت أنّها، الآن، تتلقّاها كعقاب. حين رأتني عائداً من المطبخ اندفعت نحوي مادة إليّ يديها. حملتُها، وتقدّمتُ بها إلى حيث كانت لعبتها مرميّة على الأرض. قلت لها، فيما أنا أنحني لألتقط اللعبة، إنّها لا تزال نائمة. "خذي... خذي... احمليها قبل أن تفيق"، قلت لها، لكنّها امتنعت عن أخذها بهزّها كتفها، ثم بالنظر إليها نظرة كارهة.

* * *

استعدت، وأنا في الطريق متوجّهاً إلى الجامع، ما كان يقوله لي السيّد عبد الحسن عن كسلي. لم يكن يقصد قرب بيتي من المسجد فقط، ولا قلّة بقائي فيه، بل إجابتي له بكلمة "لا" كلّما دعاني إلى أن نذهب معاً إلى العزاءات في القرى. "أنت الذي اخترت أن يكون البيت هكذا قريباً من الجامع؟"، كان يسألني، وأنا أُجيبه ممازحاً، بأنّ أهل

الشقيفيّة هم الذين اختاروا البيت لي وهو لاءمني. لا أكثر من ثمانين خطوة كنت أعدّها كلّما ذهبت منه إلى المسجد. حتى إنني كنت أستطيع أن أتبيّن من أتى إليه من الناس، وذلك بمجرّد الالتفات إليه من النافذة عندي في غرفة الاستقبال.

وهم أيضاً، من نوافذ بيوتهم، سيعرفون أنّي جئت فيلحقون بي. لا أكثر من خمس دقائق أو عشر أكون فيها وحدي، جالساً في وسط الجامع، منقّلاً حبّات المسبحة بين أصابعي. ذاك لأن لا شيء يجب أن أفعله قبل مجيئهم. ليس من شيء حولي لأُشغل بترتيبه أو بإرجاعه إلى مكانه. كان جدّي السيّد مرتضى يُعيّر أهل الحسانيّة ببخلهم لأنّهم لا يفعلون شيئاً لجامعهم. بل إنّه كان يضرب بهم المثل فيقول عن الأمكنة الخالية إنّها مثل جامع الحسّانيّة ليس فيه إلّا إبريق الوضوء.

– الحمد لله على السلامة، قال الرجلان اللذان دخلا إلى الجامع من بعدي. كانا قد شاهداني لا بدّ، وأنا خارج من بيتي إلى الطريق. بتهنئتهما إيّاي بالسلامة، كانا يقصدان أن يسألا لا أن يهنّئا، أن أقول لهما ماذا وجد فيّ الطبيب.

كانا أكثر أهل الشقيفيّة تردّداً إلى الجامع، ليس من أجل الصلاة والاستماع إلى الموعظة، لكن من أجل أن يصرّفا بعضاً من وقت نهارهما الطويل. وأنا، لمعرفتي بهما، أروح أحادثهما فيه بما كنت سأحادثهما فيما لو كانا في بيتي.

وإذ لم يفدهما تلميحهما عن سلامتي كان عليهما أن يزيدا استفهامهما وضوحاً:

– بقيت في المستشفى يومين؟

– يومين، أجبت بعد أن بدوت كأنني أعدّهما.

– كنت وحدك؟

– كان معي بلال، ابن المرحوم أخي.

يريدان أن يعرفا. وأنا، إن ظلّا على فضولهما، لن أستطيع أن أظلّ أوارب وأجيبهما فقط عمّا يسألانه.

– في غيابك أحضروا الطبيب للحاج زينو

– مرّة أخرى؟

– على عادته، ينسى أنّه مريض بالسكّري ويروح يأكل نصف صينيّة البصما التي جاء بها ابنه من النبطيّة.

كانا يريدان أن يسلّياني، ساعيين إلى التخفيف من وطأة المرض بتحويله إلى واحدة من فكاهاتهم.

– وابنه، ألا يعرف أنّ البصما تضرّه؟

وإذ أضفت على ذلك أنّ لا طريقة لمنع مريض السكّري عن أكل الحلوى إلا بإخفائها من بيته، بدوت كأنني أوقف الكلام المازح الذي كانا سيسترسلان به عن الحاج زينو.

وقد زاد في إسكاتهما قولي لهما، بعد أن نظرت إلى ساعتي، إنّ أذان العصر سيحلّ بعد دقيقتين.

– الكهرباء مقطوعة من أمس، قالا معاً، ثمّ انفرد أحدهما بالقول إنّهم في جميع القرى باتوا يشغّلون الأذان بالبطّاريات.

ولكي أعود إلى مسايرتهما، قلت لهما إنّنا بدلاً من ذلك يجب أن نرجع الأذان إلى ما كان عليه، بلا كهرباء وبلا بطاريّات. ثمّ خطر لي

أن أشركهما بالنسمة الهادئة التي أتتني من تذكّري السيّد أمين واقفاً على مصطبة الجامع ومطلقاً أذانه الذي لن يسمعه إلا الذين في البيتين أو الثلاثة القريبة من الجامع، مع أنّه كان يجحظ عينيه فيما هو يُخرج كلّ ما في صدره من هواء.

– السيد أمين... الله يرحم السيّد أمين، قال أحدهما متأسّفاً ومتفكّراً.

* * *

كان الناس يملأون المقاعد كلّها في عيادة الطبيب. تردّد قليلاً ذلك الشاب، بعد أن دخلت، في القيام ليجلسني في مكانه. وقد انتظرتُ قليلاً قبل أن تنتبه المرأة، أو الرجل الجالس بجوارها، إلى أن يبدّلا مكانيهما فيصير هو من سيكون إلى جانبي وليس هي. حين أتمّا ذلك مدّ بلال ذراعه مشيراً إلى حيث الكرسي. بدا صغيراً يقلّد ما يفعله الكبار. ابتسمت له فيما أنا أجمع طرفي عباءتي لأبدأ بالجلوس. كان يعرف أنّني أحتاج إلى أحد يكون معي، وأنّني أحتاج، قبل أن أقوم بتلك الأشياء مثل الجلوس والقيام، أن أبدو كأنّني أُدعى إلى ذلك.

ما أحدثه دخولي من تلفّت وارتفاع للنظرات والرؤوس لم يدم كثيراً بعد جلوسي. لا أكثر من لحظات عاد الجالسون إثرها إلى الصمت الذي كانوا فيه. كان بلال واقفاً مستنداً إلى الباب وناظراً إليّ كأنّه ينتظر أن أقول له شيئاً. بعد انقضاء دقائق التفتت إليّ موظّفة الطبيب من وراء مكتبها لتقول لي إنّه في الداخل، وإنّه سألها عنّي. وقد أربكني ذلك فقد خطر لي أنّ الجالسين سيعاودون النظر إليّ

ليتبيّنوا شيئاً عن مرضي. لكنّني، مع ذلك، عرفت أنّ جلوسي بينهم لن يطول وأنّني، حين يفتح الطبيب بابه، سأكون أوّل الداخلين.

– أهلاً شيخنا، قال لي فيما هو يمسك بإحدى يديه درفة الباب ليبقيها مفتوحة.

– السلام عليكم، قلت له حين صرت في الداخل.

– كيفنا؟ قال، فيما هو يستدير ليصير وراء مكتبه، وليبدأ بعد ذلك رفع الأوراق عنه ليصل إلى ما يخصّني منها.

ثم جلس فيما هو مستمرّ بتحديقه إلى أوراقي، مقّلباً صفحاتها.

– ضروري أن نُجري العمليّة

لم أجب بشيء. خفت أن أتلعثم، أو أن يطلع صوتي ضعيفاً ومرتجفاً.

– خائف؟

– وقل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا... أجبت بصوتي المرتجف إيّاه.

– لن تموت، قال ناظراً إليّ، في عينيّ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة التي لم أستطع إلّا أن أرى فيها خبثاً.

– ومن دون عمليّة ماذا...؟

– تموت. ليس اليوم، ولا غداً، ولا بعد شهر أو شهرين... لكن...

كان يتكلّم بنبرة محايدة ومنتظرة، كأنّما ليعرف منّي أيّ الاحتمالين أختار.

وقد بقيت ساكتاً، أو أنّني كنت أتباطأ، لا من حيرتي، بل من ضيقي ومن استمهالي لنفسي لكي يكون هناك وقت بين ما سمعته وبين ما سأقوله.

– بعد العمليّة، هل سأظلّ كما أنا؟

– هي عمليّة صعبة، وطويلة، لأنّنا سنستأصل أعضاءً ونضع في مكانها ما يقوم بشغلها.

– وخطرة؟

بحركة من رأسه بدا كما لو أنّه لم يفهم، أو أنّه لا يجيب عن سؤال مثل هذا.

– أقصد وأنا في العمليّة، تحت العمليّة، هل...؟

– في الطبّ لا شيء مؤكّداً ولا مضموناً، لكنّنا في المستشفى أجرينا مثل عمليّتك هذه مرّات كثيرة.

ولم يكمل، لكنّي فهمت أنّه يقصد أنّ المرضى لم يموتوا، أنّه كان يخرج من العمليّة والمريض حيّ لم يمت.

– لكنّك ستوقّع على ورقة رفع المسؤوليّة حين تدخل، قال معيداً جملة من ذلك الدرس الذي قاله لي، حين كان أبلغني عن مرضي، بأنّهم، في هذا المستشفى، لا يخفون عن المريض شيئاً.

– ... لكن هل سأظلّ كما أنا؟ أعدت عليه السؤال الذي كان أغفله.

– هي عمليّة صعبة. هناك أشياء ستتغيّر في جسمك، أقصد في وظائف جسمك...

لم أشأ أن يكمل. ذاك أنّه اتخذ هيئة من سيبدأ بأن يحصي ما سيتغيّر فيّ وما سأخسره. وهو فهم أنّني تلقّيت هذا اليوم ما يكفيني. قال لي إنّنا سنتكلّم عن كلّ ذلك حين أكون في المستشفى، معلّلاً ذلك بغمزة من عينيه أشار بها إلى الكثيرين المنتظرين هناك، في الخارج.

– ومتى أرجع؟

– لسنا مستعجلين كثيراً... أنت رتّب أمورك ثم اتّصل بي.

حين فتح لي الباب لأخرج بدا ناظراً إلى من سيدخل بعدي من الجالسين. وحين تعدّيت الباب، واقفاً بينهم، قال لي كلمة سريعة مودّعة: "أنتظر اتصالك"، قالها مصحوبة بتلك النظرة التي سريعاً ما استردّها ليبدأ اهتمامه بالمريض الذي قام ليصير في الداخل من بعدي. كنت متعرّقاً وأنا في الخارج، بل إنني قاومت حاجتي إلى أن أرفع العمامة وأمرّر يدي على جبيني ورأسي لأمسح العرق الذي كان قد تجمّع مبلّلاً أطرافها. قالت لي الموظّفة بعد أن استدرت باتجاهها أنّها لا تريد منّي شيئاً، وهي أعطتني البطاقة التي أحتاج إليها لاتصالي بها أو بالطبيب. ثمّ استدرت لأرى ابن أخي الذي كان لا يزال واقفاً في مكانه، مبعداً نظره عنّي لكي لا يراني وأنا في حرجي ذاك. ولا أعرف لماذا نظرت إلى البطاقة التي أعطتني إيّاها الموظّفة كأنّني أتبيّن شيئاً فيها، على الرغم من أنّ ذلك أخّرني وعرّضني وقتاً زائداً لنظراتهم. ثمّ، أمامهم، تمهّلت وأنا أضعها في جيبي. كأنّني كنت أؤخّر لحظة الخروج المربكة، والتي تحتاج منّي إلى أن أتهيّأ لأقول "السلام عليكم"، فيما أنا أخطو باتجاه الباب الذي يقف ملاصقاً له ابن أخي.

* * *

كان من الأفضل لي، أنا مريضه، ألّا أبلَّغ مسبقاً عما سيحصل لي. ثم تلك النبرة التي كانت تقع عليّ مهدّدة، وليس محايدة كما قد يسمّيها هو أو يصفها. وهو، إلى ذلك، لم يبلغني إلا ما يريد أن يبلغه. "نتكلم حين نصير في المستشفى" قال، هكذا مثلما كان يفعل معلّم المدرسة

حين يقول: الآن أغلقوا الكتب، سنكمل القراءة في الغد.

كان من الأفضل لي، بعد أن أفيق من العمليّة، أن أعرف بنفسي ما خسرته من جسمي، أو ألا أفيق أبداً. ذلك أهون عليّ من أن أتحزّر كيف سأكون وماذا سينقص منّي.

– من هنا، من هنا السيّارة، قال لي بلال منبّهاً إيّاي أنّنا ننحرف في مشينا إلى جانب آخر من الطريق.

وأنا أطعته مغيّراً وجهتي إلى حيث تقدّم عنّي خطوة، موفّراً عليّ أن أُجهد رأسي بتذكّر أين أوقفت السيّارة. وقد تركته يمشي أمامي ليفسح لي الطريق بين السائرين.

– صارت قريبة، قال مادّاً يده ليشير إلى المفرق الذي سننعطف إليه.

أولئك المقبلون على الموت، في الأفلام التي شاهدتها، كانوا يقرّرون ماذا سيفعلون في ما تبقّى من حياتهم. بعضهم قال إنّه سيعيش ما حلم بأن يعيشه، بعضهم قال إنّه سيجرّب ما لم يجرّبه من قبل، أن يزور بلاداً، أو أن يزيح عن كاهله المسؤوليّات التي ترهقه، أن يتعطّل عن شغله مكتفياً بتأمّل ما سبق من سنواته. كأنّهم لا يرون في الحياة إلا الوقت، يقسّمونه أجزاءً لا فرق بين أوّلها وآخرها. الوقت الباقي هو للعيش الباقي عندهم، وليس للخوف من الموت، الخوف وحده.

لن أموت، قال لي الطبيب مدارياً، أو كاذباً. ما يدّعونه من أنّهم يقولون للمريض كلّ شيء عن مرضه ليس إلاّ نصف ما يعرفونه، ذاك لأنّ عليهم أن يتركوا شيئاً لأنفسهم، وإلا كيف سيمْكنهم أن يطمئنوه مرّة، ويعابثوه مرّة، ليسلّم لهم كلّ أمره.

– من هنا .. من هنا، صار يقول لي بلال كلّما التفت إليّ ليراني إن

نت لا أزال خلفه. حتّى إنّه، حين يشتدّ الزحام، يروح يمدّ يده إليّ
أنّما لألتقطها.

– وصلنا، هناك السيّارة، قال مشيراً إليها بالتفاتة من وجهه.

وأنا رأيتها. اليومان اللذان انقضيا على خروجي من المستشفى
اداها اتساخاً. ثمّ تلك اللطخة التي، لوهلة، بدت لي كأنّها تتحرّك
متفاعلة مثل شيء حيّ.

– سأغسلها، سأغسلها هناك في بيتنا، قال لي حين أحسّ بنفوري
منها. وهو، لذلك، أخذ المفتاح من يدي وتركني أنتظر أن يفتح لي
الباب لأدخل.

* * *

من السيّارة الوسخة، من نافذتها المفتوحة، راحت تأتيني نسمات أنعشتني وقوّتني. بل إنّها أعادت إليّ كلام الطبيب صحيحاً وغير موارب. ليس الموت ما ينتظرني، بل النقصان. هذا الرأس الذي كان لا يزال مقفلاً على ما فيه، منذ أن أُبلغت بمرضي، وجدَتْ تلك النسمات الباردة ممرّاً إليه. حتى إنّني وجدت نفسي، بعد موجة الطمأنينة تلك، أنقر بإصبعي على المقود كما لو أنّني أوقّع لحناً أطربني. وقد أدار ذلك وجه بلال إليّ.

– عندكم أو عندنا؟ سألته.

– عندنا، قال، تتغدّى وترتاح عندنا.

– وماذا ستطعمنا أمّك؟

– أكلاً طيّباً، حين لا تذهب إلى شغلها تطبخ أكلاً طيّباً.

تخيّلتها واقفة فوق مجلى بيتها، بجسمها القويّ، تغسل الخضر، ثم، في مشهد ثان، تنزل وعاءً عن الرفّ الذي يعلوها، ثمّ تستدير لتحضر شيئاً كانت قد وضعته على الطاولة وراءها.

– ولن تجيء رفيقاتها؟

– لم تقل لي، كانت ستقول لي لو كُنّ سيجئن.

وقد عدت إلى نقر المقود بإصبعي، كما عاد هو ينظر إليّ بطرف عينه.

– عندنا، سنتغدّى عندنا، قال مجارياً هدأتي ومسروراً بها.

وأنا، لكي أبدو أنّي ألاعبه، قلت له: لكنّنا لم نعرف ماذا طبخت أمّك.

وقد عدت إلى تخيّلها هناك، في مطبخها، تكمل ما كنت رأيتها تفعله، نافضة يديها لتزيل ما علق بهما من الماء، ثمّ تعود تلتفت كأنّها تبحث عن شيء نسيت أين وضعتْه.

أحسّ ببلال كأنّه يدفعني دفعاً إلى أن أقترب منها، أقصد ذلك القرب الذي يتعدّى أن نظلّ كما نحن، أنا وهي، قريبيْن منه، لكن متباعديْن في ما خصّنا. كان يخطر لي في مرّات أن أجاريه، كأن أسأله مثلاً مَن هنّ رفيقات أمّه، وهل هنّ نساء فقط، أو أن أقول له، من دون أن يكون لذلك مناسبة: ربما تكون أمّك ضجرانة الآن.

– لكن ماذا ستقول أمّك حين ترى السيّارة وسخة هكذا؟

– لا يهمّ، هي رأتها في الصباح حين جئت لتأخذني.

– كانت في البيت؟

– كنّا أنا وهي ننتظرك. هي كانت تتركني واقفاً وراء الشباك

لتشتغل شيئاً، لكنّها كانت تعود وتقف معي.

قال ذلك كأنّه يفشي سرّاً، وهو التفت إليّ ليرى كيف وقعَ ذلك عليّ.

و لم أرغب في أن أدفعه خطوة إضافيّة إلى الأمام، كأن أقول له، مثلاً، إنها كانت بذلك تستعجل مغادرته لتنصرف إلى شغلها، من أجل أن يجيبني أن لا، ليس من أجل ذلك كانت تقف وراء النافذة.

ثمّ إنّه كان كافياً لي أن أبقى متصوّراً وقوفها هناك، فهذا وحده يظهر لي وجهاً آخر لها. أو أنّه، على الأقلّ، يحرّك ذلك الحياد الذي أبقانا، منذ أن مات أخي، نؤدّي وظيفة الجلوس ذاتها عند كلّ زيارة لي إلى بيتها. "أهلاً بالسيّد" تقول لي بعد أن تفتح الباب، ثمّ "تفضّل يا سيّد"، ثمّ تشير إلى مكان جلوسي ذاته على الكنباية. ثم السؤال عن القهوة. ثمّ استراقي النظر إلى جسمها وهي ذاهبة لتعمل القهوة. ثمّ تلك المسافة المتباعدة في جلوسنا الذي ستقول في آخره، مبقية في يدها النقود الملفوفة والمغطّاة بورقة كأنّما لتحجب ما في داخلها: "شرّفت يا سيّد".

– ما رأيك لو غسلنا السيّارة في المحطّة؟

بدا لي أنّ دخولي بها نظيفة ملمّعة يُحدث فرقاً.

– كما تريد، قال وإن بدا أنّه يستعجل الوصول إلى البيت.

– هي ربع ساعة لا أكثر، قلت غير مطيع رغبته. ذاك لأنّي لم أحبّ أن يكون دخولي إلى بيتها إلا كما تخيّلت.

* * *

فكّرت في أنّني، هذه المرّة، أستطيع أن أعبر متجاوزاً ذلك الخطّ الذي

لم أجرؤ أبداً على وطئه. تلك الخطوات القويّة غير المتردّدة، التي تظلّ هي ذاتها عند دخولي وعند خروجي، لم تترك ولو فسحة قليلة لأن أحيد عمّا اعتدت قوله وترداده. لم أستطع أن أمرّر، بين كلمات الترحيب المجاملة، كلمة واحدة تجعلها تدير وجهها إليّ مستفهمة متسائلة، وأن تروح تفكّر، بعد خروجي، لماذا قلت تلك الكلمة وماذا أقصد بها.

هذه المرّة سيتكفّل مرضي بأن يُضعف تلك القوّة التي لم تفارقها أبداً. وقد بدأتْ بذلك، بحسب بلال الذي قصد أن يبدو كأنّه يغمز لي بشيء حين قال لي عن وقوفها على الشبّاك منتظرة وصولي.

– هي تعرف بماذا أنا مريض؟

– مَن؟

– أمّك، أنت حدّثتها عنّي؟

فاجأتُه. كان يظنّ أن ما نعرفه عن ذلك، أنا وهو، لن نتحدّث فيه.

– هي تعرف.

كان يعلم أنّني لن أعود إلى إحراجه بأن أسأله كيف عرفتْ. وهو انتظر دقيقة قبل أن يقوم عن الكرسي قبالتي:

– سأرى إن كانوا أزالوا اللطخة عن الزجاج، قال فيما هو يسير إلى المغسل ورائي.

وهو سيطيل وقوفه هناك، ناظراً إليهم يسلّطون الماء الذي أسمع تدفقّه، غزيراً وسريعاً، على حديد السيّارة. وأنا سأظلّ جالساً على ذلك الكرسي، كأنّني أنتظره.

– رجعتْ جديدة، قال فيما هو يتقدّم عائداً إليّ.

– وصلوا إلى لونها الأصلي؟ قلت مازحاً ليفهم أنّنا عدنا إلى ما قبل سؤالي له عن معرفة أمّه بمرضي.

– رجعت جديدة، قال ثانية لكي ألتفت وأراها.

بدت جديدة تلمع . في كلّ مرّة يفاجئني كيف أنّ لونها يظلّ محافظاً على جدّته تحت الغبار الذي يغطّيه.

– وهم نظّفوا الزجاج أيضاً، قال مذكّراً إيّاي باللطخة التي كانت عصيّة على الإزالة.

وحين أخرجوها إلى الشمس رأيته يدور حولها ليرى إن كان هناك شيء لم يطله تنظيفهم. وحين أنهى تفحّصه ذاك نظر إليّ وهو يهزّ رأسه معلناً موافقته على ما فعلوه. ولمّا قمت عن الكرسي لأضع يدي في جيبي، رأيته يحرّك يده ليفهمني أنّه أنهى الأمر معهم ودفع لهم مما معه.

وحين عدت ومددت يدي إلى جيبي جعل يهزّ كتفيه ويرفع يديه الاثنتين رافضاً أن يستعيد ما دفعه. رحت أدفع المال دفعاً إلى يده وإلى جيبه وهو يتمنّع. "معي... معي مصاري" صار يقول حين تمكّنت من وضعها في جيبه. ثمّ، وأنا أبتسم له، صفعت خدّه بيدي صفعة تحبّب.

في السيّارة، ونحن خارجان من المحطّة، قال لي إننا سنتغدّى أكلاً طيّباً، كأنّما لأجيبه مؤكّداً له أنّي سأكون معه.

– أكل طيّب... همممم، قال حين تأخّرتُ في موافقته على ما قاله.

– جعت؟ سألته.

– جعت، وأنتَ؟

– جعت، لكن سآكل بعد نصف ساعة أكلاً طيّباً.

* * *

أرى أن لا شيء يعيب في تلك الرغبة التي ما زلت، إلى الآن، كاتماً إيّاها في داخلي. حتى تسرّقي النظر إليها، حين تستدير لتذهب إلى المطبخ، لا أجده معيباً. لقد انقضت سنوات كثيرة على موت أخي، ولا بدّ أنّ ما عاشته، من بعد موته، نفّض جسمها وخلّصه ممّا تعلّق عليه من جسمه. لكنّني، مع ذلك، أجدني متذكّراً وجه أخي، مبتسماً لي، تلك الابتسامة الودودة لكن التي تظهره عارفاً بنيّتي حيالها. لا سخط في ابتسامته تلك ولا لوم أو عتب، بل شيء يشبه أن يقول لي، بنوع من المكر الخفيف: "رأيتك"، أو "ضبطتك".

لكنّني، رغم ما يبدو لي من مسامحته، أجدني رادّاً عليه بأنّه مات وبأنّني لا أفعل ما يؤذيه ويضيره إن تطلّعت إلى ما ينكشف من جسمها. كأنّني أريده أن يتوقّف عن الظهور لي، أن يوقف تلك الابتسامة، وأن يعدني فوق ذلك بأن لا يُظهر لي وجهه أبداً إن حصل وذهبت معها إلى أبعد من النظر إلى أسفل ساقيها أو إلى يديها حين تكونان تقدّمان فنجان القهوة لي.

كانت منتظرة وصولنا، عند الشبّاك ذاته ربّما، ذاك الذي كانت قد وقفتْ عنده مع بلال في الصباح. وهي، من فور ما رأت السيّارة تدخل الطريق الضيّقة الموصلة إلى بيتها، خرجتْ لاستقبالنا.

– أهلاً، أهلاً ياسيّد، قالت فيما هي تقف بقرب السيّارة منتظرة نزولي منها.

كان بلال، الذي سبقني إلى النزول، قد وقف إلى جانبها كأنّما ليستقبلني هو أيضاً. وحين رآني أسير خطواتي الأولى استدار متّجهاً إلى باب البيت المفتوح.

– أهلاً ياسيّد، قالت لي حين وصلتُ ولم يعد بيني وبينها إلا خطوة واحدة.

– أتعبتك الطريق؟

– لا أتعب حين يكون بلال معي.

ابتسمتْ. كانت ستقول شيئاً عن تعلّق بلال بي، لكنّها عدلت لتفسح الطريق لي، ولتسير بعد ذلك إلى جانبي مرافقة خطوي.

أمام الباب المفتوح، وقد تراجعت عنّي لأسبقها إلى الدخول، أحسست بتلك النظرة الخاطفة، لكن المتفحّصة، كأنّ نظرات الترحيب التي سبقت لم تنبئها عنّي بشيء.

– تفضّل يا سيّد، قالت مشيرة إلى الداخل، حيث الكنباية التي أعرفها.

وفيما أنا أتقدّم لأجلس حيث أعرف، شعرت بأنّ عليّ أن أفعل شيئاً يخالف ما كنت أفعله في زياراتي السابقة لها. أن أخلع عنّي عباءتي مثلاً، لكي لا أبدو مهيّئاً نفسي للخروج، أو أن أروح أتجوّل في غرفة الصالون الواسعة وأنظر إلى الخارج من شبابيكها.

أو أن أنتظر أن تفعل هي شيئاً، كأن تبدأ بأن تسأل، بالكلام، عما لم تجبها عنه نظرتها المختلسة تلك.

– إذا كنت تحبّ أن ترتاح...

كانت تقصد غرفة بلال. أن أتخفّف من بعض ثيابي هناك، وأن

أتمدّد على السرير في وقت ما تكون مشغولة بإنهاء الطعام.

وقد بدوت أنّني أنتظر ذلك. قلت لها إنّ الطريق أتعبتني فيما أنا أقوم عن الكنباية متلفّتاً حولي.

أعجبني قولها أن "أرتاح"، وأن أقضي وقتاً في الغرفة بمفردي، حتى لو كانت غرفة بلال، وأن أقوم بعد ذلك عائداً إلى الصالون من داخل البيت.

كذلك أعجبني أن تسير معي تلك الخطوات كأنّما لتدلّني على الغرفة التي ستخلي منها بلال، وتلقي نظرة عليها قبل أن تقول إنّها ما زالت مرتّبة وإنّ بلال لم يتمكّن من خربطتها بعد.

وقد أفرح ذلك بلال الذي، قبل أن يخرج، سألني إن كنت أحبّ أن أقرأ فيعطيني واحداً من كتبه. ثمّ سألني، بعد أن أصبح عند الباب، واقفاً معها، إن كنت أحبّ أن يغلق الباب. أجبته مبتسماً. ثمّ، بعد أن صرت وحدي، جلست على طرف السرير ورحت أفكّر ماذا أفعل في نصف الساعة أو الساعة التي سأقضيها وراء الباب المقفل.

ولكي أكون في هيئة مَن يرتاح خلعتُ العباءة والعمامة، ثمّ الجبّة، وعدت إلى السرير لأجلس على حافّته. ربّما كان عليّ أن أذهب إلى الحمّام لأتوضّأ، فكّرت، وأن أسأل بعد ذلك عن سجّادة الصلاة. لكنّني رأيت أنّني، إن فعلت ذلك، أكون أُرجع نفسي مسافات إلى الوراء، أو أكون أحفر بيدي ذلك الخطّ الذي يبقينا، أنا وهي، كلاً في جهته. لكنها، ولأنّني لم أفعل، لا بدّ أنّها تسائل نفسها كيف أنّني لا أصلّي.

أو ربّما تظنّ أنّني، وراء الباب المغلق، أقوم بذلك مجيزاً لنفسي

الاكتفاء بالتوجّه إلى القبلة. ثمّ رحت أفكّر أن ليس الصلاة وحدها ما يشغل رأسي، أو عدم الصلاة، بل عمامتي أيضاً، ولحيتي، وعباءتي، ونظرتي التي لا أستطيع أن أُبديها كأنّها تضمر شيئاً. أعرف أنّ من هم مثلي لا يتحرّجون عن فعل ذلك، وأنّهم، مع النساء، يتلاعبون بكلامهم ونظراتهم وحتى بأيديهم يمدّونها لتلامس أجسامهنّ. وفي النجف، في السهرات التي كنّا نقضيها معاً، كانوا يفحشون في الكلام عمّا سيفعلونه وعمّا سبق لهم أن فعلوه. "هذا هيّن، هين" كان يقول لي السيّد مُضر قبل أن يضيف أنّ النساء لهنّ شهوات أيضاً وأنّهنّ يُطِعْنها في أحيان.

كنتَ واقعاً في ذلك التردّد بين أن أبادر أنا إلى شيء أو أن أنتظر منها ما يدفعني إلى ذلك حين سمعت القرع الخفيف على الباب.

– أمّي تقول أن نتغدّى، قال بلال من وراء الباب المغلق.

للحظة، فيما أنا أقوم عن السرير، خطر لي أن أخرج هكذا كما أنا، بدشداشتي البيضاء وحدها.

– ادخل يا بلال، قلت له، كأنّما لأختبر ظهوري ذاك كيف سيكون.

– أمّي تقول أن نتغدّى، قال مادّاً رأسه من الباب نصف المفتوح وناظراً إليّ.

– أنا آتٍ، قل لها أنا آتٍ، قلت فيما أنا أستعجل ذهابه لأبدأ مسرعاً بارتداء ثيابي، ثيابي جميعها.

* * *

وقفا معاً عند الباب، هي تنتظر أن أبدأ بتحريك سيّارتي وهو، بلال،

يلّوح لي بيده مرّة، ثم بيديه الاثنتين معاً. وأنا رحت أبتسم لهما، ملتفتاً إليهما قبل أن أدير وجهي إلى الطريق ورائي، حيث سأُرجع سيّارتي. كنت خجلاً من زيارتي تلك، على الرغم من أنّ شيئاً لم يحدث فيها و لم أخطئ أنا في شيء. كنت خجلاً من جلوسي معهما حول طاولة الطعام، ومن الكلام الذي رحت أحكيه كأنّني أمثّله تمثيلاً، ومن مبالغتي في إطالة الوقوف عند الباب وقولي كلمات الشكر وكلمات الوداع.

ما كنت أحتاج إليه هو أن أستمع إلى بلال. أن يجلس معي في السيّارة، هنا إلى جانبي، ويروح يمرّر لي ما أريد أن أسمعه. أن يقول ماذا قالت بعد أن استدارت عن الباب عائدة إلى داخل البيت. ذلك الذي قد لا يزيد عن كلمة واحدة أردت أن أسمعها، حتى إنّني، وأنا لم أبلغ طريق السيّارات بعد، فكّرت في أن أرجع بسيّارتي وأطلق زمّورها ليسمعه بلال ويأتي إليّ. "ماذا قالت أمّك؟" أسأله، وهو سيعرف بماذا يجيبني. وأنا سأفهم، إذ إنّني لا أحتاج إلّا إلى تلك الكلمة الواحدة، أبدأ من بعدها مسيري إلى الطريق.

كلمة واحدة، أو حتى ابتسامة أراها على وجه بلال ستكون كافية لي. ذاك أنّ ما أخجلني قد لا يكون مخجلاً. وما أرى أنّه كلامي الكثير، هناك عند الباب، ربّما يكون قد زادها قرباً إليّ. كلمة واحدة أو ابتسامة أعرف منها كلّ شيء. أعرف كيف كان جلوسي هناك على الطاولة، كيف كان شكلي وأنا جالس مستقيم الظهر على ذلك الكرسي ورأسي مرتفع عنهما. وكيف كنت وأنا أظنّ

أنّني أنجح في تقريبها إليّ ولا دليل عندي إلا ظنّي ذاك.

* * *

وبين ما أخجلني، وأنا أسوق سيّارتي على الطريق، عودتي إلى التفكير في مرضي. بدا لي كما لو أنّه زاد في عمري كبراً وأني تصرّفت هناك وتكلّمت بما لا يليق بي، أو أنّه أضاف ثقلاً جديداً إلى الأثقال التي أبقتني، شهراً بعد شهر بعد شهر، ماكثاً في ما أنا فيه لا أبدّل كلمة ممّا اعتدت أن أقوله أمامها. وقد أغمضتُ عينيّ، وأنا أسوق، مطبقاً جفوني بقوّة عليهما، كأنّما لأضع حدّاً لما أجهدني التفكير فيه. "فكّر في شيء آخر" كنّا نقول في النجف، ناصحين بعضنا بعضاً ومنكّتين، في الوقت نفسه، على تلك النصيحة. "فكّر في شيء آخر" كان يقول لي السيد مضر كلّما رآني صافناً مستغرقاً في ما أفكّر فيه. وأنا كنت أردّها له، "أنت فكّر في شيء آخر يا سيد مضر" أقول له قاصداً أنّ كثرة تفكيره في النساء سترهقه وتُضعف جسمه.

الفصل الثاني

أما ماذا سينقص من جسمي فهذا يحتاج إلى وقوف آخر أمام الطبيب هناك في عيادته. أعرف أنّ عضواً واحداً لن يكفيه، وأنّني، فيما هو يعدّد ما سيستأصله منّي، أكون أتلقّى ذلك مثل غصّات أبتلع لها ريقي مرّة بعد مرّة. وهو، في أثناء ما يكون يحدّق في وجهي، في عينيّ، سيتوقّف بعد كلّ كلمة يقولها، كأنّه ينتظر موافقتي على ما سيفعله. أو يكون ينظر متبيّناً كيف أنّني أتردّد بين كلّ كلمة وأخرى، على الرغم من أن لا خيار لي. لا أستطيع أن أقول "لا" على أيّ واحدة. تفضيل الموت على الخسارة لا نشاهده إلاّ في الأفلام ولا نقرأه إلاّ في كتب الروايات. أقصد الموت الأكيد الذي لا أحسب أنّ من كانوا قبلنا كانوا قريبين منه كما أنا الآن. أولئك الذين قرأنا عنهم متمنّين الموت أو منتظرينه كانوا يعلمون أنّ بينهم وبينه مسافة. ذاك أنّه كان مخبّأً مُقفَلاً عليه في أجسامهم. في أسوأ الأحوال كانوا يفكّرون في أنّه قد يحدث وقد لا يحدث، قد يأتي الآن وقد يتأخّر سنة أو سنوات. لم يكن لهم في أيّامهم أطبّاء يتطلّعون في الصور والأوراق ويعيّنون لمريضهم، بالسنتيمترات، المسافة التي تفصله عن موته. جدّي السيّد مرتضى ظلّ شهوراً كثيرة يتقلّب بين الموت والحياة. في يوم يقولون إنّه سيموت الليلة وفي اليوم الذي بعده يقولون إنّه فتح عينيه ونادى على عمّتي حسيبة لكي تأتي وتسقيه ماءً. "لعن الله هذا العمر ما أطوله" كان يقول، لكنّه، بعد أن تمضي ساعتان على صحوته، يقول

لها أن تأتيه بالطعام من أجل أن يقوّي جسمه. "كل يا أخي، كل، هذه ستقوّيك" تقول له فيما هي تقرّب من فمه اللقمة التي حشتها طعاماً.

"كل... كل، هذه ستقوّيك" أقول لأبي الذي، هو أيضاً، سيطيعني من أجل أن يبقي نتفة الحياة فيه، تلك التي لا تكفيه حتّى لأن يقوم عن كنبايته أو يقول كلمةً تظلّ ترتفع من بطنه إلى حلقه مثل رغوة لا يعرف كيف يتقيّأها. "كل يا أبي، هذه تشفيك، هذه تقوّيك..." أقول له فيما أنا أنظر إلى وجهه الذي شحب وترقّق جلده. وأنا لا أكون أفعل إلا مثله حين أروح أفكّر في أنّ بياضه المريض قد يزول، أو يتوقّف، إن أخرجناه، كلّ يوم، ساعة أو نصف ساعة إلى الشمس. "هذا الخباء سيعفّنه" أقول لزوجتي بعد أن أنتهي من إطعامه وأخرج من عنده حاملاً صحنه. وهي لم تعد تلتفت إليّ ملقية عليّ تلك النظرة التي تعني "ولماذا لا تخرجه إلى الشمس، هو أبوك، هيّا أخرجْه".

حتّى حين رفعوا بنادقهم واستعدّوا لأن يطلقوا النار ظلّ أبي مندفعاً نحوهم، رافعاً يده لكي يصفع أوّل من سيكون في طريقه. ولم يردعه عنهم صوت الرصاص الذي بدأوا يطلقونه في الهواء... كنت أنا قد تراجعت عنه، خطوة واحدة، ثمّ خطوة أخرى، وذلك لأوازن بين خوفي الذي يردّني إلى الوراء، وخجلي من تركي له يتقدّم إليهم وحده. وحين بدأوا يهدّدون بمكبّر الصوت الذي كان معهم بأنهم سيضربون الناس بالرصاص، عدت وتقدَّمتُ إليه خطوة، لكن لأمسكه من عباءته وأردّه إلى الخلف. لكنّني لم أستطع، خفت

أن أربك حركته أو أن يندفع أكثر إلى الأمام ليتخلّص من اليد التي تمسكه. وحين أخفضوا فوّهات بنادقهم لتصير موجّهة إلى الرؤوس، لم أعرف كيف طلعت منّي تلك الصرخة التي بدأت معها بالتراجع، لا خطوة واحدة، ولا خطوتين، بل بالخروج من وسط الناس الباقين حوله ووراءه، أولئك الذين لم يُخفْهم أن يبدأ العسكريّون بإطلاق الرصاص على الأجسام والرؤوس. كنت خائفاً وخجلاً في الوقت نفسه. ومن هناك، من المكان الذي صرت فيه مبتعداً عن آخر من يتبعونه، طلعت منّي صرختي مرّة ثانية، لكن مخاطبة الناس جميعهم وليس أبي وحده: "سيصيبونكم بالرصاص، سيصيبونكم بالرصاص". ولم أعرف إن كان قد سمعني وهو هناك، بين كتل الغبار التي طلعت من وصوله ومن معه إليهم واحتكاكهم بهم. وقد رأيته، من بين كتل الغبار، وهو يعلو رافعاً جسمه النحيل كأنّما ليهمّ بأن يُنزل يده، صافعة لاكمة، على واحد من العسكريين الذين بدوا لي كأنّهم يتراجعون عنه، لكن من دون أن يخفضوا فوّهات بنادقهم. وفي لحظة ما دوّت تلك الرصاصات القليلة، التي ارتفع من بعدها الهرج، وليزداد إثرها اندفاع الناس نحو العسكريين، خطر لي أنّهم أصابوه هو. وبدلاً من أن أتقدّم إلى هناك غير عابئ بخوفي هذه المرّة، عدت إلى الصراخ من جديد، منادياً الناس أن يتوقّفوا: "قتلوه... قتلوه..." رحت أقول من حيث أقف، مازجاً خوفي هذه المرّة بسخطي عليه وكرهي له. وإذ توقّف الرصاص، ليتوقّف معه هرجهم، رأيته، في وسطهم، بين هؤلاء وأولئك، في مساحة خالية ليس فيها إلا هو، واقفاً منقّلاً نظره المحدّق بالأرض أمامه، ولا يفعل

شيئاً، ومثله كان الذين هم حوله، ساكتين وبلا حركة، كأنّها ليست إلا لحظات قليلة سيبدأون من بعدها صداماً يُقتل فيه كثيرون منهم.

لم يكن ذلك مثل أن يهزّ عصاه في وجوه لعّيبة الورق أو أن يهمّ بأن يصفع بيده سائقاً كاد يدهس صبيّاً. كنت، في أوقات مثل هذه، أقف، غير بعيد منه، منتظراً انتهاءه. بل إنّني، فيما كنّا نسير معاً بعد ذلك، مترافقيْن أحدنا بجانب الآخر، كنت أحسّ بأنّنا فعلنا معاً، نحن الاثنين، ما ينبغي فعله. لكنّه في تلك المرّة، أمام العسكريّين الرافعين بنادقهم، بدا لي، مع كلّ خطوة يخطوها إلى الأمام، كأنّه يردّني بعيداً إلى الخلف، معرّضاً إيّاي لأن أبلغ ذلك الدرك الأخير من الخجل والخوف.

كرهتُه في ذلك اليوم، وكرهتُ شجاعته التي تحوّل بها جسمه، هو الذي في الستّين آنذاك، إلى أن يصير يقفز وينطّ ناسياً عمامته وعباءته ومسبحته التي لم تفارق يده. وقد استحييت أن أعود لأقف إلى جانبه حين بدا لي أنّ الرجلين اللذين سقطا قتيلين أوقفا اصطدام هؤلاء وأولئك. بقي واقفاً يحدّق فيهما ميّتين على الأرض، كأنّه يمنع مَن تحلّقوا، بعيدين خطوات عنهما، من أن يقتربوا منهما. وقد طال وقوفه هكذا مخوّفاً العسكريّين مما فعلوه، ومبقياً الناس حائرين بسخطهم لا يعرفون كيف يصرّفونه.

كرهته وكرهت شجاعته التي مات بسببها الرجلان اللذان لم أرَ صورتيهما إلاّ في الصحيفة بعد يوم أو يومين. أحدهما لم يعثروا له على صورة في بيت أهله فنشرت الجريدة صورته ميّتاً، لكن بعدما رُفع رأسه وصدره ليبين في الصورة جالساً مثل رفيقه الذي إلى جانبه في الصورة الأخرى.

لقد أطاعاه إلى حدّ أنّهما تركا له أن يقرّر الحدّ الذي يجب التوقّف عنده. وهو ابتعد في ذلك متجاوزاً الخطّ الذي كان عليه أن يقيهما وراءه. لكنّه، هو، قد نجا بعد أن أوقف نفسه عند نقطة المجازفة الأخيرة. لم يترك لغضبه، أو لشجاعته، أن يأخذاه إلى موته. لقد عرف أن عليه أن يتوقّف هنا، عند الحد الذي صار فيه احتمال موته مؤكّداً.

* * *

ابتسم لي ابني أحمد فيما هو يرفع إصبعه ليدلّ على الرباط الأبيض الذي يلفّ رأسه. وإذ أشار بعد ذلك إلى رأسي، فهمت أنّه يساوي رباطه ذاك بلفّتي، وأنّه يمازحني بأنّه الآن صار مثلي. قالت زوجتي في وقت ما كنت أحرّك يدي سائلاً إيّاه ماذا تحت الرباط، إنّ واحداً من الأولاد أصابه بحجر وأدماه. وهو، ليريني جرحه، رفع يديه الاثنتين هامّاً بأن يرفع الرباط عن رأسه. "لا... لا" قلت موقفاً إيّاه. ثمّ أمسكته بيده وذهبت به إلى غرفة الاستقبال لكي يفهمني كيف حدث له ذلك. قالت لي زوجتي إنّ الأولاد في الطريق يعادونه ويعادون أخاه. أما هو، وقد أوقفته أمامي بعد أن جلست على الكنباية، فراح يمثّل لي بيديه وبجسمه كيف أنّ الأولاد كانوا يبعدونه مع أخيه لأنّهم لا يريدونهما أن يشاركاهم اللعب. كانا، هو وأخوه، يقتربان ماشيين إليهم، فيصدّهما هؤلاء بنفض أيديهم وبإدارة ظهورهم ليمشوا معاً، من دونهما. تذكّرت جودت، الأخرس مثلهما والأصمّ، الذي كان الأولاد رفاقي يصرخون في أذنه متبارين مَن منهم يستطيع أن يُدخل صوته إلى داخل رأسه.

وهم، بعد أن يجرّبوا ذلك مرّات، يديرون له ظهورهم ليكملوا لعبهم من دونه. وفي مرّات كانوا يصرّون على أن يبقوه بعيداً عنهم مسافة يعيّنون طولها بالحجارة التي يرشقونه بها.

أمّا الذي ضرب أحمد بالحجر فطويل يرتفع رأسه شبراً عن رأس أحمد.

زمّ شفتيه وقلب راحتيه حين سألته إن كان يعرف مَن هو أبوه. ولما رحت ألحّ عليه بسؤالاتي وهو يعيد عليّ أنّه طويل وأنّه زاجر ومكشّر، سألتني زوجتي التي وقفتْ قريباً من الباب، إن كنت أسأل عن الصبيّ لأضربه. التفتّ إليها كأنّما لأردّ بشيء على ما قالته، ثمّ، بعد أن انتظرتْ ماذا سأقول، عدت إلى ابني أحمد ومددت يديّ لأرفع الرباط عن رأسه وأرى جرحه. كان غائراً تحت الشعر الذي لم يخطر لزوجتي أن تزيله بالمقصّ، وهي، لا بد، لم تفعل شيئاً لتنظيفه وتطهيره.

– كان يجب أن يأخذه أحد إلى الطبيب، قلت فيما أنا مقرّب الجرح إلى عينيّ.

– ليس معي سيارة لآخذه.

– ولا أحد من الناس هنا عنده سيّارة؟

لم تجب. وقد عرفتُ أنها ستحدّق قليلاً في وجهي، من حيث تقف ورائي بقرب الباب، ثمّ تغادر إلى المطبخ.

مرّة أخرى سألتُه من هو الولد ومن هو أبوه. وفيما هو يعيد عليّ الحركات ذاتها، خالطاً إيّاها بقلب كفّيه تقليباً متكرّراً، دخل ابني الصغير أيمن وبدأ من فوره بتمثيل ما جرى. كانت حماسته فائضة عن

حماسة أخيه، وهو، بتكشيرة زائدة، جعل يصف انطلاق الحجر من يد ذلك الصبيّ الطويل وطيرانه في الهواء بعد ذلك، ثمّ سقوطه على رأس أخيه.

– دِخت...؟ دخت...؟ سألت أحمد فيما أنا أتّخذ هيئة من يغمى علَيه ويبدأ بالتّساقط على الأرض.

لم يحصل له ذلك. عبّر عن ذلك بهزّه رأسه مرّات.

– أنت، قلت مشيراً بإصبعي إلى ابني أيمن، أنت تعرف... ثمّ أكملت سؤالي عن أب الصبيّ بالحركات وحدها.

كان يجب أن أبدو مهتمّاً وملحّاً في سؤالهما، إذ هذا ما يفعله الأهل ليُشعروا أولادهم بأنّهم قادرون على حمايتهم.

وإذ فهم أيمن سؤالي راح يرسم على وجهه هيئة من يحاول أن يتذكّر. ولكي أساعده على ذلك، كما لأظلّ أبدو مهتمّاً، رحت أحيط يديّ بوسطي ثم أُلصقهما به سائلاً إيّاه بذلك إن كان سميناً أو نحيلاً، ثمّ أعود لأرفع يدي إلى ما فوق رأسي مثلما فعل أخوه. استجابة لإلحاحي، رفع أيمن الصغير يده نحوي ليخبرني أنّه عرفه من شعره الكثيف الذي راح يستهوله بنفخات من فمه، فيما يداه تدوران دوراناً سريعاً وفوضويّاً حول رأسه.

ولا يعني ذلك أنّه اهتدى إلى ما سألته عنه. غالباً ما يخترع حركاته اختراعاً ليقول إنّه عرف الشيء الذي سئل عنه. وهو، لكي أصدّقه، يضفي على حركاته حماسة زائدة.

قالت زوجتي، مطلّة علينا من جانب الباب، إنّهما في أكثر الأوقات يلعبان وحدهما.

تخيّلتهما واقفين معاً، منهمكين بما يلعبان به، وهناك، على بعد خطوات منهما، أولاد يحدثون جلبة وضجيجاً.

وهي ظلّت واقفة هناك، بجانب الباب، منتظرة أن أقول شيئاً أردّ به على ما قالته. وإذ بقيتُ ساكتاً، ناظراً إلى ابني أيمن كأنّما لأعيد انتباهي إلى ما كان يخبرني، سمعتها تقول، فيما هي تستدير لتعود إلى المطبخ:

– هذا لا يهمّك، أنت مشغول...

اعتادت بسرعة على كوني مريضاً. هذه المرّة لم تبدُ منتظرة عودتي لأبلغها ماذا قال الطبيب. حتى وأنا في مرضي لا تتوقّف عن الشكوى، عن أن تقول كلامها الغامز الذي يجب أن أفهم منه أنّها لم تعد تحتمل تعبها وعيشها، وأنّها ستستمرّ، رغم ذلك، في تحمّلهما.

– لا مدرسة لهما... لا هنا ولا في صيدا، قلت معلياً صوتي لكي تسمعه، حتى لو كانت قد صارت في المطبخ.

* * *

أجدني دائماً مراقباً نفسي متطلّعاً فيها مثلما يراقب رجل رجلاً غيره. على الطريق، وأنا ممسك ولديّ، كلّ واحد منهما بيد، بدوت، لمن قد يراني من شباك بيتنا مثلاً، مستحيياً في مشيتي كأنّني أخبّئ كلّ خطوة بالخطوة التي تتبعها. وكان عليّ أن أجرّ ولديّ جرّاً وأحثّهما على أن يسرعا، لكي أبيّن لهما أنّني ذاهب لأعاقب الولد الطويل أو لأصرخ وأهدّد في وجه أبيه.

– أين ضربك بالحجر... أين...؟ قلت مصاحباً ذلك بنظرة مهدّدة.

كنّا في وسط الساحة الواسعة التي قدّرت أنّها المكان الذي أصيب أحمد فيه. ولأنّي فكّرت أنّه لم يفهم ما قلته، أعدت عليه سؤالي مكثراً من تمثيل رمي الحجر وطيرانه ليصيب بعد ذلك رأسه. لكنّه ظلّ ناظراً إليّ تلك النظرة الصافنة.

وقد رحت ألحّ عليه ليجيب، أنا الذي، في أيّ حال، لن أذهب بالأمر إلى نهايته. من الأعلى، من شرفة بيتنا التي كنّا قد ابتعدنا عنها، كان مشهدنا سيبدو غريباً في وسط الساحة. أنا، منحنياً ومقوّساً ظهري ومبقياً يديّ ممسكتين بالولدين، وهما، كلاهما، واقفان لا يستجيبان لحركات يديّ ووجهي الذي قرّبته كثيراً من وجه أحمد. "مِن هنا ضربك؟" صرت أسأل منقّلاً إصبعي وذراعي في أنحاء الساحة: "من هنا... من هنا... هناك، كان هناك؟" حيث يشير إصبعي إلى الطريق الضيّقة عند نهاية الساحة. لم يجب بشيء، لا هو ولا أخوه الذي كان فائض الحماسة ونحن في البيت. كان أيمن قد فهم تردّد أخيه. وربّما عرف، بذلك النوع من التواطؤ الذي يشترك فيه معه، أنّ من الأحسن لهما أن يظلاّ ساكتين هكذا.

شددت على يديهما، ثمّ أخليتهما لكي أريهما قبضتيّ مشدودتين أمامهما ليحسّا بالقوّة ولا يخافا. أغضبني خوفهما، حتّى إنّني بتّ راغباً حقّاً في أن يدلّاني على الصبيّ. وقد رحت أجرّهما جرّاً بيديّ إلى حيث البيوت، ناسياً، أو غير آبه، كيف سنظهر لأحد ينظر إلينا متطلّعاً في وجوهنا. وكانا يمشيان مطيعَين يديّ اللتين تشدّهما. وحين بلغنا أوّل الطريق الضيّقة أشرت إلى أحد البيوت سائلاً إيّاهما: هنا... هذا هو؟ ثمّ كرّرت ذلك ملتفتاً إلى البيت الذي يقابله. ثمّ

أكملت المشي إلى البيوت التي تلي. كنت غاضباً وأنا أتنقّل بين البيوت ومشيراً إليها. وكان يخطر لي، حتى وأنا في غضبي ذاك، أنّني لن أعرف ماذا أقول إن فتح أحد بابه ورآني هكذا منقّلاً ولديّ أمامه.

* * *

– عثرتم عليه؟

كانت قد تركتْ الباب مفتوحاً لتقول لي ذلك من لحظة ما أصل في صعودي إلى آخر الدرجات. وأنا لم أردّ عليها بشيء. كنت متعباً من غضبي الذي غيّرني عن نفسي. وهي، على أيّ حال، لم تزد كلمة أخرى على ما قالته. ذاك من أجل أن يظلّ هزؤها خاطفاً وموارباً ولا أضطرّ إلى أن أجيب عليه.

ليس أنّها تجاهلت مرضي أو نسيته. حين بتّ واقفاً عند باب غرفة الاستقبال أشارت إلى الولدين بأن يبقيا في الخارج ولا يدخلان إلى الغرفة معي. "يريد أن يبقى وحده" قالت بصوت حانق لن يسمعاه، ثم استدارت لتسوقهما أمامها إلى حيث سيكونان بعيدين عنّي. ليس أنّها تجاهلت مرضي أو نسيته، ذاك لأنّي أستطيع أن أتخيّل كيف أسقطته من حيث كان يجب أن يبقى، هناك في مقدّمة رأسها، ليجد مكانه في تلك الكتلة المعربسة المتعقّدة في قاعه.

– ظلّ أبوك يستفرغ حتى إلى ما بعد الظهر، قالت، غير مقتربة من الباب هذه المرّة.

– والآن... ما زال يستفرغ؟

– قم إليه لترى.

كان الأولاد، هم الثلاثة، متجمّعين في تلك المساحة الضيّقة في آخر الممشى، تاركين الباب مغلقاً بينهم وبينه. توقّفت هناك لحظة لأقرص خدّ هبة، الجالسة على كرسيّها الصغير والمستسلمة لدبيب المشط الكبير الذي كان أيمن يسرّح شعرها به.

– أنا هنا يا أبي، أنا جئت.

كان المقعد الذي يجلس عليه نظيفاً، وكذلك دشداشته، وكذلك بقعة الأرض التي أمامه، لكن مع ذلك ظلّ أثر من رائحة القيء لم يفلح الصابون والماء في إزالته. وإذ انحنيت لأصير أمامه، مقرّباً وجهي من وجهه، اشتدّ أثر الرائحة.

– سنبدّل الدشداشة يا أبي، قلت، ناظراً إليه كأنّني أنتظر موافقته.

لم يجب. أقصد أنّه لم يقم بأيّ من تلك الاستجابات التي أفهمها وأفهم منها ماذا يريد. لم يرفع رأسه مثلاً، ولو بذلك القدر الذي أعرف منه أنّه صاح وأنّه فهم ما قلته له. وهو أبقى عينيه منخفضتين أيضاً، صافنتين في قماش الدشداشة التي تغطّي رجليه.

– سنبدّل الدشداشة... الآن سنبدّلها بدشداشة نظيفة.

في أوقات صحوه كان ينفض جسمه تلك الانتفاضة الضئيلة التي تعني أنّه يستعدّ لما سأبدأ القيام به. هذه المرّة ظلّ كما هو، ممسكاً بيديه طرفي المقعد ومخفضاً رأسه كأنّه مستغرق أو نائم في قعوده.

– هذه الرائحة سنزيلها، قلت مقرّراً أنّنا سنفعل ذلك، لكن سائلاً إيّاه، كما مع كلّ شيء أقوله، عن موافقته أيضاً.

– نستحمّ هنا، قلت ملتفتاً إليه فيما أنا أتّجه بجسمي إلى الباب.

– الماء سيسخن، دقائق ويسخن، قلت حين عدت إليه، مغلقاً الباب خلفي.

لم أعرف إن كان يشمّ رائحة قيئه، تلك التي بإحنائه رأسه، يصير قريباً منها، هناك عند أسفل صدره. فكّرت في أنّه، بإبقائه رأسه منخفضاً هكذا، قرّر أن يُغلق كلّ حواسه أو أن يُقفل نفسه على كلّ ما يأتيه منها.

– هذا هو الماء، الماء الساخن.

وضعت الطشت البلاستيك على الأرض أمامه، هناك إلى جانب مقعده. "وسنقفل الباب"، قلت فيما أنا أخطو نحو الباب. وحين عدت مقترباً منه لأبدأ بخلع دشداشته، ارتفع رأسه، كأنّما بحركة مباغتة، واتّجهت نظرتُه إليّ. لكنّه سرعان ما بدا كما لو أنّه ندم على صحوته تلك، وعاد إلى إغلاق عينيه بعد أن تلفّت قليلاً ليرى الأشياء من حوله.

– الآن سأرفعك، ساعدني لأرفعك.

كان خفيفاً إلى حدّ أنّني أستطيع أن أبقيه، وأنا ممسك به، مرتفعاً عن المقعد، بيد واحدة من يديّ.

ثمّ، بعد أن أعليت دشداشته إلى ما فوق وسطه، عدت وأجلسته على المقعد، مكشوف الساقين اللتين كأنّهما زادتا من انتباهه، فجعل ينظر إليهما محدّقاً فيهما، مدهوشاً ربّما من بياضهما أو من درجة النحول التي بلغاها.

وقد بدوت كأنّني فاجأته، حين قلت له أن يرفع ذراعيه لكي أخلع الدشداشة، ساحباً إيّاها من بطنه وصدره إلى أعلى رأسه. وقد نقل

عينيه عن ساقيه إليّ كأنّما ليسأل عن شيء تذكّره. لم يدم ذلك أكثر من برهة عابرة أخفض نظرته من بعدها ليصير كأنّه يفكّر في شيء.

– بالليفة، فقط بالليفة، قلت فيما أنا أشبعها بالصابون. كان عارياً على مقعده، ضئيل الجسم إلى حدّ أنّني ظننت أنّ ما نحل ورقّ ليس لحمه وجلده فقط، بل عظمه أيضاً. وقد أبقى نظرته هناك، عند ما يفكّر فيه، ثابتة لا يغيّرها تحريكي لجسمه.

– يجب ألاّ ندلق الماء على الكنباية، قلت فيما أنا أفرك بالليفة صدره الذي قوّسه النحول وأبداه، عند وسطه، مثل كرة ناتئة. انتبهت، فيما أنا أنقل الليفة إلى ذراعه، واصلاً بها إلى كفّه وأصابعه، إلى أنّني، قبل أن يمرض وأجيء به إلى بيتي، لم يسبق أن رأيت شيئاً من جسمه، لا صدره ولا ظهره، ولا حتّى ذراعيه اللتان ربّما كانتا هكذا دائماً، بيضاوين بياض المرض.

***

تلك المهلة الفاصلة بين أن أكون ما أنا الآن وأن أصير ما سأكونه بعد العمليّة، لم يحدّدها لي الطبيب. لم يقل لي أن أرجع بعد أسبوع مثلاً، أو بعد شهر أو شهرين. ترك ذلك لي. ترك لي أن أقيس المسافة التي سيصير مرضي يميتني في آخرها. أما ما أعتمدُهُ قياساً فلهجتُه وطريقته في قول الأشياء التي قالها لي ولم أزل أحفظها كلمة كلمة. بحسب لهجته تلك، وابتسامته الخفيفة التي لا يستطيع إلّا أن يضع فيها شيئاً من مكره، أرى أنّه ترك لي أن أنقص قليلاً أو أزيد قليلاً المدّة التي كنت قدّرتها بشهر.

هو شهر أستطيع أن أطيله بأن آكل قسماً من الشهر الذي يليه. ذلك لكي أستفيد أكثر من الأيّام التي أكون فيها صحيح الجسم. كان الطبيب كأنّه يقول لي: خذ شهراً، هكذا، من أجل أن أعوّض في الشهر ما لن أعود قادراً على فعله. الأيّام الباقية لنا نربحها إن أكثرنا من استعمالها، يظنّ الطبيب. في السينما قال ذلك الطبيب لمريضه إنّه لا يزال أمامه ستّة أشهر. "سنذهب إلى جزر الباهاماس"، أجاب الرجل ملتفتاً إلى زوجته الواقفة بقربه. كان قد استعدّ لذلك، قبل أن يمرض وقبل أن يعرف أنّه سيموت. وربّما ابتسم وهو هناك أمام الطبيب، أو ابتسمت زوجته، فهما، هي وزوجها، سيصرّفان ما تبقّى له من وقت بأفضل طريقة ممكنة.

أمّا أنا فسأقضي مهلة الشهر مفكّراً إن كان يحسن بي أن أذهب غداً صباحاً إلى الطبيب لأسلّم نفسي إليه. ذاك أنّ ما سيحصل بعد شهر من الأفضل له أن يحصل الآن. من أجل الخلاص من القلق والخوف، لكن أيضاً لإطاعة الفضول الذي يلحّ عليّ بأن أعرف كيف سأكون، إن نجوت من العمليّة و لم أمت.

وسأحرص على ألّا أبدو متردّداً أمام زوجتي، كأن أقول لها إنّني ذاهب إلى المستشفى غداً، ولا أذهب. بدل أن أقول لها إنّني ذاهب إلى المستشفى وتجدني وقد عدت إلى البيت بعد ساعة، أروح أختبر تردّدي بنفسي. أدير محرّك السيّارة وأسير فيها، مبتعداً عن بيتنا أوّلاً، ثمّ عن طريق الضيعة مخلّفاً بيوتها ورائي، ثمّ أصل إلى الطريق العريضة. حيث يغلبني خوفي قاطعاً تردّدي، فأوقف السيّارة، ثمّ أقلبها عن وجهتها لتعود بي إلى البيت. هناك، حين أعود، لن تقول

لي زوجتي أين كنت فهي معتادة تنقّلي بين القرى.

* * *

ليس قراري المتردّد وحده هو الذي يدفع بي إلى أن أنزل إلى السيّارة وأقوم بتلك الرحلات التي أعود قبل إتمامها. ما يدفعني أكثر إلى ذلك هو ضجري من البيت وكرهي لجلوسي فيه. حتى إنّني، لحظة ما أصل إليه بعد كلّ عودة لي، أرى أنّني أكرهه من الخارج وليس من الداخل فقط. من حائطه المائل المصفرّ الذي يخفي عن العابرين الشرفة والشبّاكين في الحائط المطلّ على جهة الساحة. كان جاهزاً لي عند عودتي من النجف. قال أبي إنّه البيت المناسب لي، لأجيبه بعد ذلك إنّه يلائمني، فأكون كأنّني اخترته بنفسي.

أعجبه أن يكون البيت قريباً هكذا من الجامع، حتّى إذا لم يجدني الناس هناك يجدونني هنا. كان يعرف أنّي لن أكون مثله متنقّلاً طائفاً بين القرى. هنا الدكان قريب، قال لي فيما كان الحمّالان يُنزلان أغراضي من الشاحنة. ثمّ مشى باتّجاه الدكان عارفاً بأنني سأتبعه. هنا هو، قال مشيراً إلى الرجل، صاحب الدكّان، بعصاه. ولم يكمل للرجل ما كان بدأه معه، كأن يقول له إنّني، من اليوم، إمام ضيعته. ثم راح يطوف بي بعد ذلك ماشياً في الزواريب التي يعرفها. "السلام عليكم" كان الناس يبادرون إلى تحيّتنا فيقفون لنا ويظلّون على وقوفهم، وهو يكتفي بأن يرفع عصاه كأنّما لتنوب عنه في ردّ التحيّة. وأنا أجد أنّه، في كلّ ما يفعله مع الناس، يقوم بواحدة من مجازفاته التي، هناك في يوم المواجهة مع العسكريّين، أدّت إلى مقتل الرجلين.

وأنا، إذ لا أستطيع أن أرفع صوتي بالقول "وعليكم السلام" لأجعله ردّنا نحن الاثنين، أروح أرفع يدي، إلى صدري ثمّ إلى رأسي، مرّة ثمّ مرّة أخرى، مرّة عنّي ومرّة عنه، وهو لن يراني أفعل ذلك لأنّه في مشينا يظلّ متقدّماً خطوة عنّي.

وقد أبقاني سنوات كثيرة أحاول تفسير قوله لي، في واحدة من نصائحه، أن "لا يستوي إيمان إنسان حتّى تستوي الناس عنده ومنزلة البهائم". كان ذلك في بدايات وقوفي على المنابر، حين كان يطلع صوتي ضعيفاً ومتردّداً أمام الجالسين في الحسينيّات. لم يرقني أن أفهم قوله ذاك بكونه احتقاراً للناس فقط، لذلك رحت أقلّبه على وجوهه رادّاً إيّاه إلى كلام المتصوّفين مرّة، وإلى واحد من الفقهاء مرّة، وإلى ما يقتضيه الاستغراق في الإيمان مرّة ثالثة. في أيّام ما كان يخرج من غرفته، هناك في بيته، متعدّياً مصطبة الجنينة إلى الطريق، حيث يقف مولّياً ظهره إلى البوّابة، كان يتّخذ هيئة من لن يردّ السلام على الرجال الذين يمرّون من أمامه. وهم، إذ يدركون ذلك، يروحون يتمتمون السلام تمتمة ولا يرفعون عيونهم إليه.

"هذا بيتك، هذا بيتك الذي يناسبك، قال لي"، وهو فوق ذلك جعل يطوف بي على الناس كأنّما ليريهم إيّاي فقط.

لم أقل له إنّي أفضّل أن أختار بيتي بنفسي، وإنّي أحبّ أن أتعرّف وحدي إلى الناس لكوني صرت إمام مسجدهم.

* * *

– أهلاً... أهلاً بالسيّد، قالت لي متفاجئة.

بقيت واقفاً أمام الباب المفتوح، كأنّما لأعرف بنفسي إن كان ينبغي لي أن أدخل .

– اشتقت إلى بلال... قلت أمرّ لآخذه إلى بيتنا

– تفضّل... تفضّل يا سيّد، قالت فيما هي تفسح لي الطريق لأمرّ.

من لحظة ما صرت في الداخل عرفت أنّها وحدها. وقد جعلني هذا متردّداً حتى وأنا أسير باتّجاه الكنباية التي أعرف مكان جلوسي عليها. هي أيضاً جلست في مكانها ذاته، مديرة وجهها إليّ وشادّة تنورتها لتغطّي ركبتيها الظاهرتين.

– خرج مع رفاقه، لو كان يعلم أنّك ستأتي...

– ...

– قهوة يا سيّد؟

هذه المرّة لم أنظر إلى ساعتي و لم أتّخذ الهيئة التي أبدو فيها كأنّني أحسب ما تبقّى لي من وقت.

– لكن ربّما كنت تستعدّين للخروج؟

– لا... لا... أنا هنا... باقية، قالت فيما هي تقوم، مسوّية تنّورتها مرّة أخرى.

وهي في طريقها إلى المطبخ اختلستُ النظرة إيّاها، السريعة أوّلاً، الخاطفة، والمستعادة مرّة أخرى لوقت أطول قليلاً. وهي لن تلتفت إليّ، لن تفعل ذلك حتّى إن خطر لها شيء تقوله. ذاك لأنّها تحسّ بما يقع عليها، هناك عند ذلك الجزء من ساقيها، المنكشف بلا ثياب.

من هناك، بعد أن أشعلت النار للركوة، قالت لي شيئاً عن بلال. وإذ لم أُجب، عادت لتقوله لي بصوت أعلى.

– هو يهيّئ أغراضه منذ يومين ليذهب إلى المخيّم مع رفاقه.

– رفاقه من المدرسة؟

وقد انتظرتْ قليلاً قبل أن تجيبني أنهم رفاق صفّه، كلّهم.

خطر لي أن أذهب إلى حيث هي في المطبخ. هذه المرّة سأقوم، فكّرت، مقرّراً أن ألازم ذلك بحركة جسمي. أن أقوم في لحظة ما يخطر لي أن أقوم، وإلّا سأبقى حيث أنا، قاعداً منتظراً عودتها.

وقد قمت، لأبدأ خطوي الذي ستسمعه، وتراه بعد أن تزيح نظرها عن الركوة. ثمّ أكملتُ خطواتي التي، بعد أن تبيّنت وجهتها، لن تنعطف أو تتراجع. خطواتي التي تحمل كلّ ذلك الثقل البادئ من عباءتي وعمامتي ولحيتي، وغير المنتهي بمجازفتي أن أظهر لها كما لم تعرفني.

أن أفعل شيئاً هناك، أن أستعمل يديّ في شيء سيكون مساعداً لي. لكنّ الفنجانين كانا موضوعين بترتيب على الصينيّة، والركوة حيث يجب أن تكون. وقد أبقاني ذلك عند باب المطبخ، واقفاً، في انتظار أن أقول شيئاً أو أسمع شيئاً.

– ضجران يا سيّد؟

قالتها من دون أن ترفع عينيها المركّزتين على ما في الركوة.

تلك الاندفاعة المُساعدة، لم تصدر عن قوّتها هذه المرّة، فكّرتُ، بل عن الحرج الذي وضعنا فيه، أنا وهي، وقوفي عند ذاك القرب منها.

– غلت القهوة، قالت كأنّها تكلّم نفسها. ثم وضعت الركوة على الصينيّة بجانب الفنجانين، وتوقّفت بعد ذلك كأنّها تفكّر في

ماذا ينبغي أن تكون الحركة التالية.

– سأحملها أنا، قلت متقدّماً باتّجاهها

لا... لا، قالت فيما هي تمسكها من طرفيها وتستدير نحوي، أنا الذي لم أعرف إن كان عليّ أن أتنحّى لتمرّ من جانبي أو أن أتراجع لأفتح لها الطريق.

– أهلاً وسهلاً بالسيّد، قالت فيما هي تتقدّم تاركة إيّاي أتبعها.

ثم عادت لتقول "أهلاً وسهلاً" فيما هي تنحني لتضع الصينية الصغيرة على الطاولة بيننا. وأنا الذي أستطيع أن أفهم الترحيب العادي ذاك كما أشاء، فكّرت في أنّ جلوسي هذه المرّة ينبغي ألا يكون كما اعتدت أن يكون.

– ضجران يا سيّد، قالت بعد أن جلست مقرّبة إليها صينيّة القهوة.

للمرّة الثانية رأت أن تستبدل كلمة الخوف بكلمة الضجر. ما كان عليها أن تعيده عليّ هو سؤالها الأوّل ذاك: خائف... أنت خائف؟

ثمّ رفعت عينيها إليّ لتسمع بماذا أجيب عن ضجري، عن ضجري في حياتي كلّها، وليس فقط في هذا النهار الذي ساقني إلى بيتها هكذا على غير عادتي.

– الضجر...

لم أعرف بماذا أُجيب، مع أنّها، في سؤالها ذاك، حملت الكلام إلى حيث أريده أن يكون. كان عليّ أن أتشكّى من ضجري، وهذا ما أريده إذ هو، التشكّي وليس أيّ شيء سواه، يمكنه أن ينقلنا من كلام الحذر والمجاملة الذي يقينا متباعدين كلّ في مكانه.

– الضجر وأشياء أخرى، قلت بادئاً البحث عمّا يمكن أن يكون بداية للكلام.

غير أنّي انتبهت إلى أنّي لم أهيّء شيئاً لأقوله. وأنّي لا أستطيع أن أخترع شيئاً. ما كان يمكن أن يفعله رجل سواي هو أن يقترب أكثر منها. أن يصير غير منفصل عنها إلّا تلك المسافة التي تجعل يدها قريبة من يده. أي أن أبدأ من حيث أحبّ أن أبدأ.

وهي تنتظر ذلك. أعرف ذلك من صمتنا معاً، صمتنا الذي بدونا فيه كأنّنا سلّمنا بأنّ ما يجب فعله هو شيء غير الكلام. وقد عرفتُ أيضاً أنّها، حين وقفت بعد ذلك، حاملة فنجان القهوة بيديها الاثنتين، أنّها ستذهب لتعود بعد دقيقة، متيحة لي فرصة أخرى للمحاولة.

ما ينبغي أن أبدأ به هو يدها... أو شعرها، أرفع يدي وأمرّرها عليه، من الأعلى إلى الأسفل، هناك حيث تنتهي خُصله، مقصوصة على سويّة واحدة.

وقد عادت لتجلس على مسافة أقرب، لكن ليس القرب الأكيد الذي يطمئن. كأنّها تفهمني أنّ من عليه أن يبادر، متحمّلاً ما قد يترتّب عن المجازفة، هو أنا.

وهي أرادت أن يظلّ الصمت ثقيلاً بيننا. لم تقطعه بأن تقول لي كلاماً عن أيّ شيء. فقط يداها الممسكتان معاً بفنجان القهوة الصغير، ترفعانه إلى شفتيها، ثمّ تنزلانه ليبقى محمولاً محاطاً بيديها.

في اللحظة تلك، لحظة المجازفة، كان بياض يدها والأحمر الذي طلت به أظافرها هما اللذان قرّبا يدي. الرغبة وليس القرار بالمجازفة. الرغبة... هي التي أوصلتني إلى يدها. احتنضتها بيدي،

ثم أنزلت اليدين الاثنتين إلى وسط المسافة التي بيننا. رأيت كيف أدارت وجهها إليّ بحركة لا أعرف إن كانت تدلّ على السخط أو على مجرّد التساؤل. لكنّها ظلت مبقية يدها في يدي، بلا حركة، مرتخية، كأن القوّة التي أعرفها فيها لم تكن إلا ممّا توهّمته توهّماً.

ثوانٍ قليلة فقط، انسلّت من بعدها يدها وعادت إلى حيث كانت حول فنجان القهوة الذي بات فارغاً لا بدّ. أمّا وجهها الذي كان عليه أن ينبئ بشيء فلم تظهر عليه إلّا تلك الابتسامة المحيّرة، تلك التي لا تُفهِم شيئاً ولا تُفصح عن شيء.

* * *

هل قبلتْ؟ هل قصدتْ أنّ ذلك يكفي لذلك اليوم؟ هل تركت يدها لي من حَرَجها؟ هل كانت تلك واحدة من حركات النساء الغاوية والمتمنّعة في وقت واحد؟

قبل أن تقوم لتنظر من وراء زجاج النافذة، ولتتردّد قليلاً قبل أن تفتحها ليعبر الهواء، كنت أعلم أنّ ما قمت به لا يحسن بي أن أكرّره. في قلب حيرتي تلك، في أساسها، كانت هناك حقيقة تركها يدها مستسلمة في يدي. ثانيتان، ثلاث ثوان، أربع، عشر ثوانٍ أو أكثر، لا يهمّ، ما دمت قد أحسست أنّ ذلك استمرّ لمدّة كافية.

وعلى الطريق، فيما أسوق سيّارتي متمهّلاً، كانت ابتسامتها تعود إليّ، مطمْئنة حيناً، قابلة حيناً، وماكرة حيناً.

لا أعرف ماذا سأفعل في المرّة القادمة ومن أين أبدأ. ما أعرفه هو أنّ ما سأفعله لن أمهّد له بالكلام. صامتاً سأدخل، وستكون

هي صامتة أيضاً فيما هي تتنحّى عن البوّابة لتدعني أمرّ. وصامتين سنجلس على تلك الكنباية التي، بعد وقت قليل، سنغيّر مطارحنا عليها. وأنا في السيّارة انتبهت إلى أن ليس لديّ شيء أقوله لها. ولا حتّى كلمة واحدة. لا أقصد ذلك الكلام المجامل عن صحّتها وعن بلال كيف هو، بل الكلام الآخر، الكلام الذي يظلّ يهيّئه العاشقون منتظرين أن يحين الوقت لقوله.

أنا لا شيء لديّ أقوله لها. ولا كلمة واحدة. بدا لي، وأنا في السيّارة، كما لو أنّني اكتشفت أن ما أحسّه نحوها هو رغبتي في ما أتخيّله من أنحاء جسمها، ذاك الذي رأيته منه وذاك الذي لم أره. أن أنظر إلى كلّ موضع فيه من عينين قريبتين، وأن ألمسه بيدي كأنّما لأتأكّد من أنّني حقّقت ذلك القرب الذي أتشوّق إليه.

كذلك فإنّني لا أنتظر أن تقول هي كلاماً من النوع الذي أبادله بأن أنظر إليها راضياً ممتنّاً من بعده. الكلام الذي يغلق العينين للحظة كأنّما ليمرّ الحلم من دون أن يعكّره شيء، أو الذي يدفعني، حين أسمعه، إلى أن أحضنها بيديّ الاثنتين.

إن كان لي أن أقول لها شيئاً، مسرّاً إيّاه في أذنها، ويكون كلاماً صحيحاً، هو "إني أحبّ كلّ سنتيمتر مربّع من جسمك"، هكذا، مستعيداً ما حفظته من كلام المدرسة.

ومع ذلك وجدت نفسي، بعد أن قطعت نصف الطريق مبتعداً عن بيتها، أنّني غير راغب في الذهاب إلى أيّ مكان أعرفه. لا إلى البيت، بيتي، ولا إلى الجامع الذي، هو أيضاً، ينبغي لي أن ألازمه، ولا حتّى إلى الطرقات التي اعتدت أن أجول فيها بسيّارتي متنزّهاً. لم أرغب أن

يقطع حلمي ذاك، أو ظَفَري، شيء أعرفه. وأنا على الطريق، رحت ألتفت إلى المفترقات من حولي كأنّما لأختار منها ما قد يعجبني. أدير مقود السيّارة قليلاً ثمّ أرجعه لأستمرّ في سيري المستقيم. "هنا"... "هنا" ..."بل هنا"، أقول، مستمرّاً في سيري نحو مفترق ثالث ربما أركن سيارتي في أوّله، إن أعجبني. وهناك، غير بعيد عن الطريق العريضة، أظلّ جالساً حيث أنا، في مقعدي، مستمتعاً بصوت الهواء الذي سأسمعه بعد أن يكون محرّك السيّارة قد انطفأ.

* * *

ليس أنّني أنسى مرضي حين أنشغل عنه. هو يظلّ هناك في مكانه مثل كتلة، سيكون عليّ أن أفتح قبضتي حتّى آخرها لأدلّ على حجمها. وهي هناك، في أسفل البطن، تهدأ حيناً، ثمّ تعود فتقوى. كأنّ تلك المخلوقات الصغيرة المتجمّعة، والصانعة لكتلتها، تبدأ بالفوران مغالباً بعضها بعضاً ومرتفعة كلها إلى ذلك السطح. عند ذاك يجب عليّ أن أقوم. أن أمشي، خطوات إلى هذه الجهة ثم خطوات مثلها إلى حيث كنت في الجهة الأخرى. أو أنزل إلى سيّارتي حين تشتدّ المغالبة في الكتلة ويزداد تنازعها. أضع مفتاح السيّارة في مكانه، ثمّ أديره متعجّلاً كأنّني أسابق حركة الفوران التي في داخلي.

وأروح أسرع من أجل أن أبقي نفسي في ذلك السباق. أمّا ما يصعد إلى رأسي ويدوّخه فأعالجه بالتخيّلات، المتسارعة أيضاً، والتي أُدخل فيها، من ضمن ما أتخيّله، أدوات الطب الصغيرة اللامعة، تلك التي تُعالج وتشفي، وحبوب الدواء الصغيرة لكن الجبّارة القوّة

كأنّ مادّتها مجلوبة من خارج كوكب الأرض.

ومع أنني كنت أحدس بأنّ مرضي هذا سيأتيني، إلا أنه، بالرغم من ذلك، باغتني وفاجأني. لم يحدث لأحد ممن أنا منهم أن مات من مرض وهو في العمر الذي أنا فيه. جدّي السيّد مرتضى عاش إلى العمر الذي كان يقول فيه إنّ جميع مَن كان يعرفهم ماتوا. عمّي السيّد عقيل أماته الكبر والعجز، وعمّتي حسيبة كانت لا تهدأ حركتها وهي في عمر السبعين، فكان يقول لها أبي كلّما رآها قادمة إلى بيتنا : "استكنّي ... اهدئي... صار عمرك سبعين سنة!" ولم تقتلها إلاّ السيارات التي كانت تكثر من ركوبها غادية رائحة إلى القرى لتمكث أيّاماً في بيوت الناس الذين تعرفهم موزّعة عليهم الفتاوى التي تعرفها. جدّنا السيّد عبد الحسين كان علّامة عصره، تقول لمن تزورهم، أو تخبر عما أفتى به جدّ آخر لنا مخالفاً ما قضى به أحد مراجع النجف بفصل امرأة عن زوجها. كانوا كباراً معمّرين في الحكايات التي ترويها عنهم، وأنا لا أتخيّلهم إلّا شيباً قاعدين تثقل عليهم عمائمهم. وحدي أنا من بينهم أُصبت وأنا في هذا العمر. حدث لي ذلك من خوفي من المرض الذي كأنّني استدعيته استدعاءً إليّ، أو كأنّني ربّيت وهمه فيّ حتى صار مرضاً حقيقيّاً. أولئك الذين سبقوني كانوا يرون أنّ الرجل يموت حين يهرم ويشيخ، وقد صدّقتهم أجسامهم على ذلك وأطاعتهم.

* * *

– هناك مدارس مخصوصة لتعليم الأولاد الخُرس.

أخبَرَتْها عن ذلك واحدة من معلّمات المدرسة.

– أعرف، قلت لها فيما أنا ألقي على الطاولة الصغيرة مفاتيح سيّارتي.

– أنت تعرف من زمان؟

– كلّ الناس تعرف.

– ولماذا لا تقول إذا كنت تعرف؟

– لأنّهم بعد صغار.

– كيف هم صغار والأولاد من عمرهم دخلوا المدارس من أكثر من سنتين.

– مدارس الخرس لا تأخذ الأولاد وهم صغار.

كنت أنتظر أن يكبروا لأني لم أشأ أن أبعدهما إلى بيروت وهما صغيران هكذا. كلّما تصوّرت أنّني أنزلهما من السيارة وأُنزل معهما أغراضهما أروح أشفق عليهما ويخيّل إليّ أنّني أتخلّى عنهما وأتركهما عند من لا أعلم كيف سيعاملونهما.

– أنت لا تهتمّ لأنك لا تسمع زعيقهم طول النهار.

رأيت غريباً أن تسمّي الأصوات التي يُطلعانها زعيقاً. كأنّها لا تهتمّ مما تسمعه منهما إلا الإزعاج الذي يوجع رأسها.

– اليوم أيضاً تشاجرا مع الأولاد. أحمد رجع إلى البيت وهو يبكي.

– أيّ أولاد؟

– الأولاد، قالت كأنّها تذكّرني بأنّها قالت لي ذلك قبل لحظة.

– أقصد مَن مِن الأولاد؟

– لا أعرف... كلّ الأولاد.

كانت واقفة على باب غرفة الاستقبال، الباب الذي لا تتعدّاه إلا حين تأتي حاملة الصينيّة لتضعها على الطاولة.

– قالت المعلّمة إنّها ستذهب معي حين آخذهم إلى مدرسة الخرس.

– أنا سآخذهم، قلت فيما أنا أضع يديّ على طرفيْ الكنباية هامّاً بأن أقوم. هي تعرف أنّ حركة مثل هذه تعني أنّي أريد أن أنهي ما كنت فيه وأنّ عليها، هي أيضاً، أن تستدير وتبدأ مشيها تاركة إيّاي وحدي. لكنّها، هذه المرّة، لم تغادر قبل أن تقول، رافعة يدها كأنّها تؤدّي قسماً، إنّها لن تتركهما هكذا بلا شيء يتعلّمانه.

وهي، هناك في المطبخ، جعلت تزيد من سخطها بأن تُطلع أصواتاً قويّة من كلّ ما تلتقطه يداها أو تغيّر مكانه. وقد ساعدها على ذلك مجيء الولدين بعد قليل، ومعهما أختهما. "تعالوا، تعالوا..." صارت تقول لهم فيما هي تدفعهم إلى الغرفة حيث أجلس. وحين رأتهم وقد صاروا أمامي، أمسكت الباب من مقبضه وجرّته لكي ينقفل.

وقف الصبيّان ينظران إليّ، فيما أختهما تنقّل نظرها بيني وبينهما كأنّها تنتظر أن يحدث شيء من وقوفهم معاً هكذا أمامي. وكان الصبيّان، هما أيضاً، ينتظران شيئاً وإلّا لماذا دفعتهما أمّهما إليّ. كانا خائفين من أن أحاسبهما على شيء بعد أن وشت لي أمّهما عن فعلة قاما بها.

وأنا، لكي لا أطيل وقت ترقّبهما، مددت يدي إلى أحمد، منتظراً أن يمدّ يده هو، ليصافحني. ولما فعل، زدت أنا على طمأنته بأن ابتسمت له داعياً إيّاه إلى أن يبتسم هو أيضاً. كانت هبة لا تزال

تنقّل نظرها بيننا، غير فاهمة ما يجري: "أين لعبتك؟" سألتها فيما أنا أقرّب يديّ منها لأمسك بهما يديها الخاليتين. لم تستجب. وهي، بدلاً من ذلك، التفتت إلى أخيها أحمد، رافعة عينيها إليه. وقد تراءت لي اللعبة الغائبة متسخة اليدين وجافةّ الشعر، ومبتسمة تلك الابتسامة الغامضة.

لكنّ الصبيّين، مع ذلك، ظلاّ منتظرين متسائلين. وأنا، للحظة، شعرت بأنّي لن أعرف ماذا أفعل لكي أزيل ترقّبهما. مددت يدي إلى أيمن، إلى زنده لأبدو كأنّني أقيس قوّة عضله. وهو لم يصلّبه على الفور، مثلما اعتاد أن يفعل. كان ينتظر ليرى إن كانت ملاعبتي له صحيحة، وهو احتاج منّي إلى أن أهزّ ذراعه مرّتين متتاليتين قبل أن يشتدّ قليلاً عضل زنده، لكن وجهه ظلّ على حاله متسائلاً مترقّباً.

وحين رأيت أنّهم ظلّوا واقفين بعد أن قمت عن الكنباية فكّرت في أنّ أمّهم فعلت شيئاً أخافهم. أبقيتهم حيث هم، واقفين منتظرين، وتوجّهت إليها لأسألها، هناك في مدخل غرفتيْ النوم الضيّق.

– بلى ضربتهم، قالت، لأنّهم سرقوا

– ضربتِ من؟

– الصبيّين؟

– الصبيّان سرقا، الاثنان؟

– يمكن أن يكون أحمد لعب بعقل أخيه، لكنّ الاثنين أخذا المصاري.

– وأنت ضربت...

– ضربت الاثنين وحبستهما وأفهمتهما أنّك ستربّيهما حين تعود.

- وماذا فعلا بالمصاري؟

لم يخبّئا ألواح الشوكولاته التي اشترياها من الدّكان. بل إنّهما أعطيا أختهما حصّتها منها، لتأكل نصفها وتمرّغ ثيابها بالنصف الثاني. "سرقوا وكذّبوا" قالت أمّهما، فهما أجاباها بأنّ الرجل صاحب الدكّان أعطاهما الألواح هكذا، من دون أن يأخذ منهما شيئاً.

حين عدت إليهما، واقفيْن في الغرفة عندي، تبعتني هي لتقف، بعد دخولي، هناك عند الباب. وقد التفتّ إليها لتفهم أنّني أريد أن أكون معهم وحدي. كنت مشفقاً عليهما إذ رحت أتصوّرهما حامليْن ألواح الشوكولاتة وماشيين بها، جنباً إلى جنب، في الساحة التي تفصل البيت عن الدكّان. وقد ازددت شفقة عليهما حين خطر لي أنّ اشتراكهما في السرقة يُظهر كم أنّهما منفردان وحدهما لا يقرّبهما إليه أحد.

هيئة الجِدّ التي ينبغي أن أتّخذها فيما أنا أبدأ بنصحهما لم أستطع إبقاءها على وجهي. كان الفزع الذي يخفيه أحمد قد بدأ يتّضح في ملامحه. ذكّرني ذلك، مرّة أخرى، بجودت الذي كان يبدو فزعاناً على الدوام، ونحن، الأولاد آنذاك، كنا نقول إنّه، إن ضحك، يضحك وهو فزعان. أقصد تلك النظرة التي أراها على وجه أحمد الآن، والشفتين اللتين تنفرجان، بل تتّسعان، لكن من دون أن يكون ذلك ابتساماً أو تساؤلاً. كما أنّني لم أستطع أن أُفهمهما ما كان ينبغي أن يفهماه عن أنّ السرقة عيب وحرام. ليس لصعوبة تفسير ذلك بالحركات، بل فقط لأنّني لم أعد أحتمل وقوفهما هكذا مترقّبين وخائفين.

كانت أختهما هبة قد ملّت من الوقوف ومن التلفّت بين الوجوه. وحين بدأت خروجها المسرع، راكضة باتّجاه الممشى، قلت لها بأن ترجع، مسرعة أيضاً، لأنّنا سنروح مشواراً بالسيّارة. ولما عادت وصارت واقفة أمامي نظرت إليّ لتسألني إن كنت أقبل أن نأخذ اللعبة معنا. وبحركة متتالية من يدي أفهمتُ الصبيّين أنّنا لن نظلّ واقفين هكذا وأنّنا سنخرج لنشمّ الهواء بالسيّارة.

في الأسفل، تنازع الصبيّان قليلاً قبل أن يسلّم أيمن لأخيه بالجلوس على المقعد الأمامي. وأنا أنهضت هبة وأجلستها على المقعد خلفي ليكونوا بذلك، هم الثلاثة، متوزّعين النوافذ الثلاث ولينظروا، كلّ من نافذته، إلى ما سنمرّ به في الطريق. الطابة التي أحضرها أيمن معه، منبعجة ومُفرغ هواؤها، زادتني شفقة عليه. فجأة خطر لي كيف أنّه، حين يركل الطابة برجله، لن يسمع ذلك الصوت السريع الخاطف الذي يدلّ على قوّة الركلة. بل إنّه لا يعرف هذا الصوت كيف يكون. ولكنّني، مسرعاً، أعرف كيف أخرج من الخاطرات التي تأتيني مفاجئة هكذا. مددت يدي إلى حيث الطابة، التي لم تكن بعيدة عن رأسي وكتفي، وشددتها لأفلتها من الذراع التي تحيط بها. وإذ أعليتها لتصير أمامي، رحت أقلّبها وأضع على وجهي هيئة المشمئزّ المكشّر. ثمّ جعلت أبدو كأنّني سأرميها من نافذتي المفتوحة. وقد استجاب أيمن لملاعبتي بأن راح ينطّ متوثّباً في مكانه لينتزع الكرة منّي. وأنا صرت أبعدها عن يده كأنّما لأفهمه أنه لن يستطيع أخذها من يدي. وهذا ما أفرح أخاه أيضاً، فابتسم فيما هو ينظر إلى الطابة ليهمّ بأن ينتشلها من يدي، بحركة خاطفة سريعة. وقد أخذني

اللعب مثلما أخذهما، حتّى إنّني، بعد أن صارت يدي محاصرة بين يديهما المتطاولتين، رميت الطابة من النافذة، وتركت سرعة السيّارة وقتاً على حالها، هكذا، كأنّني لن أرجع لألمّها من حيث سقطت.

* * *

حين أفهمتهم بأنّنا سنذهب لنأخذ بلال من بيته، كنت أعرف أنّني بذلك آخذ حصّتي من النزهة. لكنّني، مع ذلك، رحت أقول إن ذلك سيسلّيهم وأنّهم، إن ظلّوا قاعدين هكذا في السيّارة، سيهمدون بعد قليل ولا يعودون ينظرون إلى ما نمرّ به في الطريق. كانت قد نشطت حماستهم حين توصّلتُ إلى أن أفهمهم أنّنا، الآن، ذاهبون إلى بيت بلال. أخذ ابني أحمد يقوم ويقعد على الكرسي في نطّات متتابعة، وهو راح، بحركاته الفائضة البهجة، ينقل لأخيه ما كان أخوه قد فهمه أصلاً. في المرآة الصغيرة أمامي كان وجه أيمن وسخاً وشعره الأجعد سميكاً ويابساً. وإلى جانبي كانت المشاية في قدميْ أحمد لا تخبّىء شيئاً من الغبار والوسخ اللذين توزّعا في أنحائهما. للحظة فكّرت في أنّني تسرّعت بما وعدتهما به، ورحت أفكّر في ألا آخذهم معي إلى بيت بلال بل أتركهم يلعبون في جلّ قريب وأذهب لأحضره إليهم وحدي. لكنّي عدلت عن ذلك، لا خوفاً من أن تعرف هي بما دفعني لإبقائهم وحدهم، بل تحسّباً من شيء ما قد يصيبهم وهم في مكان لا يعرفونه.

ولا أعرف لماذا بدت لي الطابة أكثر فَضحاً من كلّ شيء فيهم. مددت يدي، مرّة أخرى، لآخذها من يد أيمن، لكن لأدسّها هذه المرّة

تحت مقعدي متسبّباً بإفراغ المزيد من الهواء الباقي في داخلها. بيديّ الاثنتين رسمت لهما شكل طابة، ثم رحت أستحسن استدارتها ونظافتها بحركة من رأسي وشفتيّ، وذلك ليفهما بأنّهما سيلعبان بطابة جديدة.

ومع ذلك، رحت أفكّر في أنّ مجيئي بهم حجّة لي وذريعة، لأنّهم بحسب ما قد أقول، لأداري حرجي، اشتاقوا إلى ابن عمّهم.

بقيت جالساً في السيّارة حين وصلْت، كما أبقيتهم جالسين في مطارحهم. وقد انتظرت وقتاً بعد أن أطلقت الزمّور لأرى مَن سيطلّ من الباب، بلال أم هي، أمّه. حين انفتح الباب خرج بلال راكضاً إلينا، عارفاً بأنّنا هناك، فقد كان قد رآنا من النافذة المطلّة على الطريق. وهو توجّه من فوره إلى حيث نوافذ السيّارة المفتوحة، متردّداً بينها كأنّه يحتار أمام أيّ نافذة منها يقف. ثمّ، بتعجّله ذاته، راح يتردّد أمام الأبواب لكي يبدأ بفتحها. "بلال... بلال..." قلت له موقفاً إيّاه عن ذلك، فقد رأيت أنّ عليّ أن أعرف مسبقاً ماذا سأفعل بهم. "أمّي هنا" قال لي، ليقلّل من الخيارات التي أديرها في رأسي. لكنّه مع ذلك، وقف منتظراً أن أقول له ماذا يفعل.

– أهلاً بالسيّد، قالت من حيث أطلّت، واقفة أمام الباب المفتوح. كانت ترتدي ثوباً أبيض سكرّياً فوق ثياب منامتها التي لا يبين منها إلا طرفا قَبّتها الكاشفان عن ذلك الجزء القليل من أعلى صدرها.

"أنزلهم يا بلال" قالت من حيث بقيت واقفة.

بدوا، هم أيضاً، كأنّهم متحرّجون من النزول، فقد ظلّ أحمد جالساً في مكانه و لم يخرج من الباب الذي فتحه بلال وبقي واقفاً

ممسكاً به. وكان أيمن باقياً لا يزال في مقعده حين فتحتُ باب أخته وأخرجتها من السيّارة مع لعبتها. من حيث تقف أمام باب البيت راحت تكلّم هبة قائلة لها

إنّها ستعطيها شيئاً حلواً، وهي تقدّمت بعد ذلك إلى حيث ما زلنا واقفين.

– كيفك يا سيّد، قالت لي فيما هي تقترب منّي ناظرة إلى هبة. وقد استعددت لقربها منّي فيما هي تفتح ذراعيها لتأخذها منّي. ذلك القرب الذي تهيّأت لأن أتلقّاه صامتاً لكي لا يحصل هكذا من دون أن أشعر به. وقد شعرت به، برائحته وملامسته، حتّى وإن لم يتعدَّ ذلك قرب ثوبها من عباءتي.

وهي سارت باتّجاه مدخل بيتها حاملة ابنتي، منتظرة منّا أن نتبعها. كان بلال يوزّع إيماءاته على الصبيّين منقّلاً نظره بينهما. ثمّ قال لي حين رأى أنّهما متشبّثان بوقوفهما قرب السيّارة أن أشير إليهما بأن يسيرا معه إلى بيته. كانا ينتظران أن آذن لهما. ولكي لا أتركهما يتردّدان، سبقتهما أنا إلى المشي بعد أن أشرت إليهما بيدي بأن يتبعاني.

"يا الله" قلت مصاحباً ذلك بدقّ خفيف على الباب. كان الولدان ملتصقان بي لا يخطوان إلّا بحسب ما أخطو. ولمّا دخلت تأخّرا عنّي مسافة خطوتين أو ثلاث، فيما بلال، وهو يبتسم من استحيائهما، يحثّهما على التقدّم بأن ينقّل يده بين كتفيهما.

على الكنباية، على مكانها ذاته عند طرفها، كانت هي قد جلست وبدأت بمنشفة مبلّلة تمسح وجه هبة. وأنا رأيت أنّ عليّ أن أقول شيئاً عن اتّساخ الصبيّين أيضاً، إلّا أنّني عدلت عمّا خطر لي قوله من

أنّ أمّهما انهمكت منذ الصباح بشغل البيت. قلت لبلال، بدلاً من ذلك، أن يأخذهما إلى الحمّام ليغسلا وجهيهما. وإذ جلستُ على طرف الكنباية الآخر، حيث تعوّدت، أدارت هي وجهها لترى كيف صار وجه هبه نظيفاً، وجميلاً كما قالت مخاطبة إيّاها. ثمّ أكملت ما كانت تفعله بأن قالت لهبة إنهما الآن، هي وهبة، ستنظّفان وجه اللعبة.

المسحات المتتابعة على وجه اللعبة خفّفت من اللطخ السوداء التي تكاثفت عند الخدّين خصوصاً، لكنّها أزالت من الكوتشوك لونه الزهري وجعلته مجبحاً وأبيض بائخاً. بدت هبة، حين أُدير وجه اللعبة إليها كي تراه، حائرة مستغربة. "لم يعجبها" قالت فيما هي تنظر في وجه هبة. ثم سألتْها إن كانت لعبتها قد صارت حلوة، فلم تحظَ منها إلّا بذلك الصمت المصاحَب بالتحديق في وجه اللعبة. قالت لي، فيما هي تعيد الالتفات إليّ، أن ليس في بيتها لعب للبنات، وأنا تريّثت قليلاً قبل أن أنهض لأرفع هبة، معاوداً ذلك الاقتراب ذاته من اليدين اللتين تضمّانها، ولأقول لها إنّها لا بدّ تعبت من حملها هكذا.

وحين صارت هبة بين يديّ جاء الولدان يتبعان بلال وهو يحمل بيده القطع التي سيصنع منها قطاراً وسكّة للقطار. أخذت هبة تحاول الانزلاق من بين يديّ لتكون معهم، متفرّجة على ما تفعله يدا بلال الماهرتان. قالت لي، بعد أن صرنا منفصليْن عن الأولاد، إنّ تعلّق بلال بلعبته هذه كان يطوّشها وإنّها فكّكت أجزاءها وخبّأتها فيما كان هو لا يزال متعلّقاً بها.

– وأنتِ الآن تتمنّين أن تكون تخرّبت؟

ضحكتْ، ثم أنهت ضحكتها القصيرة بنهوضها عن الكنباية لتسألني إن كنت أريد قهوة.

"الآن لا شيء" قلت فيما أنا أمدّ يدي إليها لتلتقطها بيدها، بما يشبه المصافحة، ثمّ لتعاود الجلوس في مكانها.

وقد فاجأتْها خطوتي تلك، وأحرجتها. قالت لي وهي لا تزال واقفة، مبقية يدها في يدي، إنّها ستشاركني شرب القهوة.

كان ذلك كافياً، فكّرتُ. ما أردته من خطوتي تلك ليس أن أختبر قبولها، بل أن أتقدّم عمّا كنت فيه حين لامستُ يدها في زيارتي الماضية.

"نشرب قهوة"، قالت فيما هي، مبتسمة، تحرّر يدها من يدي.

لم أكن أريد أكثر من أن أتأكّد من قبولها. وهذا ما عليّ أن أستخلصه بنفسي، ما دام أنّني لم أحظَ بما يؤكّد أنّ ما ظننت أنّي نجحت في بلوغه قد بلغتُه حقّاً.

– القهوة يا سيّد، قالت فيما هي تقترب حاملة الصينيّة الصغيرة. وفيما رحت أقرّب الطاولة الصغيرة لتكون القهوة في متناولنا، جلست هي، أقرب إليّ قليلاً من جلوسها المعتاد عند طرف الكنباية. وهكذا كانت يداها، فيما هي ترفع الركوة وتصبّ القهوة في الفنجانين، أقرب إليّ مما هما إليها. بل إنّها راحت تتباطأ في ذلك، كأنّها تطيل تطلّعي بيديها من تلك المسافة القريبة.

– هذا هو، قالت قاصدة صوت القطار الذي، من لحظة ما تحرّك على سكّته، بدأ يرسل زماميره كأنّما ليبعد كلّ ما يقف في طريقه.

وقد هلّل ولداي منذ أن انطلق القطار، وهما أخذا يصفّقان من سرورهما. ولما اقتربت من حيث يجلسان، مبقياً فنجان القهوة بين يديّ، رفع أحمد وجهه إليّ كأنّما لينقل إليّ ابتهاجه مما يرى. ثم عاد إلى النظر إلى القطار السائر، من دون صفيره وزماميره. فقط ذلك المسير الذي يصير أكثر سرعة عند المنعطفات فيبدو كأنّه ينطّ عنها نطّاً. كانت هي، حاملة قهوتها أيضاً، قد انضمّت إلى تلك الفرجة، واقفة بجانبي. وكانت قد هيّأت نفسها لتقول لي شيئاً عن الولدين، لا بدّ، حيث سيكون غريباً أن لا تقول كلمة واحدة عمّا هما فيه.

* * *

كان أبي يعلم بمرضي. العينان اللتان تظهران لي غافلتين ومبقيتين ما تريانه على سطحهما كانتا لا تزالان قادرتين على أن تحبسا فيهما، في داخلهما، شيئاً التقطتاه. تلك الالتماعة التي لا أشاهدها، والتي تحدث مثل أن تُلتقط صورة بكاميرا مطفأة، قبضت على ما سيكون لديه الوقت الكثير للتفكّير فيه.

لا شيء لديه يفعله طيلة النهارات إلا أن يُعيد التفكير في ما كان قذفه إلى رأسه، مرّة ثمّ مرّة ثمّ مرّة... وأنا أعرف، كلّما أعلى وجهه لينظر إليّ، أنّه الآن يتيقّن ممّا سبق له أن توصّل إلى معرفته.

– أبوك لم يهدأ طول النهار، ظلّ يتلفّت حواليه ويضع يديه على طرفي الكنباية كأنّما ليرفع نفسه ويقوم.

كان لا يزال على تلفّته القلق ذاك، لكنّه، حين لمحني وقد صرت قريباً من كنبايته، أوقف حركته واتّخذ هيئة المتربّص.

– هذا أنا يا أبي... هذا أنا.

كان قلقه وتوتّره قد قوّيا انتباهه، فلم يكن صعباً عليه أن يُفهمني، بإبقائه عينيه محدّقتين متشبّثتين بي، أنّه يريدني أن أجلس قبالته. وحين قرّبت الكرسي الصغير إلى كنبايته وهممت بالجلوس، أومأ إليّ بأن أقترب أكثر، وذلك بحركة من رأسه بدت لي صحيحة كاملة كما لو أنّها أفلتت من مرضه. ثمّ، حين صرت قريباً منه حتى لتكاد ركبتاي تلامس ركبتيه، مدّ إصبعه إليّ، ثمّ هزّه مصوّباً إياه إلى صدري:

– أنا؟

لم يعجبه جوابي. أدرك أنّني بدأت هكذا بأن أماطله.

إصبعه الممدود مشيراً إليّ امتدّ مسافة أخرى ليلامس صدري ويلكزه، ثمّ قامت يده بتلك الحركة التي تقول: "أنت، ما بك أنت؟".

ابتسمت، تلك الابتسامة المستهجنة التي تعني: "أنا، وماذا بي أنا؟".

نفض رأسه متوتّراً مستنكراً، ثمّ، بعينيه الصغيرتين اللتين ذكّرتاني بنظرتهما التي أعرفها، أفهمني أنّه ينتظر أن أقول له ما بي.

يريد أن يعرف، وهو مصرّ على ذلك، ولن يفيد أن أقوم عن كرسيّي لأبدو كما لو أنّني نودي عليّ لأنّ أحداً أتى لزيارتي. إن فعلتُ أكون كأنّني أتركه، ليس لهذه المرّة فقط، بل لكلّ مرّة يكون فيها ملحّاً على بقائي معه.

وقد بدوت، بمداورتي له، كأنّني أُطيل وقت صحوته التي ترهقه وتتعب جسمه، وأنّه بعد لحظة سوف يبدأ لهاثه.

- إنّي مريض يا أبي، لكنّ مرضي لا يُميت.

كان قد تعب حقّاً. فجأة انحلّت ملامح وجهه المشدود وأرخى جسمه قبل أن يُرجع ظهره وكتفيه ليسندهما إلى الكنباية. كأنّ ما كان يريده هو أن يعرف شيئاً، أيّ شيء، حتى وإن كان ما سيعرفه سيعيده إلى قلقه بعد ساعة أو بعد يوم.

- أجلب لك شيئاً يا أبي؟

بنتفة القوّة الباقية فيه، نفض يده إلى الأعلى، مجيباً بذلك أنّه لا يريد شيئاً وأنّه، أيضاً، يريد أن يرتاح.

* * *

حين يحتاج إلى يقظته يستطيع أن يبلغها. يكون قد أعدّ نفسه لها منذ أن يفيق في الصباح. وحين يصل إلى أن يتمّها، يروح يتلفّت حوله منتظراً أن أجيء، أو أن تراه زوجتي فتقول لي إنّه يريد شيئاً. بعينيه وبملامح وجهه التي تبديه متوجّعاً كلّما بدّلها، يمكنه أن يُفهمني ما كان قد تهيّأ لكي يقوله. حتى إنّني أستطيع أن أترجم حركاته إلى كلام أنطقه ليوافق عليه بهزّة رأسه.

- تريدني أن أذهب إلى هناك، أقول مشيراً بيدي إلى حيث تذهب يده.

وإذ يكمل ما وافق عليه بأن يُعلي يده ليضعها على صدره.

- أن أذهب إلى بيتك؟

بلى، إلى بيته، أجاب بإرماش عينيه.

ولم يلزمه أن يتعب في إفهامي أنّه يريد كتبه. لا أكثر من أنّه فتح

كفّيه مثلما يفعل حين يقرأ الفاتحة.

– تريد أن أحضر لك كتاباً؟

ليس كتاباً واحداً، ذاك أنّه رفع يديه مقلوبتين إلى مستوى صدره، دالاً بذلك على كثرتها.

– كلّها... الكتب كلّها؟

هناك في غرفته التي لم يكن يغادرها إلا ليريح جسمه من القعود، كانت تبين مصفوفة وراء زجاج الخزانة. وكان يخطر لي، كلّما التفتّ إليها وأنا خارج من غرفته تلك، أنّها، بأغلفتها القديمة السوداء، كتب ناس قديمين أعاد هو تجليدها بيديه.

– تخاف أن يسرقها أحد؟

قلت له ذلك لأنّه لن يعود إلى القراءة الآن. لا عيناه تساعدانه ولا عقله يقدر على تفسير ما قرأه. أتخيّله كيف سيقف من الجملة عند منتصفها، ثمّ يرجع إلى أوّلها ليعيد قراءتها من جديد.

– هل أجيء بالخزانة أيضاً؟

لم يجب. ترك لي أن أقرّر ما إذا كنت سأبقيها هناك، أو أحضرها، مثلما رحت أتصوّر، مقلوبة على ظهرها في إحدى زوايا الشاحنة، خالية مفرغة من الكتب.

– تلفّت حوله قبل أن تقوم يداه بتلك الحركة التي تعني أنّ ذلك لا يهمّ، سواء أحضرت الخزانة أو أبقيتها هناك. ما يريده هو الكتب. الكتب وحدها، تلك التي لم أره مرّة يفتح أحدها ليقرأ ما فيه.

– تريد أن تقرأ يا أبي؟ قلت ممسكاً تلك الابتسامة التي لا أعرف إن كان قد ظهر له شيء منها.

– نظّارتك عندك؟ أين صارت نظّارتك؟

* * *

صرت أسمّيه بيته بعد أن عدت من النجف لأقيم هنا في الشقيفيّة. وكان هو لا يزال مبقياً مفاتيحه معه، يسترجعها منّي كلّما عدت جالباً له ما طلب منّي إحضاره. لكن في هذه المرّة، فيما هو يقرّبها من يدي متدلّية من الخيط الثخين الذي يربطها به، بدا كأنّه يسلّمني إيّاها لتبقى معي. وهو قصد أن أفهم ذلك من فوري، فقد كرّر مرّتين حركة يده المرحّلة للمفاتيح، مصاحباً ذلك بتلك النظرة التي تعني: خذها... خذها ولا تُعدها إليّ.

رحت أفكّر، وأنا في طريقي إلى بيته، في أنّه يسابقني في تخليص أموره الأخيرة، إذ يعتقد أنّ مرضي سيميتني. أو أنّه يسعى ربّما إلى أن يخلّص أمرينا معاً لظنّه أنّني قد أُهمل الأشياء التي سيكون عليّ أن أقوم بها. الكتب أوّلاً، هذه التي لن يتاح لي أن أقرأها من بعده، كما لن يقرأها ولداي الصبيّان. ليس أنّي خذلته بما قد يسمّيه حبّي للقعود وقلّة حماستي، بل إنّني، فوق ذلك، لم أنجب أولاداً أُكمل بهم ما اعتدنا أن نكونه من مئات السنين، كما كان يقول. "جدنا السيد اسماعيل، أو جدّنا السيد عبد الحسين، أو جدّنا السيّد علي العاملي، أو حتى جدّنا البعيد السيّد عليّ الرضا"، كان يقول متذكّراً جدّه وجدّ أبيه وجدّ جدّه، بل متذكّراً جدوده الأئمّة من أوائل أخلاف النبي. وقد كان يقول لي، فيما هو يعدّني لأذهب إلى النجف، إنّنا لم ننقطع أبداً عن أن يكون منّا رجال دين.

لقد خذلتُه، بكسلي أوّلاً، ذاك الذي يبديني في نظره مثل ولد يتأخّر عن درسه وفروضه. كان يراني نحيلاً مثل صبيّ طويل تحت العمامة التي كنت أرتديها، وكان يشعر بعدم ملاءمتي لما أنا فيه، كلمّا تبعته أو مشيت إلى جانبه ساكتاً فيما هو يعلي صوته على مَن كان يوبّخهم، أو يقلب الطاولات على من كان يشاهدهم يلعبون الورق. وبدلاً من أن أقول له، فيما نكون مخلّفين وراءنا الرجال يعيدون إيقاف الطاولات على قوائمها، إنّه قسا عليهم وأهانهم، يروح هو يكمل إهانته لهم غير مكترث بأنّهم يسمعونه. لم يكن يترك لي حتّى أن أقول كلمة. لا أكثر من أن أبدو في هيئة من يستمع، وأن أنتظر أن يهدأ حنقه حتى أهدأ أنا من بعده.

كانت قد مرّت أشهر على زيارتي الأخيرة لبيته. وراء بوّابة الحديد كان تراب الجنينة قد نشف واسودّ الزرع الذي تركته يابساً. هذه المرّة أيضاً، فيما أنا أتقدّم لأفتح باب الخشب الموصل إلى غرف البيت، تذكّرت تكذيبي لما قاله الشاعر عن حنينه لمنزله الأوّل. حتى في اليوم الذي غادرته فيه، حاملاً أغراضي إلى النجف، لم يخطر لي أنّي سأشتاق إليه. وهناك، حين نروح نتحادث، كان السيّد مضر يضحك حين أقول له إنّني لا أحنّ إليه لأنّه لم يكن منزلي الأوّل، وذلك لأنّنا لم ننتقل منه لنعيش في منزل آخر سواه.

دفعت باب الخشب بيدي وقدمي. كانت درفتاه قد التصقتا لطول ما ظلّتا مطبقتين. الرائحة إياها، التي كانت تطلع من المطبخ. هذه المرّة أيضاً سأذهب توّاً إلى ما جئت من أجله، مسرعاً متعجّلاً، كأنّني أغافل الأشباح التي نَمَت في جنبات الغرف بعد إخلائها. توّاً إلى غرفة أبي. لا لأمسك

الشيء الذي جئت لآخذه وأخرج به، مسرعاً أيضاً، بل لأنظر إلى الخزانة، علّني أعرف ماذا عليّ أن أفعل ومن أين أبدأ. ولما رأيت أنّه لا بدّ لي من أن أخرج الكتب أوّلاً، وجدت نفسي خارجاً إلى الممشى كأنّما لأستعدّ هناك، ثمّ أعاود دخولي بعد ذلك، متوجّهاً من فوري إلى الخزانة.

كانت أغلفة الجلد السوداء قد ألصقت الكتب بعضها ببعض، وكان عليّ، لأفصل بينها، أن أسلخ واحدها سلخاً عن سواه. مضت عليه سنوات، لا بدّ، جالساً قبالة كتبه من دون أن يخطر له أن يقوم ليفتح درفة خزانتها. في ظنّه ربّما أنّه قرأها وعرف ما فيها ولا حاجة لأن يعود إلى قراءتها من جديد.

وفيما رحت أُخرج ستفة منها بعد ستفة لأضعها على الأرض، أدركت أنّني لا أنجز شيئاً من مجيئي اليوم. ذاك لأنّها ستظلّ هنا حيث أضعها على الأرض، بانتظار أن يأتي مَن سيحملها، هي وخزانتها، ليضعها في شاحنته.

* * *

كان ينبغي للطبيب أن يعيّن لي وقتاً أذهب فيه إليه. أن يقول لي مثلاً عليك أن تأتي في الساعة الثالثة من يوم كذا بتاريخ كذا. بتركه إيّاي أختار متى أعود، في مدّة شهر أو شهرين ربّما، جعلني أوقف، في لحظة، ما تكون يداي مشغولتين بفعله. لو كان السيّد مضر معي هنا لعبّرت عن ذلك بقولي له إنّ يداً من يديّ طليقة واليد الأخرى مقيّدة، هكذا بالكلام الذي كنّا نقوله مزهوّين به كأنّنا نخترعه. قلت، وأنا أكوّم الكتب على الأرض، إنّني الآن أفعل ما لا يفيد حيث أبقيت

نصف ما كان في الخزانة على الأرض وتركت نصفه مصفوفاً على رفوفها، حتّى إنّني تساءلت، قبل أن أدير ظهري للخروج، إن كان من الضروريّ أن أغلق درفتيها.

وسأحتاج إلى دقيقة أو دقيقتين لأعرف، فيما أنا أقفل باب الحديد وأتّجه إلى السيّارة، أن ما أوقفني ليس تقديمي للوقت وتأخيري له، بل شعوري بأن لا قيمة لما أفعله في الوقت الذي أوشك فيه على أن أسلّم نفسي للمستشفى وأطبّائها. ولأنّي أعرف أنّ ما سيلي من أفكار سيرهقني ويضيّق نفَسي رحت، فيما أنا أتقدّم بالسيّارة مخلّفاً باب الحديد المقفل ورائي، أغيّر ما أوقعت نفسي في التفكير فيه. ولا أحتاج إلّا إلى القليل من الإصرار حتّى يأتيني بها تخيّلي، هي زوجة أخي، سائرة في اتّجاه المطبخ ورجلاها القويّتان، المكشوفتان حتى الركبتين، توقّعان كلّ خطوة تخطوانها. وأنا، فيما أنعطف بسيّارتي لأتسلّق الطريق الصاعدة أمامي، أبدأ بتقليب صورها، وبتخيّلها في صور جديدة، منقّلاً إيّاها، كاشفاً أنحاء مختلفة من جسمها: هناك في المطبخ، حيث أضع يدي فوق يدها الممسكة بركوة القهوة، وهناك فيما يدي تلامس ساقها الناعمة والقويّة، من حيث يبدأ انكشافها واصلة بذلك إلى أعلى فخذها. وهناك أيضاً في الحمّام، ثمّ في السرير الذي جلستُ عليه مرّة خالعاً عنّي جبّتي وعباءتي، أو على الكنباية حيث نجلس، لكن بعد أن أكون قد أيقنت أن لا أحد في الخارج وأنّ الستائر أُحكم إغلاقها. تلك القوّة ستتلاشى وتزول حين تصير عارية من الثياب التي تكشف أسفل جسمها وتجلس، بعريها ذاك، على ساقيّ. وإذ أروح أمرّر يديّ على أسفل جسمها العاري، أراها وقد

أصبحت طيّعة لي، تقوم بمجرّد أن أعلي يدها، لأنها فهمت أنّني أريد الآن أن تقوم لتقف مواجهة إيّاي، مقدّمة لي عريها لأراه.

وهي كانت تطيعني في ما أتخيّله وتستجيب لي إلى الحدّ الذي وجدت نفسي فيه سائقاً سيّارتي إلى بيتها. ذاك أنّ هذا القبول، بل الرضوخ، موجود فيها، في حقيقتها وليس في تخيّلي وحده. وهي ستُظهره، لا بدّ، في اللحظة التي تبدأ فيها بإغلاق عينيها، من خجلها أو من ابتداء شعورها بلذّتها.

حين بلغتُ الطريق المستقيمة في ذلك السهل العريض أطلقتُ سرعة سيّارتي إلى أقصى ما أستطيع، راغباً هكذا في إبقاء توتّري في أقصاه، كما بإبقائها هي حيث أتخيّلها، قاعدة منتظرة. لن أترك لهذه المسافة الباقية أن تهدّئني. وأنا، من أجل ذلك، جعلت أغذّي توتّري بأن أعيد تذكّر ما تخيّلته، مرّة بعد مرّة، لكي أنتقل من كلّ شيء أراه أو ألمسه، إلى تصوّر ما سيأتي من بعده.

كانت السيّارة تطيعني. في المرتفع الذي أعقب آخر السهل العريض، أطلعت هديرها قويّاً مضخّماً لكي لا يبطئها الصعود إلى الأعلى، هناك حيث ستعود الطريق إلى الانبساط. لم يبقَ وقت طويل على أيّ حال. لا أكثر من ضيعتين أمرّ بهما، بين بيوتهما، قبل أن أصل إلى ذلك المنخفض الذي في طرفه بيتها. عشر دقائق، بل أقلّ ربما إن كانت الطريق في الضيعتين خالية. لم يبقَ وقت طويل إذن. هذه هي الضيعة الأولى. تبدو خالية من هنا. لن تؤخّرني. سأصل إلى نهايتها من دون أن يؤخّرني شيء. ثمّ هناك الطريق القصيرة، ثم الضيعة الأخرى. دقائق قليلة وأصل، لا أكثر من دقائق.

وحين بلغت تلك الشجرات التي يبين بيتها من بعدها بدأت أفكّر ماذا عليّ أن أفعل في لحظة ما أصل. هل أبقى في سيّارتي حتى أرى بابها ينفتح وتطلّ هي من وراء الباب؟ هل أُطلق زمّور السيّارة وأبقي محرّكها دائراً لتسمع صوته أيضاً؟ ثمّ ماذا إن تأخّرتْ هي في الظهور أمام الباب، هل أنزل عن مقعدي وأنتظر، متكّئاً قليلاً على الباب الذي أبقيه مفتوحاً مشرعاً؟ هل ينبغي عليّ ألاّ أفكّر في هذا كلّه وأتصرّف بحسب ما سيحصل؟...

هو بلال. أخرجه من البيت صوت السيّارة فيما هي تقترب متباطئة من الممشى. ربما أطلّ من النافذة أوّلاً، ثمّ، بالسرعة التي يتيحها عمره، أصبح في ثوانٍ قليلة خارج البيت، واقفاً ينظر إلى سيّارتي تقترب. وقد ركض نحوي كأنّما ليسبقني في الوصول إلى وسط الممشى. وفي لحظة ما أوقفت السيارة انعطف إليّ مسرعاً ليفتح الباب لي ولينتظر قيامي عن المقعد ونزولي إليه.

فقط بعد أن مسحت على رأسه وخدّه بيدي قلت له إنّني كنت مارّاً من هنا وإنني اشتقت إليه.

ولكي لا يكون مروري عابراً أمسك بيدي ليبعدني عن الباب الذي سيقفله باليد الأخرى:

– ماما ستصل... لن تتأخّر، قال فيما هو يرفع يدي ليتحقّق من قرب وصولها بالنظر إلى ساعتي. "لن تتأخّر" قال بعد أن أكّدتْ له الساعة ذلك.

– وأنا أيضاً لن أتأخّر، قلت له، لكن فيما أنا أطيعه بادئاً المشي معه باتّجاه مدخل البيت.

- هي قالت لي إنّها لن تتأخّر...

- نجلس هنا، قلت ناظراً إلى طرف المدخل الضيّق مثل شرفة صغيرة.

لم أشأ أن أكون في الداخل حين تأتي، فذلك قد يعني أنّني هنا أنتظر منذ وقت طويل.

- لا، لن نجلس، لن أبقى كثيراً، قلت لبلال الذي كان قد أسرع إلى الداخل ليحضر الكرسيين.

كما أنّني أبدو، إن بقيت هنا في الخارج، كأنّني كنت أهمّ بأن أغادر.

- لا،لا، اتركهما هناك، قلت له وهو يسوّي خروجه من الباب ليخرج بالكرسيّين معاً.

لكنّه، بعد أن وقف حائراً، حاملاً الكرسيّين واضعاً ظهريهما تحت ذراعيه، أنزلهما، واحدة بعد الأخرى، وجعل ينظر إليّ متسائلاً.

- تعال نتمشّى، قلت، مادّاً يدي إليه وهامّاً بنزول الدرجتين.

أن أكون هناك قرب السيّارة سيحتاج منها، لحظة ما تصل، إلى أن تبدأ محاوِلة إقناعي بالبقاء. هو أيضاً، بلال، فكّر أنّ امتناعي عن الجلوس يعني أنّني لن أبقى طويلاً، أو لن أنتظر طويلاً.

وأنا، الذي أعرف أنّني سأبقى، سيكون عليّ أن أظلّ موهماً إيّاه بأنّني، في كلّ لحظة، سأخطو تلك الخطوة الأولى نحو أن أركب سيّارتي وأغادر.

- تحبّ أن أجيء بالكرسيّين إلى هنا؟ سأل مشيراً بإصبعه إلى المساحة التي تتقدّم السيّارة.

- لا... لا، الأحسن أن نتمشّى.

يريدني أن أبقى. ليس فقط من أجله هو، بل من أجل أن ألتقي بها ونكون، أنا وهي، معاً. يحبّ ذلك، أعرف. كما أعرف أنّه، برغبته هذه، لا يكون يُفسد شيئاً فيه.

لكنّني، رغم ذلك، ينبغي أن أظلّ متجاهلاً رغبته.

– أنتم في الفرصة؟ قلت قاصداً الفرصة التي تعطيها المدارس للتلاميذ.

– بقي يوم واحد، أجاب مبتسماً ومتّخذاً هيئة التأسّف.

– على كلّ حال أنت تتسلّى مع رفاقك في الصفّ؟

– ليس معهم كلّهم، رفاقي الذين أتسلّى معهم ثلاثة...

وإذ شرع بأن يخبر أشياء عنهم، هم الثلاثة، بادئاً بأسمائهم، بدا لي أنّه يقبل بأن يتكلّم كلام الذين يصغرونه سنّاً، هكذا لأنّ سؤالي عن مدرسته ورفاقه وَضَعه فيه. كان عليّ أن أصمت بعد أن لاحظت ذلك، أو أن أبدّل ما أقوله فأبدأ أحادثه بكلام الكبار.

وقد آثرتُ أن أصمت، مديراً نظري إلى زجاج السيّارة كأنّما لفتني شيء في داخلها. لم أجد شيئاً أقوله، وهو، الذي لا بدّ يقلقه تمسّكه ببقائي لوقت ليس بيده تحديده، كان ينتظر أن أجد أنا كلاماً أقوله.

لكنّني، غير راغب في إجهاد نفسي، رحت أتمشّى منقّلاً رجليّ على طريق الباطون القصيرة التي ستنتهي بعد ما يزيد قليلاً على عشر خطوات. وهو يسير مثلما أسير، يقف حين أقف، ويتلفّت مثلي إلى شتلات الورود المزروعة على الجانبين.

– الأحسن لي أن أذهب، قلت معلياً يدي لأقرّب ساعتي إلى عينيّ.

– أنا أعرف كيف أعمل قهوة... أمّي تقول إنّها تحبّ قهوتي.

– على كلّ حال أنا اطمأنّيت عليك، قلت واضعاً يدي على كتفه وناظراً إليه بابتسام متودّد.

– أنت ستسير وبعد دقيقة هي ستأتي.

متمهّلاً خطوت نحو السيّارة، ومتمهّلاً أيضاً فتحت بابها، ومتمهّلاً كذلك أدخلت جسمي لأصير على مقعدي، هكذا معوّلاً على أن تصل في وقت مغادرتي القليل.

سلّم عليها... سلّم على ماما، قلت له كأنّما لأرضي رغبته، حتّى بمجرّد ذكري لها.

* * *

كان قد حفظ في رأسه ما قرأه من كتبه فلم يعد إلى قراءتها أبداً. في الحسينيّات كان يروي أحاديث وأقوالاً وفتاوى بنصّها الصحيح، وكثير منها لم يسبق لي أن قرأته أو عرفته. وكان يفصل في ما يتجادل به رجال الدين الذين يأتون إلى بيتنا. "أكمل أكمل"، يقول لمن يكون يتكلّم منهم مفهماً إيّاه أنّ ما بدأ به ليس إلا بداية لأمر، لكي تنجلي صحّته، ينبغي أن يُستكمل. "وما هو عجُز البيت، ألا تعرفه؟" قال مرّة لواحد من المتعلّمين في الجامعات كان يلقي ألغازاً نحويّة على رجال الدين. لم يعرف الشاب المتعلّم تكملة البيت الذي فيه الجواب على أحجية شطره الأوّل. "قله... قله" قال له أبي هازّاً عصاه. "وإلا كيف سيصلون إلى إعرابه...؟ حتّى في القليل الذي كان الشاب قد حفظه اتّضح أنّ هناك خطأً فيه. صحّحه أبي: إنّ هند الجميلة الحسناء، ثمّ أكمل الشطر الثاني: وأيْ من أضمرت لخلّ وفاءا. ثم فسّر البيت لرجال الدين المتسائلين

وللشاب الذي لم يكن يعرف كيف ينهي ما بدأه.

كان قد حفظ كلّ شيء في رأسه، ولم يعد في حاجة إلى الكتب لتذكّره به. تركَها هناك في الخزانة أمامه مكتفياً بالنظر إليها متجمّعة معاً ومتلاصقة كأنّه، في أوقات قعوده الطويلة، كان يراجع ما فيها، مقفلة أمامه، بل ومخمّناً، من تلك المسافة التي تفصله عنها، أيّ كتاب منها هو الذي يراجع ما هو مكتوب فيه.

وفيما كان الرجلان اللذان جئت بهما يخرجان من الخزانة الكتب التي تبقّت فيها، رحت أنا أفتح منها ما يلفت عتقه نظري، أو ما أراه حاملاً عنواناً على غلافه. ليس لأنّي لم يسبق لي أن رأيت أبي يقرأ في كتاب، بل إنّني، حين رأيت اسمه مكتوباً في الصفحة الأولى من أحد الكتب، ذاكراً فيه أنّ هذا الكتاب خاصّته وملكه، انتبهت إلى أنّني لم يسبق لي أن رأيت شيئاً مكتوباً بخطّ يده، لا خطبة ولا رسالة ولا فتوى ولا عقد زواج. خطر لي أن هذه الحروف المتطاولة عصيّها، في اللام والألف، هي خطّه في شبابه، حين كان يبتهج بكتاب اشتراه أو أهدي إليه. وقد ذكّرني ذلك بصورته التي في بيته، وبعمره وهو فيها.

– انتهينا يا مولانا، قال الرجل الأكبر سنّاً.

باغتني. حتّى إنّني، بعد أن أدركت ما قاله، نظرت إلى الكتاب الذي بقي بين يديّ، كأنّما لأعرف ماذا أفعل به.

كانت الخزانة قد أُخذت هي أيضاً، تاركة الحائط من ورائها رطباً مختلفاً لونه عن اللون الذي يحيط به.

– نسبقك يا مولانا؟

تركتهما يسبقانني إلى الخارج، ذلك لأكون وحدي حين أخرج

وأُقفل الأبواب، كما لأرى إن كان عليّ أن أضبّ المساند والطراريح التي بقيت مفروشة في أماكنها.

في الخارج كانت الخزانة قد حزّمت بالحبال. أبقاها الرجلان واقفة على قوائمها، مثلما كانت هناك في الداخل، بدل أن يمدّداها على الأرض. كان الرجلان ينتظرانني متظلّلين بالشاحنة.

– نمشي يا مولانا؟

أومأتُ لهما برأسي فيما أنا أتوجّه نحو سيّارتي حاملاً الكتاب بيدي. وقد لبثت في مكاني خلف المقود، مشيراً إليهما بذلك أن يسيرا أمامي وأنا أتبعهما. لم أُرد أن يظلّ نظرهما مصوّباً عليّ طيلة وقت الطريق.

* * *

– الكتب صارت هنا يا أبي.

اتّخذ وجهه هيئة المتسائل.

– هنا، في الغرفة عندي؟

يحبّ أن يراها، فقد بقي وجهه على هيئته المتسائلة. ربّما أراد أن توضع أمامه، مستوفة على الأرض، قبل أن نقرّر في أيّ مكان من البيت نضعها.

– هل أجيء بها إلى هنا؟

كان الرجلان قد وضعاها عندي في غرفة الاستقبال، هي وخزانتها، هكذا مثل بضاعة مكوّمة. وقد حملت له ستفة منها، خمسة كتب أو ستة، وضعت في أعلاها كتابه الذي خطّ اسمه بقلمه على صفحته الأولى.

- هذا كتاب الطبقات الجعفريّة، تتذكّره؟

رفع عينيه إليّ فيما يداه تمسكان بالكتاب الذي قرّبته إليهما. ثم راح ينظر إلى غلافه مخفضاً رأسه إليه. لم يسأل عن نظّارته. ما كان يراه غبشاً يتضّح منه بالكاد الخطّ العريض لعنوان الكتاب. وهو فتحه رغم ذلك، لا على صفحته الأولى، بل على مكان ما في وسطه. لكنّني، لأريه اسمه مكتوباً بخطّه، مددت يدي لأقلب الأوراق إلى الصفحة الأولى:

- هنا اسمك، أنت كتبته.

وهو لن يرى ذلك في الغبش الذي هو أشدّ هنا وأكثف.

- النظّارة، أين النظارة، أين وضعناها؟

لم يأتِ بحركة تدلّ على أنّه يريدها. كان مكتفياً بتقليب الكتاب كأنّه يتعرّف إلى شكله ومادّته. فكّرت أنّ مرضه ذهب بقدرته على القراءة ومعرفة الحروف. لكنّه، حين همّ بأن يعيد إليّ الكتاب، بدأ بأن أغلقه، ثم قلَبه ليرجع إلى سويّته مردوداً إلى غلافه: العنوان في الأعلى، مثلما أخذته يداه حين قرّبته إليهما.

ولم يشأ أن يرى الكتب الأخرى التي بقيت حاملاً إيّاها بيديّ. كذلك فإنّه لم يبدُ مهتمّاً بما يتعدّى تصفّحه للكتاب وتقليبه. اكتفى من طلبه كتبه بأن صارت عندي، في بيتي. وهو، بحسب ما بدا لي من حركته المتخلّية فيما هو يردّ الكتاب إليّ، ترك لي أن أفعل بها ما أشاء.

أو أنّه رأى أنّه يفعل ما كان عليه أن يفعله: أن يورّثني ما سبق له أن ورثه.

وأنا في غرفة الاستقبال قلت إنّ عليّ ألّا أبقي الكتب هنا في مكانها حيث وضعها الرجلان. إن تركتها اليوم سأكسل عنها غداً، رغم أنّ زوجتي لن تتوقّف عن تذكيري بأنّها في الغرفة مرميّة على الأرض. كان هيّناً عليّ أن أردّها ستفاً ستفاً إلى خزانتها، لكنّني رغبت في أن أتصفّحها أوّلاً، وأن أعيدها إلى الرفوف متناسبة وموافقاً بعضها لبعض.

غداً أبدأ بتصفّحها، قلت. الآن أكتفي بواحد منها، ذاك الذي خطّ أبي اسمه عليه وكان، ربّما، أوّل كتاب اقتناه.

الفصل الثالث

تولّى المرض إنهاء الفترة التي ظللت أتساءل متى ينبغي أن أقرّر متى تنتهي. دم كثير كان قد تجمّع في داخلي وقد انقذف منّي متدفّقاً ومتّسخاً. أعادني ذلك إلى الخوف الذي يجعلني أتعرّق من فوري ولا أعرف إلى أيّ الاتّجاهات أُدير عينيّ. لم أصبر حتّى تنقضي الساعات القليلة الباقية من النهار لتحلّ من بعدها هواجس الليل. "أنا ذاهب إلى المستشفى" قلت لزوجتي.

– الآن؟

وهي ظلّت واقفة ناظرة إليّ لا تعرف كيف ينبغي عليها أن تكون.

– إلى الطبيب أو إلى المستشفى؟

– الطبيب لن يكون في عيادته حين أصل... هناك في المستشفى يعرفون ماذا يجب عليهم أن يفعلوا.

– هل أجهّز لك شيئاً تأخذه معك، أكلاً أو ثياباً...؟

– لا... لا، هناك يعطونني ما أحتاج إليه.

رأت أنّ عليها أن تفعل شيئاً. أن تزيل تلك السحنة التي لا تبدّلها. أن تقول لي مثلاً إن ساعة المرض تعيدها إلى هيئتها الصحيحة. كان عليّ من جهتي أن أبادلها بشيء. كأن أقول لها مثلاً: انتبهي على الأولاد، أو أقول لها كلمة امتنان، وإن مواربة، عن قيامها بخدمة أبي في غيابي، لكنّني كنت مشغولاً بارتباكي وبمداراة خوفي.

– الوقت يتأخّر، قلت كما لو أنّني أبرّر لنفسي سرعة خروجي.

ثم رفعت يدي التي أحمل بها علّاقة المفاتيح معلناً خروجي المتعجّل. لكنّني، حين وصلت إلى الباب، خطر لي أن أقول شيئاً لأبي.

رأيته، حين التفتّ إلى الغرفة حيث يجلس، مديراً عينيه إلى الممشى. كأنّه عرف بما بي، واستعدّ منتظراً أن أكلّمه قبل أن أغادر.

– أنا ذاهب يا أبي، قلت، هكذا من دون مواربة، كأنّني أبلغه أنّ ذهابي هو إلى المستشفى وأنّني أقرّ له بصحّة ظنّه حول مرضي.

لم تتغيّر نظرة عينيه التي علّقها بي. لم يرد أن يعرف شيئاً يزيد عمّا قلته له. وإذ رأى أنّه حدّق إليّ كفاية رفع يده النحيلة الكثيرة العروق وقرّبها إليّ لمصافحتي. كانت طريّة في يدي، وقليلة بلا ثقل.

– أنا سأذهب الآن، قلت فيما أنا أطبق عليها بيدي الثانية، ثم أسرعت في الخروج لكي لا يعتم الضوء وأنا بعدُ على الطريق.

في الأسفل بدت السيّارة متّسخة مغبرّة، فلمت نفسي، على رغم ارتباكي وتعجّلي، كيف أنّني أكسل عن غسلها. وتذكّرت بلال ابن أخي، بل وخطر لي أن أمرّ إلى بيته أصطحبه فيما أنا أغلق الباب على جلوسي خلف المقود. وإذ تقدّمت بالسيّارة نحو المنعطف الذي يخرجني إلى الطريق الواسعة، فكّرت في أنّ زوجتي لا بدّ تقف هناك على الشرفة، وحدها، مودّعة إيّاي، لكن غير منتظرة أن أرفع رأسي إلى الأعلى لأراها. وقد أبطأت مسيري في تلك المسافة الأولى لكي لا أبدو مستعجلاً طائراً بسبب مرضي. بل إنّني ابتسمت لرجل وامرأته كانا يسيران وأعليت لهما يدي محيّياً. وفيما أنا أصل إلى الطريق التي تكثر فيها السيّارات، تذكّرت ولديّ مقدّراً أنّهما، الآن، عائدان

إلى البيت عرقانين مهمليْ الثياب. أشفقت عليهما، بل وأحسست بتلك النبضة في الرأس التي تسبق تجمّع الدمعة. غير أنّني أسرعت إلى الضغط على زرّ الراديو الصغير لأُشغل نفسي بما سأسمعه. دفعة واحدة طلع صوت التشويش قويّاً، فأسرعت إلى إخفاض الصوت ثمّ إلى تغيير إبرة المحطّة ثمّ لأنقّلها بعد ذلك على محطّتين أو ثلاث قبل أن أطفئ الراديو وأخفي صوته.

عند أوّل الطريق المستقيمة الممتدّة لسرعة السيّارات أراحني قليلاً تذكّري لشعوري، كلّما صرت هناك، بأنّي أبدأ سباقاً. دستُ بقوّة على دوّاسة البنزين لكي تزيد السرعة من ارتياحي. نسيت ما خطر لي عن مروري على بلال، أو إنّني أهملت ذلك قاصداً على رغم تخيّلي له واقفاً أمام باب بيته منتظراً إيّاي أن أقول له، حين أصل، اركب، اركب بسرعة يا بلال. وقد أعدت تصوّري لمشهد وقوفه ذاك، وتشبّثت به كأنّما لأُبعد صوراً لا أحبّها قد تحلّ محلّه. لكنّني أعرف أنّني لن أظلّ مبقياً في رأسي ما أحبّ أن يبقى فيه، فبعد أقلّ من دقيقة ستغالب صورة بلال صور أخرى لولديّ العائدين إلى البيت غير عارفين إلى أين ذهبت، أو لأبي الذي أحبّ أن يُبقي يده في يدي كأنّه يبلغني بشيء يخيفني حصوله، أو بالمستشفى الذي سيبدأون فيه بإعمال آلاتهم فيّ، الثاقبة والجارحة، والبارد معدنها اللامع النظيف. لكن مع ذلك عليّ أن أسرع، أن أزيد سرعتي متجاوزاً السيّارات واحدة بعد واحدة. ذاك من أجل أن أصل قبل أن تزداد كميّة الدم النازفة والتي تتجمّع في بطني لتصير في حجم برتقالة كبيرة. وخوفي هذا من تواصل النزف، نقطة نقطة، تفيد السرعة في تهدئته وإلحاحه

عليّ بأن أوقف السيّارة إلى جانب الطريق، وأنزل، ثم أبتعد مسافة لأخبّئ نفسي خلف هضبة أو خلف شجرة، وهناك أرفع دشداشتي وأروح أحدّق إلى بولي لأتبيّن كميّة الدماء التي خالطته أو حلّت محلّه.

ساعة الخطر يساعدنا على تصريفها التبدّل المتسارع للصور والأفكار التي تتوالى في رؤوسنا، واحدة بعد واحدة. كما أنّنا نساعد أنفسنا بأن نصير نقول إنّنا يجب أن نصل، أن نصل الآن، ألا يؤخّرنا شيء وألا يعترض طريقنا شيء. هذه المرّة ستظلّ سرعتي تقودني وأنا أتبعها. لن أدور حول الشوارع المحيطة بالمستشفى لأجد مكاناً لسيّارتي أوقفها فيه، بل سأتركها هناك، مفتوحة الباب ربّما، عند المدخل. وسأبدو لمن يراني، فيما أنا أسير، بل أركض، في الهيئة التي لا تليق بي. أقول لحارس المستشفى الذي سيكون واقفاً هناك: السيّارة، تركتُ السيّارة هناك، ملتفتاً بوجهي نصف التفاتة إليها. الدم، الدم، أقول للممرّضة حاملة الطاسة المعدنيّة التي وضعت فيها قطناً وإبراً، فترتبك الممرّضة وتروح عيناها تبحثان أين تضع الطاسة التي في يدها.

* * *

في المستشفى يتولّون هم، الممرّضون والأطبّاء والعاملون الآخرون، التصرّف بجسم المريض. أنا أستطيع أن أسير، أقول للشاب الذي أنزل جسمي عن آلة التصوير، لكنه يأبى إلّا أن يضعني في الكرسيّ النقّال ويجرّني آخذاً إيّاي إلى الغرفة التي هيّأُوها لي. وهو سينزلني هناك، مادّاً يديه ليحضنني بهما أو ليرفعني من إبطيّ. ولا أقول له إنّني

أستطيع أن أقوم، وحدي أستطيع أن أقوم. وهو سيضعني بعد ذلك في السرير الذي كانوا قد أعدّوه لنومي بأن طووا جانباً من شرشفه، لكي يبدو لي أنّه مستعدّ لاستقبالي وتمدّدي. وهو، الشاب القويّ، الكبير الجسم، سيغطّيني أيضاً، حتّى ذقني، وسيسوّي الشرشف ويرتّبه من سطحه وجانبيه ليكون جسمي، لمن قد يراه من شقّ الباب، مرتّباً أيضاً تحت غطائه وثابتاً في مكانه، وذلك ليظلّ السرير مثلما أراده الشاب أن يكون.

– سأضع ثيابك هنا في الخزانة، قال فيما هو يومئ بوجهه إلى درفة الخزانة المستطيلة الضيّقة. كانت عباءتي ودشداشتي مطويّتين طيّات كثيرة، وحين عاد إلى عمامتي ليأخذها عن الطاولة حيث كان وضعها، أبدت يداه حذراً في إحاطتها، ثمّ في وضعها فوق العباءة والدشداشة، هكذا مثلما تكون وهي موضوعة على الرأس.

– تريد شيئاً آخر أفعله لك؟ سأل الشاب القويّ فيما هو يستدير باتجاه الكرسي الذي نقلني به.

– لا.. لا، أجبت، ملتفتاً إليه بعينيّ لا بوجهي.

وإذ خطا خطوتيه الأوليين نحو الخروج، قلت له، من دون أن أحرّك رأسي: ماذا ظهر في الصورة؟

كان يجب ألّا أسأله، أعرف. وهو استدار لينظر في وجهي وليهزّ رأسه هزّة خفيفة من أجل أن أعيد ما قلته. لم يسمعه، أو أنّه لم يفهمه لأنّه لم يكن ينتظره.

– الطبيب سيقول لك، هو الطبيب.

لكن لن يطول بي الوقت حتّى أُخرج يدي من تحت الشرشف

الذي يغطّيها وأضعها فوقه. وحين رفعت جسمي بعد ذلك لأكون نصف قاعد ولأشغّل التلفزيون المعلّق على الحائط أمامي، فكّرت في أنّني ذهبت بشغل الرجل القويّ وأفسدته. ثمّ إنني، بعد وقت لن أقدر على تأجيله، سأفسد مشهد الغرفة كلّه بقيامي عن السرير. كنت يقظاً إلى حدّ أنّني، إن قمت، لن أجلس على الكرسي الذي إلى الجانب الآخر من السرير، بل سأمشي. سأتحرّك على رجليّ، متنقّلاً في فراغ الغرفة الضيّق، دائراً حول السرير، مرّة بعد مرّة، ملتفتاً إلى التلفزيون الذي جعلته بلا صوت.

لم يكن طبيباً واحداً. أتوا كثيرين. أطبّاء كلّهم، أو إنّهم أطبّاء صغار. كان بلال ابن أخي قد قال لي في المرّة السابقة إنّهم يدرسون الطبّ وإنّهم يتمرّنون في المستشفى.

– مرتاح؟

– الحمد لله؟

– بعد قليل سيأتي طبيبك ليخبرك عن نتيجة الصور والفحوص.

لن أستبق ذلك بأن أسألهم عنها، ذاك لأنّي أعرف أنّهم سيجيبونني بما أجاب به الشاب القويّ.

– لماذا لا ترتاح؟ قال ذلك الذي يقف في مقدّمتهم، والذي بدا لي أكبرهم عمراً وجسماً.

– لست تعباناً.

– ولا موجوعاً؟ هل تحسّ بالوجع؟ سأل فيما هو يدعوني إلى أن أجلس أو أن أستلقي قريباً من حافّة السرير.

وقد أطعته بأن جلست أوّلاً، ثم تمدّدت مبعداً يديّ عن وسطي

لأكون كأنّني أقدّم له جسمي ليفحصه.

– هنا؟ سألني بعدما رفع عن بطني ثوب المستشفى الواسع القصير.

– هنا، هل من وجع هنا؟

– لا، أجبت بعد أن أمهلت نفسي لأتبيّن إن كنت متوجّعاً.

– هنا؟

– ...لا.

كان ينقّل يده بين وسط بطني وأطرافها من دون أن يهتدي إلى الوجع الذي يبحث عنه. وقد أمهلته قبل أن أبادر إلى إعلامه أن لا شيء يوجعني الآن، وأنّني أريد أن أغطّي جسمي الذي كشفه.

مثل أولئك الواقفين وراءه لا يتكلّمون أبداً ولا يحرّكون شيئاً فيهم، أتى ليتعلّم. وقد عرفت ذلك من سكوته حين جاء الطبيب، ومن إبعاد يده عني، ومن انضمامه بعد ذلك إلى مَن كانوا يقفون وراءه.

– أتعبناك في الفحوصات؟ قال لي الطبيب فيما هو يقف ملاصقاً السرير، ثمّ مدّ يده إلى الثوب ليغطّي به بطني.

لم يطمئنّي ذلك. خطرت لي تلك الحركة التي تعني أن لا فائدة في أن نواصل العمل الذي كان قد بدأه. وهو، كأنّما ليزيد من ترقّبي لما سيقوله، أمهل نفسه وقتاً ظلّ صامتاً فيه، بل إنّه التفت إلى مَن كان يكلّمني وسأله شيئاً باللغة الإنكليزيّة التي يعرفانها.

– سنجري العمليّة، قال لي بعد أن أتاه الجواب قصيراً، من كلمة واحدة أو من كلمتين.

– متى؟

– بأسرع وقت.

– الآن... اليوم...؟

– ربّما غداً، أو بعد غد، لكنّك ستبقى هنا، عندنا.

كنت أحبّ أن يغادر أولئك الذين يقفون ناظرين كلّهم إليّ. وقد فهم الطبيب ذلك مني إذ رآني منقّلاً بصري بينهم وبينه. وهو، بالإنكليزيّة أيضاً، قال شيئاً جعلهم يستديرون جميعهم ويبدأون الخروج وراء صاحبهم الأوّل الذي تقدّمهم.

– ... خطرة؟

– العمليّة؟

– ...

– لا، مبدئيّاً. هنا في المستشفى أجرينا عمليّات كثيرة مثلها. لا، ليست خطرة، مبدئيّاً لا.

لقد عاد ثانية إلى لغته التي يجهل،لا بدّ، وقعها في أذن سامعها المريض. حين زرته في عيادته، بعد خروجي ذاك من المستشفى، بدا لي كأنّه تكلّم عن احتمالات ليس الخطر أو الموت مستبعداً منها. قال لي أن لا شيء أكيداً في الطبّ، رافعاً نسبة الاثنين في المئة، أو الخمسة في المئة، إلى أن تكون رقماً مائعاً قابلاً لأن يتمدّد مثلما هو الزئبق في ميزان الحرارة الذي يضعوه في الفم.

– هنا، في هذه المستشفى، سياستنا هي أن نكلّم المريض بصراحة، ألا نخفي عنه شيئاً.

– لكن إن عشت...

– ستعيش، لا تخف.

– أقصد إن عشت، هل سأظلّ كما أنا؟

– هناك أشياء ستتغيّر، لكنّك ستعتادها.

ولكي يبدأ بإبلاغي عن الأشياء التي ستتغيّر فيّ، سوّى طرف السرير، حيث سيجلس، ليكون مرتاحاً وقريباً إليّ.

* * *

يصعب عليّ أن أغفو وأنا في سرير المستشفى. هم، بالنايلون السميك، يغلّفون الفراش من أجل ألا تتسربّ إفرازات المرضى إلى حشيّته. أصير أزلق في تقلّبي وتزحط رجلاي فلا تعودان تساعدانني على أن أرفع جسمي كلّما شدّني النايلون إلى الأسفل. في يوميْ إقامتي السابقة تردّدت في أن أقول لبلال ابن أخي أن يبادلني الكرسي بالسرير فأنام أنا على الكرسي التي تُفتح طيّتها. فكّرت في أنّ ذلك سيبدو لهم غريباً حين يفتحون الباب ويجدونه هو في سرير المريض. بدلاً من ذلك رحت أقول له تعال نتمشَّ يا بلال، فيمسح نعاس عينيه بقفا يده ويقوم واقفاً ليرافقني في المشي. الآن، وأنا وحدي، أراني أخجل من أن أمشي بثوبي القصير أمام الممرّضات الساهرات هناك، وراء رفّ جلوسهنّ الطويل.

أعرف أنّني سأقضي الليلة متنقّلاً بين السرير والكرسي، ومنقّلاً محطّات التلفزيون الذي لن يسلّيني. ما أستطيع أن أفعله، الآن في أوّل الليل، هو أن أتصرّف كأنّني أسهر سهراً عاديّاً: أن أجلس على السرير مسنداً ظهري إلى عارضته وأبدأ بالتفرّج على التلفزيون؛ أن أتّخذ

وضع من يحسّ بنفسه مرتاحاً بين أغطية نظيفة؛ أن أكون مثل مَن يسلّي نفسه قبل نومه الذي سيأتيه بعد ساعة مثلاً.

كنت قد جعلت مشهدي ذاك كاملاً حين قرع إصبع على الباب، لتظهر ممرّضة تجرّ آلات الفحص.

– بعد قليل سيأتي إليك طبيب التخدير.

– من أجل العمليّة؟

– غداً، سينزلونك غداً إلى العمليّات.

وقد أعجبها أن تكون حرارة جسمي غير مرتفعة، وهي ابتسمت لي، بعد أن ألقت تلك النظرة على ميزان الحرارة، كما لو أنّها تهنّئني. وحين أنهت زيارتها بفحص ضغط الدم سألتني إن كنت أحتاج إلى حبّة دواء تنيمني، لأنّ الطبيب سمح بذلك.

حين عادت حاملة حبة الدواء مع كوب ماء، قالت لي إنّ هذه ستنيمني. وقد تركتها موضوعة في كوبها الصغير على الطاولة بجانبي لكي أقرّر بنفسي متى أتناولها لأبدأ نومي.

– غداً في السادسة سيأتي الحلّاق، قالت بادئة بابتسامة لتقول لي شيئاً هو ليس من شغلها.

– لحيتك، قالت غامزة إن كنت سأقبل بأن يحلقها الحلّاق حين يأتي.

ابتسمت أنا أيضاً، وإن كنت قد ظننت لوهلة أنّها ربّما تقصد حقيقة أن تسألني عن ذلك.

لكنّها، على أيّ حال، لم تنتظر إجابة منّي. عند الباب، قبل أن تخرج وتقفله، سألتني إن كنت أرغب في أن تطفئ الضوء، وقبل أن

أجيب، قالت لي إنّني أستطيع أن أطفئه بنفسي، مشيرة بإصبعها إلى الزرّ بجانبي.

وقد رحت أفكّر، بعد أن أقفلت الباب، بلحيتي. بدا لي أنّ مشهدي سيكون غريباً بها وأنا ممدّد عارياً على تلك الطاولة في غرفة العمليّات. ليس غريباً فقط، بل ومضحكاً أيضاً: أن يكون جسمي العاري بين أيديهم وأدواتهم ووجهي، مع ذلك، باقية فيه تلك الهيئة التي يراها الناس في رجال الدين. أنا نفسي ما زلت أجد فيّ ذلك الشيء الغريب غير المتناسب حين أنظر في مرآة الحمّام التي تُظهر وجهي ونصف جسمي. ثمّ إنّني، هنا في المستشفى، وأنا ممدّد على السرير، لا شيء فيّ يدلّ على كوني رجل دين إلّا هذه اللحية التي هي لحية رجل دين وليست مثل اللحى التي يرخيها الناس ليزيّنوا بها هيئاتهم.

– مساء الخير يا شيخنا، قال الطبيب، طبيب التخدير، الذي جاء يسألني الأسئلة ذاتها التي أجبت عنها في المرّة السابقة.

– لديك حساسيّة تجاه شيء، طعام، دواء...

– لا.

– في المرّة السابقة أتعبك التخدير؟

– أظنّ أنّه كان أقوى مما يجب.

– تدخّن؟

– كنت أدخّن.

– تشرب؟ قالها مغلفّة بابتسامة تبديه كأنّه قصد ممازحتي.

وأنا رددت بابتسامة أيضاً.

– أخبروك أنّنا سنجري العمليّة غداً؟

كنت أريد أن يخبرني شيئاً عنها، لكنّني تردّدت فقد فكّرت في أنّني، إن سألته، سيظهر عليّ خوفي.

– هناك شيء تحبّ أن تعرفه؟

– لا... لا شيء، قلت هازّاً رأسي كأنّني أسائل نفسي إن كان هناك شيء أسأله.

– لا... لا شيء، قلت مرّة ثانية، كأنّما لأستعجل خروجه فآخذ الحبّة وأنام.

لكنّني، فيما أنا أرفعها لأضعها في فمي، بدت لي صغيرة ولا تكفي لأن تُهمد جسمي المتنبّه اليقظ. وقد خطر لي أن أكبس زرّ الجرس الذي بجانبي، لأطلب حبّة ثانية. لكنّني عدت وعدلت عن ذلك بعد أن ذكّرت نفسي بأنّ حبة في حجم هذه قادرة أن تقتل إنساناً، بحسب ما شاهدت مراراً في الأفلام. وقد عدت وتناولتها محتسياً معها القليل من الماء، بحسب ما كانت أوصت الممرّضة.

* * *

كانوا كثيرين متوزّعين حولي وأنا في السرير الضيّق الذي يجرّونه في الممشى. أقرباء المرضى الذين قضوا ليلتهم في المستشفى أخذوا يديرون وجوههم ملتفتين إليّ وهم ذاهبون إلى الغرف أو خارجون منها . غير أنّي لم أخجل من نقلهم إيّاي هكذا أمامهم، إذ فكّرت أنّ حلاقتي للحيتي قد غيّرتني، وأنّ من يشاهدونه الآن، ممدّداً وحليقاً،مختبئ عنهم بظهوره هكذا، كأنّه ليس هو حقيقة. وأنا كنت

أنظر إلى وجوههم التي أعبر بينها، عالية وقريبة، كأنّني أنظر إليها من تحت سقف. كان الحلّاق يعرف أنّني رجل دين ولحيتي هي لحية رجل دين. "هل حقّاً تريد أن أحلقها؟" سألني مرّتين. ثم عاد وسألني للمرّة الثالثة حين كاد أن يبدأ، مقرّباً ماكينة الحلاقة من وجهي. أومأت له أنّني بلى أريد أن أحلقها. كنت قد قرّرت ذلك في الليل قبل أن تنيمني الحبّة. قلت ما دامت أشياء فيّ ستتغيّر ولن أعود كما أنا بحسب ما قال الطبيب، يجب عليّ أن أغيّر هيئتي لتصير متناسبة مع التغيّر الذي سيصيب جسمي. ثمّ إنّ الكثيرين من رجال الدين لم يعودوا يرخون لحاهم. وقد رحت أتذكّرهم، واحداً واحداً، ممرّراً صورهم في رأسي لأرى مَن منهم أبقى لحيته ومن اكتفى بشاربيه. قلت للحلّاق أن يبقي الشوارب، وخفيفة أيضاً. "هل تريد أن ترى كيف صرت؟" قال لي فيما هو يقرّب المرآة من وجهي. لم أُدر عينيّ إليها، حتى إنّني أبعدتها بطرف يدي. كان عليّ أن أهيّئ نفسي قبل ذلك. أن لا أرى وجهي قد تغيّر هكذا من دون أن أكون قد تخيّلته في رأسي، مرّة بعد مرّة. هو أيضاً، الحلّاق، مع أنّه ليس طبيباً، كشف ثوب المستشفى عن جسمي، بل وأنزل لباسي إلى ما تحت عانتي. وأنا لم أخجل أمامه مع ذلك. ربّما لأنّهم أعطوني تلك الإبرة التي غرزوها في الكيس الصغير الملتصق بكيس المصل فوقي. كنت أغفو ثمّ أفيق، ثم أعود فأغفو. لكن بمجرّد أن أفتح عينيّ أجد أنّي صاحٍ كلّ الصحو. بل كنت كأنّني متحكّم في صحوي وغفوتي أتنقّل بينهما بحسب ما أشاء. ربّما كانت تلك الإبرة قد بدأت تفعل فعلها حين سألني ذلك الذي كان يتقدّم الأطبّاء الصغار إن كان أحد معي هنا من أقاربي. ولمّا

أجبته بأنّي هنا وحدي، قال لي إنّني يجب أن أوقّع الورقة بنفسي. وأنا كنت أعرف أنّها الورقة التي تقول بأنّني أتحمّل مسؤولية العمليّة وأنّني طلبت بمشيئتي أن تُجرى لي. وقّعتها و لم أخف. كانت الإبرة التي غرزوها في كيس النايلون الصغير قد بدأت تفعل فعلها. أغفو ثمّ أفيق ثمّ أغفو ولا أكترث بما يجري حولي في ذلك الممرّ الذي أوقفوا سريري فيه وراحوا يكلّمون بعضهم بعضاً، هم وكثيرون آخرون كانوا هناك. و لم يكن ما يقولونه يدور حول شغلهم فقط وحول المرضى الذين كانوا مثلي ممدّدين في أسرّتهم وموضوعين مثلي في الممرّ الضيّق. بين ما كانوا يقولونه أشياء حدثت معهم البارحة، ليس هنا في المستشفى بل في أماكن كانوا يسهرون فيها. وأنا كنت أغتاظ من نسيانهم لي متروكاً هكذا في الممرّ. لكنّني كنت سريعاً ما أغفل عنهم أنا بدوري وأقول بيني وبين نفسي كيف أنّني لست خائفاً بينما هم سيأخذونني بعد قليل إلى غرفة العمليّات. "لن تشعر بشيء" قال لي طبيب التخدير قبل أن ينزل ليهيّئ نفسه للعمليّة. "لا شيء أبداً؟" سألته، فأجاب بأنّني سأكون مثل النائم، ثم قال بعد ذلك، كأنّما من أجل أن يسلّي نفسه، بل إنّني سأكون مثل الميّت. هكذا، ظانّاً أنّ الإبرة أخرجتني عن وعيي. "أكيد لا أحد معك هنا؟" سألني رجل لم أكن قد رأيته، لا في الصباح ولا في الليلة التي سبقت. "أنا وحدي" قلت. كان يريد أن يعرف ماذا يفعل بأشيائي التي وضعوها في الخزانة الصغيرة، ما دمت سأكون مخدّراً ولا أعرف شيئاً ممّا قد يجري حولي. ها إنّهم يُدخلونني. هذه المرّة كنت أرى اللمبات فوقي، هناك عند السقف أو أخفض منه بقليل. لمبات مضاءة يزيغ منها النظر فأُغلق

من قوّتها عينيّ. و لم أكن أرى بعد ذلك إلّا الوجوه، ملتفّة حولي. وقد دنا منّي وجه امرأة قالت لي، كأنّها تهمس همساً في أذني، إنّهم الآن سينقلونني، ممدّداً هكذا، إلى سرير آخر. ثم ربتت بيدها على كتفي المنكشف ثم على يدي المسبلة إلى جانبي. وقد كانوا كثيرين أولئك الذين رفعوني ممسكين بأطراف الشرشف الذي تحتي. وهم، عندما أعلوني كلّهم معاً، راحوا يطلقون أنفاساً وأصوات كلمات هي مما يقوله الناس في المحال أو في الطرقات حين يرفعون شيئاً ثقيلاً. "خلص... خلص... أنت الآن سترتاح"، قالت لي المرأة التي كانت قد ربتت على كتفي ويدي المسبلة، ثم التفتت لتكلّم أحداً من الذين يقفون قريبين حولي. هناك، وأنا في غرفتي، أمسكت الممرّضة يدي بيديها الاثنتين وأنا، على رغم أنّني كنت أنتظر أن توجعني الإبرة التي ستغرزها في يدي، هنا في سطح قبضتي، أحسست بالملمس الطريّ وبنعومة اليدين وهي تضغط بهما على المكان الذي تراه مناسباً لغرز الإبرة. "ياللا خلينا نبدأ" قال صوت ربما كان صوت الطبيب الذي سيجري لي العمليّة. لم أكن قد رأيته منذ أن أفقت في الصباح. اقترب منّي "مرحبا شيخنا" قال، ثمّ بدأت أحسّ بأنّني أسقط إلى الأسفل إلى الأسفل إلى الأسفل، وكان عليّ أن أنبّههم إلى أنّني أسقط قبل أن يكتمل وصولي إلى ذلك القاع...

...لا بدّ أنّ وقتاً ما انقضى وإن كنت لم أشعر بمدّته ولا بطوله. انقضى وقت، لا بدّ، وقتٌ مضغوط كمثل ما قد تُضغط ساعات لتصير دقائق. قال لي الصوت الذي أيقظني إنّ عمليّتي نجحت مع أنّني أتعبت الطبيب وأولئك الذين كانوا معه. ثم قال لي صوت آخر الحمد لله على

السلامة. كان هذا صوت امرأة، جالسة هناك، في مكان بعيد من القاعة التي تخيّلتها واسعة وخالية لا شيء فيها إلا سريري وكرسيين، واحد هنا، قريب من الرجل الذي أيقظني صوته، وواحد آخر هناك تجلس عليه المرأة. وقد عرفت أنّهما موجودان هنا لملازمتي، ليكونا حاضرين إن حدث لي شيء. ذاك لأنّهما هنا، معي، في الغرفة المتّسعة مثل قاعة، والتي لا مريض فيها سواي. وأنا رحت أكلّمهما، أقول لهما كلاماً يطلع كأنّما من طمأنينتي. لا بسبب أنّني نجوت، فذاك ما لم يخطر لي و لم أفكّر فيه. كنت مطمئنّاً وسعيداً وأتكلّم على مهلي مرتاحاً إلى الكلام الودود الذي أقوله. وقد سألت الرجل إن كنّا الآن في الليل أو في النهار، كأنّما من أجل أن أزيد يقظتي وانتباهي لما حولي. لكنّني، وأنا في هدأتي تلك، دهمني شعور بأنّي أدوخ وأنّ شيئاً فيّ يتلاشى وأنّ روحي ضمرت و لم تعد كافية لإبقائي على صحوي. "إنّي أدوخ أدوخ" قلت. وقد ظلّ الرجل، صاحب الصوت، على هدوئه. قال لي إنّه سيُخفض رأسي ويجعله دون مستوى قدميّ وجسمي. وقد أراحني ذلك، بل وعدت إلى كلامي الهادئ معه ومع المرأة التي تصوّرتُ أنّها غيّرت من وضع جلوسها فجعلت ساقيها متدلّيتين عن قعدة الكرسي العالية كأنّما من أجل أن تسرع إليّ إن حدث لي شيء. لكنّها قالت، من حيث تجلس في ذلك البعد، إنّ دوختي عاديّة، وإنّني يجب ألّا أقلق. كان صوتها يتوزّع في الغرفة الواسعة، كأنّها لا توجّه كلامها إلي، بل تقوله هكذا للا أحد. لكنّني أحببت أن أراها، أن تقترب مني وأن يظهر لي وجهها مثلما ظهرت لي المرأة التي ربتت على كتفي ويدي. ذاك لأنّي لا أستطيع أن أرفع رأسي لأراها لأن لا شيء فيّ أستطيع أن أحرّكه. كانت الأغطية

ثقيلة فوقي وأنا لا أستطيع أن أرفعها أو أرفع رأسي معتمداً على مرفقيّ، لأنّ الثقل الذي وُضع فوقي يقيّدني. ثمّ إنّي، حتى لو تمكّنت من أن أرفع رأسي، سأظلّ لا أراها، لأنّ ضوء الغرفة خفيف كأنّه ضوءالغروب، لكن الغروب المتأخّر الذي يبدأ الناس يتلمّسون فيه الطريق لمشيهم. لكنّني سأقدر أن أراها إن أتت وقرّبت وجهها منّي. "هل ترى دماً على ثيابي؟" سألت الرجل، فقد تخيّلت الأغطية والشراشف مبقّعة به. "لا... لا، كلّ شيء نظيف" أجابني من دون أن ينظر إلى بطّانية الصوف الثقيلة التي وضعوها عليّ لتدفئني ولا إلى أطراف الأغطية تحتها. "هم نظّفوني؟" سألته، وهو أجاب بأنّهم لا يخرجون المريض من غرفة العمليّات إلّا وهو نظيف. لكنّني مع ذلك بقيت أحسّ بأن دم العمليّة ما زال يلطّخني ويلطّخ البطانيّة والأغطية التي تحتها. وقد أحسست بالدم، بتبقّعه ورائحته، وذلك حين قرّب الرجل يديه ليرفع الأغطية ويدسّ أطرافها تحت جنبيّ . "أنت بردان" قال لي، لأنّني أرتجف بل وتصطكّ أسناني. "أشعل له الدفّاية" قالت المرأة التي تصوّرتها تنزل ساقيها الطويلتين إلى الأرض لكي تبدأ الاقتراب منّي. كانت الرجفة قد زادت إلى حدّ أنّني صرت أنتفض كلّي تحت الأغطية. قلت للرجل بصوت كان مرتجفاً هو أيضاً أن يشعل الدفايّة ويقرّبها منّي. وقد رفعت عينيّ بعد ذلك لأرى قرصها الموجّه نحوي يبدأ بالاحمرار. ثمّ رحت أشعر بدفئها القويّ وبوهجها الذي أغلقت عينيّ من قوّته...

...كنت قد غفوت. وقد أيقظني ثقل الأغطية التي لم يرفعوها عنّي بعد أن دفئت وتعرّقت. قال لي الرجل إنّ أناساً من أقاربي يريدون رؤيتي. ثمّ قال إنّهم ينتظرونني هنا، وراء الباب المقفل. النوم الذي غرقت فيه

لم يُزِل الدوخة من رأسي، بل ربّما زاد الحرّ والتعرّق من وطأتها عليّ. ولا أعرف إن كان صحيحاً تصوّري عن إخفاضهم لرأسي إلى حدّ أنّني بتّ كأنّني معلّق من رجليّ. وقد سألت الرجل إن كنت هكذا حقّاً، مقلوباً، رأسي في الأسفل ورجلاي في الأعلى. قال لي إنّني كنت أتكلّم في نومي وإنّني كنت أجد مشقّة في التنفّس. وقد سألني إن كان الآن، بعد أن أفقت، لا يزال يضايقني تنفّسي. وإذ أجبت بأن ما يضايقني هو دوختي، سمعت صوت المرأة تقول إنّ ذلك يحدث بعد العمليّة، وإنّهم لا يستطيعون إعطائي الدواء الذي يريحني. كنت قد غفلت عن قوله إنّ أقارب لي أتوا لرؤيتي. وحين عاد إلى قول ذلك مرّة ثانية، ملت بعينيّ إليه كأنّي سمعت منه شيئاً فاجأني. "أناس من أقاربك" قال مرّة أخرى، ظانّاً أنّني، بنظرتي تلك، أستفهمه عمّا قاله. ثمّ قال إنّهم ما زالوا هنا، مشيراً بيده إلى حيث ما عرفت أنّه الباب.

أطلّ وجهها فجأة، مرتفعاً أمامي، كأنّها كانت منتظرة هنا بقربي وليس وراء الباب المقفل. الضوء الخفيف (الذي لم أعرف إن كان خفيفاً حقّاً أو إن كان تعبي قد أضعف نظري وأعشاه) أظهر عظام وجهها بارزة عن وجهها الضامر الممصوص، وتهيّأ لي أنّ نحولها قد ازداد منذ أن غادرتُ البيت آتياً إلى هنا. لم تعرف ماذا تقول، وحسبت أنّ يديها مسبلتين ملتصقتين بجانبها. وأنا، فيما رحت أنظر إليها، بدا لي كما لو أنّها ترى عينيّ غائرتين مثلما تكون عيون المرضى. وعلى الرغم من دوختي وتعبي، قدّرت أنّها لن تعرف ماذا تفعل أو تقول. ذاك أنّها لن تعرف كيف تخرج من هيئتها الواحدة تلك، التي ما زالت ملازمتها منذ وقت لم أعد أذكره.

– جئت مع أبو عبد الكريم السائق، وهو ينتظرني عند بوّابة المستشفى.

بقيت ناظراً إليها فيما تتوالى في رأسي صورها تنزل من البيت وتفتح بجسمها الطويل النحيل باب السيّارة، مسرعة متعجّلة، ثم تقول له، من لحظة ما تقفل الباب، إنّها ذاهبة إلى المستشفى. كأنّ حركتها حركة امرأة غيرها. كأنّها واحدة من تلك النساء اللواتي اعتدن الخروج ويعرفن كيف يتصرّفن في أثنائه . للحظة خطر لي أن أرفع يدي من تحت الأغطية لأمدّها إليها، لكنّي كسلت، أو تردّدت، إذ إنّني، أنا بدوري، لن أفلح في أن أخالف ما اعتدته معها.

– الأولاد في البيت؟

أومأتْ برأسها، إيماءة خفيفة فيما عيناها ظلّتا تنظران في وجهي.

– موجوع، قالت لمّا رأتني أقلّص وجهي لأمرّر الحرقة التي صعدت من معدتي.

– الدوخة... فقط الدوخة.

أدارت وجهها كأنّها تبحث عن مكان الرجل الذي كان قد انضمّ إلى المرأة وجعل يحادثها بصوت أسمعه.

– هو دائخ، قالت موجّهة كلامها إلى حيث يقفان، يقول إنّه دائخ...

– هذا من التخدير... هذا يحدث بعد العمليّة، قال فيما هو يقترب نحوي ليتبيّن إن كانت قد استجدّت علامات لم يرها من قبل.

– هذا من العمليّة، قالت لي كأنّ ما قاله الرجل لم يصلني.

لكنّها مع ذلك بقيت على وقوفها إيّاه، مسبلة يديها المتدليّتين والملتصقتين، فيما رحت أحسب، بساقيها.

– الأولاد وحدهم هناك؟

– لا تخف، صاروا كباراً يستطيعون أن يدبّروا أمورهم.

كان عليها أن تقول شيئاً عن أبي، وأنا لم أشأ أن أذكره، فقد فكّرت أنّ كلامها القليل لن يصل إليه.

– لحيتك...

انتبهت إلى أنّني من دون لحيتي، وقد خطر لي أن أُخرج يدي من تحت الأغطية وأتحسّس ذقني كيف هي.

– هم حلقوها... هنا في المستشفى؟

وهي أرفقت ذلك بابتسامة، خفيفة لكنّها كافية لتظهر عن ملاعبة لم يسبق لي، منذ أزمان بعيدة، أن رأيتها في ملامحها. وأنا لم أستجب لملاعبتها. ردّتني عن ذلك دوختي، أو بطء استجابتي لما تقوله مفاجئاً إيّاي.

لم أستطع أن أرى جسمها النحيل وهي تبتعد ماشية في الاتّجاه الموصل إلى باب الخروج. كان الرجل قد قال لها إنّ عليّ أن أرتاح، وهي، بلياقة فاجأتني هذه المرّة أيضاً، قالت إنّه حان وقت خروجها وإنّها لن تؤخّر السائق عن العودة إلى بيته. سألتها قبل أن تخطو مبتعدة عن سريري إن كانت أفهمت الأولاد عن كوني هنا في المستشفى. وهي أجابت بكلمتين متردّدتين قبل أن تضيف كلمتين محيّرتين هما أيضاً: "سأطمئنهم عليك...".

* * *

الأيّام التي تلت لم تكن مهَلاً للشفاء مثلما يكون حالنا حين نصاب

بسقطة أو بوعكة أو بجرح. كان الوجع يزداد في تنقّله من مكان في جسمي إلى مكان آخر. قال لي الطبيب في واحدة من زياراته إنّ الجسم ينتفض ويجنّ حين تتعرّض أعضاؤه لعدوان، تماماً مثلما يحدث لحيوان حين يصيبه شيء حارق، رصاصة مثلاً، تصدم أعضاءه وتنغرز فيها. وقد أخذت أعيش وجعي بحسب قولة الطبيب تلك، أو فكرته، أو تشبيهه الذي جعلني، حين يشتدّ الوجع عليّ، أفكّر في جسمي كشيء منفصل عنّي يقوم بنوبات جنونه وحده.

حين كنت في ما ظننته تلك القاعة الكبيرة لم أنتبه إلى الأنابيب الكثيرة الخارجة منّي أو الداخلة فيّ. لم أنتبه حتى إلى تلك التي كان ينبغي لي أن أراها من لحظة ما أفقت، مغروزة في أنفي وفي فمي. وقد تعجّبت كيف أنّ زوجتي، حين رأتني وأنا هناك، لم يبن على وجهها ما يجعلني أعرف أنّ فيّ شيئاً تُلفت رؤيته غير إزالتي للحيتي. لم يُظهر ذلك الوجه البارد الناحل إلّا تلك الابتسامة الملاعبة، الباردة أيضاً. وقد رأيت، وأنا في وجعي ذاك، أنّ خروجها من البيت، ولتلك المرّة الواحدة، لا ينفكّ يكشف لي عن أشياء لم أكن أعرفها فيها.

كان عليّ أن أظلّ ممدّداً في سريري على رغم مجافاة جسمي للزوجته الخشنة التي أكاد أسمع لها صوتاً كلّما انقلبتُ، وإن محاذراً، على أحد جنبيّ، أو حرّكت طرفاً من أطرافي عن موضعه. وكان عليّ، مع ذلك، أن أظلّ ملازماً السرير، ذاك لأنّني يجب أن أظلّ مرتاحاً بحسب ما كانت تقول الممرّضة كلّما أتت لتقوم مسرعة بفحص ضغطي ودرجة حرارتي.

وكانت قد انقضت أيّام على وجودي حين قرّرت أن أخرج من

غرفتي وأمشي، جارّاً معي حمّالة المصل والأدوية. وقد انتظرت أن يأتي إليّ ممرّض رجل لأقول له أن يلبسني ليستر ما يكشفه ثوب المستشفى من جسمي. سألني إن كنت أريد أن يرافقني، ثمّ قال إنّه سيسأل طبيبي إن كنت أستطيع أن أمشي وحدي من دون أحد معي. لكنّني، في خروجي الأوّل ذاك من غرفتي، لم أستطع أن أخطو إلا خطوات قليلة شعرت بعدها أنّني أضعُفُ وأنّي بلا قوّة، فرحت، مسنداً نفسي إلى الحائط، أقول له أن يحملني إلى السرير.

"أنت أحسن اليوم"، يقول لي الطبيب كلّما مرّر سمّاعته على بطني وظهري ونظر محدّقاً إلى الأكياس التي يتجمّع فيها ما يفرزه جسمي.

لم أكن أتصوّر أنّ المريض، وهو في المستشفى، يمكن أن يأتيه ألم لا يحتمله. "نستطيع أن نيمك بالتخدير" قال الطبيب، لكن إن نمت فستنام أعضاؤك التي ننتظر أن تعود إلى عملها.

* * *

لا بدّ أنّني سهوت أو غفوت، فقد بدا لي، حين فتحت عينيّ، أنّ وقتاً قد انقضى على وجود بلال عندي في غرفتي. كان واقفاً في آخر السرير، هناك حيث تصل قدميّ، ينظر إليّ مترقّباً متى أفيق. لم يعرف إن كان عليه أن يبتسم لي، أو أن يظلّ ناظراً إليّ هكذا، محدّقاً فيّ. ولكي يُخرج نفسه من حَرَجه قال لي، مشيراً بيده إلى الخارج، إنّ أمّه هنا، وإنّه سيذهب ليأتي بها. كنت نظيفاً بين الأغطية النظيفة هي أيضاً، وقد أسرعت إلى تسويتها بقدميّ لكي أغطّيهما. وقد

تصوّرت وجهي كيف هو، مادّاً يدي إلى ذقني التي كانوا قد حلقوها حين أتوا في الصباح لغسلي وترتيب غرفتي.

كان بلال، من حيث ظهرا لي قادمين، يسابق خطواتها كأنّما ليدلّها على الطريق إلى غرفتي. لكنّه تنحّى من أمامها حين وصلا إلى الباب المفتوح. هي، التي لا تغفل عن أيّ تعبير يظهره وجهها، لم تعرف هنا، وهي تتقدّم نحوي في السرير، في أيّ هيئة يجب أن تكون.

– الحمد لله على السلامة، قالت حين أصبحت على قرب خطوة منّي.

تخيّلتُ عينيّ، وأنا أنظر إليها، متّسعتين في وجهي وغائرتين.

– لم نعرف حتى بعد ظهر أمس...

لم تبرح مسافة الخطوة التي وقفت عندها، وأنا رحت أتطلّع حولي كأنّي أدعوها إلى أن تغيّر مكانها ذاك. ثمّ أشرت إلى الكنباية في الجهة الأخرى من السرير. كانت قد غطّت رأسها بمنديل صغير ملوّن معقود طرفاه عند ذقنها.

– قل لهم أن يحضروا لك كرسيّاً، قلت لبلال الذي عاد ليقف في آخر السرير ممسكاً بيديه درابزينه المنخفض.

– لا... لا، أنا لست تعباناً، قال قبل أن يلتفت إلى التلفزيون المضاء فوقه من دون صوت.

وبعد أن انقضت لحظات من دون أن يتكلّم أحد، سألنا إن كنّا نحبّ أن يأتي لنا بالقهوة، ليدّل بذلك إلى أنّه يعرف من أين يأتي بها. ولمّا بدا على وجه أمّه أنّها تفكّر في ما سأله، التفت إليّ ليقول، وهو يشير نحوي بإصبعه: أنت الآن لا تناسبك القهوة.

قالت لي بعد خروجه إنّه لم يطق البقاء في البيت حين عرف أنّي في المستشفى، ثمّ، بعد أن كانت عادت إلى صمتها:

– لماذا لم تأتِ به معك؟

– هذه المرّة سأبقى أكثر من يومين أو ثلاثة، قلت.

كان قد حيّرها وقوفها هناك، عند مسافة الخطوة تلك، فراحت تتلفّت حولها لترى ماذا تفعل.

– هنا، قلت، ملتفتاً بوجهي إلى الكنباية.

كنت أستطيع أنا أن أقوم، لكن ما أبقاني ممدَّداً رغبتي في أن أكون في وضع المريض.

– أتعبوك؟

– هي عمليّة كبيرة كما قال الطبيب.

اقتربت أكثر من السرير، لكن ليس مسافة الخطوة التي كانت تبعدها عنه، لكي تريحني من إبقاء وجهي مائلاً متّجهاً إليها.

للحظة خطر لي ذلك الفارق بين جسمها الممتلئ القويّ وجسمي المتعب الضعيف. بل إنّني تخيّلتهما متقاربين، بل ملتصقين ليظهرا عن ذلك الفارق.

– أنا تغيّرت؟

– ضعفت، ثمّ اللحية، لم أكن أتخيّلك هكذا بلا لحية.

– سأعيدها على أيّ حال، قلت من أجل أن تجيب بشيء يتعلّق بي وبهيئتي.

– كل هذه الأيّام وأنت وحدك هنا؟

كانت قد عرفت بزيارة زوجتي لي، لا بدّ، لكنّني، لكي لا أبتعد

عن تقابلنا هكذا وجهاً لوجه، وعن انفرادنا أنا وهي من دون أحد معنا، أجبتها بأنّي كنت قد هيّأت نفسي، قبل مجيئي، لأكون هنا وحدي.

– أزعجناك إذن؟ قالت مبتسمة ورافعة يديها لترخي عقدة المنديل الملوّن المشدودة بين ذقنها وأعلى رقبتها.

كنت أنتظر أن تقترب أكثر، أن يلتصق بطنها بالسرير لتكون هي التي تقصد أن تكون قريبة هكذا، هي وليس أنا، المريض الذي، بسبب مرضه، ينتظر أن تأتي المبادرة من سواه.

– تأخّر بلال؟

ربّما هو يؤخّر نفسه عن قصد. أعرفه وأعرف عنه ذلك.

– لن يضيع... يعرف ماذا في المستشفى، قلت.

كانت قد أزالت الطلاء الأحمر عن أظافرها. ربّما لظنّها أنّه لا يحسن بها أن تتزيّن فيما تكون تزور مريضاً في المستشفى، خصوصاً أنّ المريض هو أنا الذي سأكون، كما تخيّلتني، مبقياً على لحيتي وواضعاً عمامتي على الطاولة الصغيرة بجانبي.

– كنت أنتظر أن تأتي، قلت قافزاً مسافة لأصل إلى ما بعد الكلام المتردّد الذي كنا نتبادله، ومسابقاً أيضاً مجيء بلال الذي لا أعرف متى يقرّر أن يوقف تباطؤه وتأخّره.

ما كنت أنتظره هو أن تجيب عمّا قلته بأن تمدّ يدها، القويّة لكن الناعمة، الممتلئة حين أحسّها، أن تمدّها لتضعها فوق يدي التي كنت قد أخرجتها من تحت الأغطية وألقيتها مسبَلة بجانبي، لتكون قريبة منها، في متناولها.

- لم أكن لأتأخّر في المجيء لو عرفت، لم يقل أحد إنّك في المستشفى.

بدلاً من أن أنتظر أن تقوم هي بتلك الخطوة، قلبت يدي، ورفعتها قليلاً، باسطاً إيّاها، قاطعاً بذلك نصف الطريق إلى ما أنتظر أن تستجيب له.

وقد رأيت يدها تمتدّ، متردّدة قليلاً، لكن لتصير متشوّقة راغبة حين أمسكت بيدي، متحسّسة إيّاها بأصابعها، ثمّ ضاغطة عليها فيما هي تنظر إليها، إلى يدينا معاً، كأنّها تُفهم نفسها وتُفهمني أنّها تقصد ما تفعله.

هذه المرّة فعلتْ ذلك عن قصد وهي، من بعده، لن تعود إلى ما كانت عليه من قبله. لن يكون ذلك حادثة عبرت، نصف هفوة أو نصف نزوة يمكن أن تُغفل وتُنسى من لحظة ما يزول ما انطبع على اليد من أثر الملامسة. "وصل بلال" قالت، مخاطبة إيّاه وهو يسرع لكي يضع على الطاولة فنجاني القهوة البلاستيكيين قبل أن تلسعا يديه. حتّى وهي تتصرّف أمامه كأنّ شيئاً لم يحدث، ظلّت عيناها تكشفان عمّا حصل قبل دقيقتين. صارتا رطبتين وملتمعتين، وذاهبتين في بهجتهما الخفيفة إلى غير ما يعنيه كلامها حين راحت تسأل بلال كيف يحمل الفنجانين ساخنين هكذا، ثمّ لماذا اثنان ما دام لا يجوز لي، أنا المريض، أن أشرب قهوة.

وأنا أيضاً رحت أمازح بلال بأن أقول له إنّه تأخّر لأنّ صبيّة حلوة أخّرته هناك عند ماكينة القهوة. وهي قالت شيئاً مماثلاً عن حبّه للبنات وكيف أنّه يظلّ يقف على المرآة من أجلهنّ. ذلك التواطؤ المرح الذي

أحبّه بلال دلّ على رضاها بما جرى في غيابه، وعلى أنّها كانت تنتظر ذلك وتريده.

* * *

ها إنّني أخرج وحدي من المستشفى، مزوّداً بما أبقوه معلّقاً في جسمي، مخبّئاً إيّاه تحت ثيابي. قال لي الطبيب فيما هو يشير عليّ متى أعود إليه، ويعلّمني ماذا عليّ أن أفعل في الوقت الذي يفصلني عن ذلك، إنّ وظائف في جسمي تغيّرت وإنني يجب أن أقبلها وأتعوّدها. وأنا بعد في وجعي كنت أعرف أنّني لن أعود كما كنت، وأنّ النوبات التي تأتيني وأتحمّلها لن أكافأ عليها بالشفاء. وكان يبدو لي ذلك غريباً وغير مفهوم، أنا الذي أعرف أنّ من يصبرون ينالون جزاء صبرهم. كنت أشعر كما لو أنّني في مكابدة خاسرة. "هل شفيَت تلك المرأة؟" سألت الممرّض حين رأيت تلك المريضة عابرة من أمام باب غرفتي مرتدية ثياب الخروج وبجانبها رجل يحمل أغراضها. "أقصد هل إنّها لن تعود إلى المستشفى؟".

وكنت في مرّات أنتظر أن ينتهي من ترتيب سريري حتى أسأله عن الأشياء التي أخذوها من جسمي ماذا يفعلون بها. "إنّهم يفحصونها" كان يقول. "أقصد بعد أن يفحصوها، ماذا يفعلون بها؟". لا يعرف. يروح يغمغم ليفهمني أنّه لم يتعلّم إلّا ما يفعله لي الآن، وهو أقلّ ممّا تفعله الممرّضة وتعرفه.

يجب أن أتعوّد وضعي الجديد، قال لي الطبيب مفهماً إيّاي أنّ ذلك لا يتعدّى التعديل في الوظائف. لكنّني، وأنا في خروجي

الأوّل إلى ضوء النهار، أتتني قويّة، مثل هبّة ريح مفاجئة، فكرة أنّني سأكون، وأنا بين الناس، أخبّئ عنهم سرّاً هو سرّي. وقد أخجلني ذلك، بل واحتقن منه وجهي، فيما أنا أسير خطواتي الأولى بينهم، في زحمتهم، داخلين خارجين إلى المستشفى. لكنّني، فيما رحت أداورهم لكي لا يصطدموا بي، حامياً جسمي بيديّ، تذكّرت بلال، ماشياً أمامي مفسحاً لي الطريق، وملتفتاً إليّ كلّما خطا أربع خطوات أو خمس. هو ليس هنا معي ليبعد عنّي أولئك الذين قد يصطدمون بي، وليبادر إلى أن يفعل الأشياء التي تريحني، لكنّني مع ذلك ابتسمت إذ تذكّرته، وفكّرت أنّه سيأتي إليّ ليزورني في بيتي.

* * *

كانت زوجتي تعرف أنّي سأصل، وهي استعدّت لذلك بالثياب ذاتها التي كانت ارتدتها لزيارتي في المستشفى. أعدّت الأولاد لانتظاري، بوجوه مغسولة وثياب رتّبت على عجل. بل إنّها لا بدّ كانت تطلّ من النافذة بين دقيقة وأخرى لتراني من لحظة ما أصل. جمّعت الأولاد حولها، هناك في المدخل بأعلى الدرج. وكانوا ينتظرونني بلا صوت فيما أنا أصعد الدرجات متمهّلاً. وهم ظلّوا على وقوفهم الصامت حين انعطفت لأصير في مواجهتهم، ناظرين إليّ من حيث يقفون في أعلى الدرجات. لم ينزلوا إليّ لملاقاتي، و لم ين على وجوهم الابتسام. كان الصبيّان قد أُفهما، لا بدّ، ما مررت فيه وهما كانا منتظرين أن يبدر شيء منّي، أن أضحك مثلاً، أو أن أمزح أو أن ألوّح لهم بيدي أنّي جئت، ليعرفا كيف ينبغي لهما أن يتصرّفا. وقد ابتسمتُ فيما أنا أقف

لأريح نفسي على الدرجات، ثمّ رفعت قبضتيّ أمامي مثلما يفعل الملاكمون. ابتسم الصبيّان، لكن ابتسامة حذرة، لأنّ حركتي تلك لم تُخفِ تعبي. وقد زاد من حذرهما، لا بدّ، رؤيتهما لي من غير لحيتي. وهما عادا إلى ترقّب ابتسامتي حين عاودت، من دونها، صعود الدرجات. كنت منهكاً حين وصلت، ألهث وأقطّع كلماتي تقطيعاً فيما أنا أكلّم الصغيرة هبة، أو أكلّم لعبتها، أو ما بقي من لعبتها، قائلاً لها إنّها ما زالت صغيرة لم تكبر. وأنا أرسلت يديّ لتكونا بعيدتين عن جسمي فيما أنا أنقّلهما على وجهيْ الصبيّين ورأسيهما. ثمّ قمت بتلك الحركة التي تعني أنّني أسألهما عن اللعب كيف هو.

ولم أقاوم الدوخة التي أتتني وأنا واقف بينهم منتظراً أن يسبقوني إلى الدخول. قلت لأمّهم إنّني دخت وإنّني يجب أن أجلس فأبعدتْهم مفسحة لي الطريق إلى غرفتي. "هنا... هنا" قالت لي مشيرة إلى الكنباية القريبة من الباب. ثمّ قالت لي، بعد أن هويت بجسمي على الكنباية، أن أُخفض رأسي وأسنده على حافّتها. كنت مائلاً برأسي ومغلقاً عينيّ حين أحسست بيدها تمسح جبيني من أجل أن تحرّك الدم فيه. لم تكن الإغماءة قويّة. دقائق قليلة فتحت بعدها عينيّ لأراها ما زالت واقفة أمامي. "أحسن؟" سألتْ، فأجبت موافقاً بإيماءة من رأسي. ثمّ سألتها أين هم الأولاد.

– سأعمل لك شيئاً يقوّيك، قالت فيما هي تستدير ملقية عليّ النظرة التي تعني أن أظلّ كما أنا صاحٍ ولا أدوخ.

ولم تتأخّر هناك في المطبخ. عادتْ مسرعة وهي تحرّك الملعقة في كأس الليموناضة التي قرّبتها إليّ لترى إن كنت أستطيع أن أمسكها

بيدي. وأنا رفعت رأسي عن الكنباية، واعتدلت في جلوسي. "السكّر الكثير لتفيق" قالت لي بعد أن احتسيت رشفة من الكأس. ولما تلفّتّ حولي مستعدّاً للرشفة الثانية، وقعت عيناي على كتب أبي، موضوعة مثلما كانت، على الأرض.

– أبقيتها مثلما هي... قلت ترتّبها أنت حين تأتي... على كلّ حال لم يدخل أحد إلى هنا

– كيف هو أبي؟

– الآن تراه، بعد أن ترتاح.

– جرى له شيء؟

– لا...لا، الآن تراه.

أعدت لها الكأس لأهمّ بالوقوف. كانت تريدني أن أبقى مرتاحاً، وأن أكمل ما في الكأس، غير أنّي فكّرت في أنّه لا ينبغي لي أن أؤخّر رؤيتي لأبي ما دام يعرف أنّي جئت.

كانوا قد نقلوا سريره إلى مكان الكنباية التي كان يجلس عليها. "صارت عظامه تتعبه" قالت زوجتي فيما هي تفترق عني حاملة كأس الليموناضة إلى المطبخ. فكّرت وأنا أنظر إلى السرير الذي جعلوه ملاصقاً للباب أنّهم سدّوا الطريق على كلّ من يدخل منهم إلى الغرفة. لم يبذلوا ذلك الجهد الإضافيّ القليل ليضعوه في وسطها، هناك حيث ينبغي له أن يكون.

– نائم يا أبي؟

كان الجلد الذي يحيط بعينيه المغلقتين قد رقّ واحمرّت أطرافه عند الجفون.

– نائم يا أبي؟

فتحهما فجأة. كما لو أنّه سمعني من المرّة الأولى وانتظر ليتأكّد أنّ الصوت أتاه حقيقة، من الخارج وليس ممّا يهوّم في داخل رأسه.

– حرارتك مرتفعة؟ قلت وأنا أضع يدي متحسّساً جبينه.

ما لبث أن أعاد عينيه متّسعتين متفاجئتين بعد أن رفعت عنه يدي. لم أعرف إن كان نحولي هو ما أدهشه، أو حلقي للحيتي وتغيّر هيئتي عمّا كانت. من أجل أن أطمئنه، قلت له إنّني ضعيف هكذا بسبب العمليّة التي منعوا عنّي الأكل من بعدها.

بذل جهداً أتعبه ليخرج يده من تحت اللحاف، وليرفعها قليلاً بعد ذلك، ثم ليديرها مثلما يفعل حين يسأل عن شيء.

وأنا رحت أجيبه بما أفترض أنّه يهمّه ويحبّ أن يعرفه. "العمليّة؟" أقول مستفهماً إن كان هذا سؤاله، فيصغي ليسمع منّي أشياء عنها. لكنّه، حين أنهي إجابتي، القليلة على أيّ حال، يعود إلى أن يدير يده. "خمسة عشر يوماً..."، أقول مفترضاً أنّه يريد أن يعرف كم بقيت هناك في المستشفى. ثمّ أقول له، لكي أضيّعه عن سؤاله، إنّني سأبدأ بقراءة الكتب، ليس الآن، لكن بعد أن أرتاح.

كان يريد أن يعرف إن كانت العمليّة قد خلّصتني من مرضي، وأن أقول له كيف أنا من بعدها، لا بكلام الطمأنة السريع، بل بالكلام الصحيح الذي أحتاج معه إلى أن أكشف له عن الجرح الطويل النازل من أعلى بطني إلى أسفلها.

– العمليّة أتعبتني... لكنّها أزالت مرضي، قلت له مملّساً يدي على مكان الجرح، كأنّي هكذا أشكر الله على شفائي.

بعينيه المتسائلتين الزائغتين، وبيده التي أبقاها مرفوعة مستندة إلى مرفقها، كان يلحّ باستفهاماته، ليس فقط لكي يعرف عن مرضي وشفائي، بل لكي يدفعني، متحدّياً، إلى أن أكلّمه كما لو أنّ سهوه لم يؤثّر في شيء على وعيه.

وقد استجبت لرغبته تلك: واصفاً له كيف أفقت من العمليّة لأجد تلك الأنابيب خارجة من هنا، حيث فمي، ومن هنا، حيث أنفي، ومن بطني أيضاً، وأنّهم أبقوني بلا طعام ولا ماء لكي يعتاد جسمي ما غيّروه فيه، وإن ما بقي عليّ أن أفعله هو مراجعة الطبيب كلّ مدّة ليتأكدّ من أنّ كلّ شيء يسير...

لكن كأنّني لم أقل كلّ ذلك إلّا لأنيمه.

* * *

تلك الغفوة التي كنت محتاجاً إليها قطّعها مشيها المتكرّر إلى الباب لترى إن كنت قد أفقت. ومن لحظة ما رفعت رأسي تقدّمتْ إلى الطاولة الصغيرة أمامي لتأخذ عنها صينيّة الأكل. قالت لي فيما هي تنظر إلى ما في الصحنين إنّني لم آكل شيئاً، وهي همّت بأن تعيد الصينيّة إلى مكانها قبل أن أقول لها إنّي أكلت وشبعت. ثم مسرعة عادت من المطبخ، لتجلس هذه المرّة على طرف الكنباية الأقرب إليّ. لكنّها لم تتأخّر في أن تسألني كيف وجدت الأولاد. ثمّ، وقبل أن أنظر إليها مستفهماً، قالت لي إنها عرفت أين هي المدرسة التي يتعلّم فيها الصمّ والبكم، هكذا مستعيرة الكلمتين من اسم المدرسة ذاته.

– في بيروت؟

– معلّمة المدرسة دلّت السائق على مكانها، وهو أخذني إليها يوم نزلت لأزورك في المستشفى.

– لم يكن الولدان معك؟

– كنت وحدي، لكنّهم في المدرسة سألوني أشياء كثيرة عنهما.

كانت تعرف أنّني سأتأخّر عن مجاراة سرعتها في الكلام، وهي لذلك كانت قد استعدّت لتملأ سكوتي بحكيها عمّا شاهدته هناك:

– في المدرسة أكثر من مئتي ولد، صبيان وبنات، وهم يحكون، بعضهم مع بعض، بالإشارة وبالتمتمة...

– ... حكيتِ مع الولدين.

– يمكن أنّهما فهما... لكنّي انتظرت أن تكون أنت هنا لأعرف منك...

خطر لي للحظة أنّها تبدو كما لو أنّها تسرع في الخلاص من وجودهما هنا في البيت. ذاك أنّها بدت، فيما هي تتكلّم أو تستعدّ لتصغي إلى ما سأقول، مظهرة عن حماسة لا أعرفها فيها.

– ... ومتى يذهبان؟

– في المدرسة قالوا لي أوّلاً إنّ عليهما أن ينتظرا حتى ابتداء السنة الجديدة، سنة المدارس أقصد، ثمّ قالوا عند نهاية هذا الفصل في نيسان. أنت ما رأيك؟ هم قبلوا معي في آخر المقابلة أن يستقبلوهما حين نصير مستعدّين. هكذا قالوا.

تستعجل ذهابهما من أجل أن تبدأ بما تبدأ به النساء حين يشعرن بأنّ عليهنّ أن يستعجلن بتغيير حياتهنّ. ربّما أعجبها عيش معلّمة

المدرسة التي لا تكفّ عن نصحها بتعليم الولدين.

– أين هما الآن؟

قامت من فورها. عرفتْ أنّني أريدهما لأفهمهما ذلك.

كانا مع أختهما في أسفل الدرج، في تلك المساحة الضيّقة خلف بوابة الحديد التي تركاها نصف مغلقة مكتفيين بالضوء الخفيف المتسرّب من شقّها. رفعت أختهما هبة عينيها حين سمعت أمّها تنادي وتصفّق بيديها. ثمّ أعلى ابني أحمد عينيه ليرانا. "اصعدوا... اصعدوا" قالت فيما هي تومئ لهم بيدها، في الوقت نفسه، لكي يصعدوا.

مثلها أنا، أريدهما أن يذهبا. أفكّر في أنّهما إن تعلّما شيئاً سيريحانني من شعوري بالشفقة عليهما. ثمّ إنّهما، وهما هناك، سيكونان بين أولاد مثلهما، جميعهم مثلهما، وهم سيكونون لهما رفقاء يلاعبونهما ولا يديرون لهما ظهورهم أو يدفعونهما بأيديهم أو يرشقونهما بالحجارة ليتأكّدوا أنّهما صارا بعيدين بما يكفي.

– أنتما الاثنين، قلت بلساني وفمي فيما أنا أصوّب إصبعين إليهما، يجب أن تذهبا إلى المدرسة، قلت دالاً على ذلك بفتح راحتيّ ولصقهما معاً كأنّهما صفحتا كتاب أقرأ كلماته بعينيّ. وهي مدرسة بعيدة، البعد الذي جعلت تذهب إليه يدي، مرّة بعد مرّة، ليفهما أنّهما سيكونان وحدهما هناك. وإذ خطر لي أنّهما قد يفهمان إن حرّكت شفتيّ متمهّلاً، كأنّني بذلك أختبرهما إن كانا سيعرفان كيف يتعلّمان هناك، قلت، ماطّاً شفتي، "بيرووت"، ثمّ أعدت ذلك مرّة أخرى، لأراهما من بعدها يحاولان إخفاء الضحكتين اللتين بدأتا ترتسمان على شفاههما.

ولم ألبث أن انتبهت إلى أنّني، بإضافتي تلك، أفعل ما يفعل الثرثارون حين يزيدون على الكلام ما لا يفيد. كانا يعرفان إلى أين هما سيذهبان، وماذا سيفعلان هناك. ولكي يؤكّد أحمد أنّهما عارفان بما أوقفتُهما لسماعه، ألقى ذراعه على كتف أخيه وجذبه إليه ليبدوا كأنّهما ذاهبان معاً. ثمّ، بعد أن أدّيا ذلك، تحوّلت يدا أحمد إلى أن تشيرا، بأصابعهما المضمومة، إلى جسمه ثمّ إلى جسم أخيه، لينقل إليّ استحسانه بما سيصيران إليه.

* * *

ربّما لأنّني، في صغري، لم أعرف أخرس سواه. أو ربّما لأنّني، بسبب موته شاباً لم يبلغ الثلاثين، أستطيع أن أجمع حياته كلّها بين حدّي طفولته وموته. من دون الأولاد الآخرين، اقتربت من حيث كان يقف وحده، وهززت له رأسي مسلّماً. ابتسم لي، وإن ابتسامة مرتابة لظنّه ربما أنّي أقوم بواحد من المقالب التي يكيده بها الأولاد. وقد ظلّ على وقوفه ذاته، واضعاً يديه في جيبيه ليدفئهما، وذاهباً في نظره إلى شيء بعيد يتبيّنه عند طرف الجبل. ثمّ، لكي لا أظلّ واقفاً بقربه وهو مشغول في ما ينظر إليه، لمست كتفه بيدي ليلتفت إليّ، ومثّلت بجسمي تلك الارتجافة التي تعني البرد. ابتسم مرّة أخرى، وكان خدّاه جافّين، بل ومقشّرين من البرد المصقع. تحبّ أن نمشي؟ سألته بأن جعلت إصبعيّ يتحرّكان بما يشبه حركة المشي. أومأ براسه موافقاً، لكن بعد أن أطال النظر في وجهي.

في تلك المرّة الأولى كان لا بدّ لي، فيما نحن نسير الخطوات

الأولى، صامتين، أن أحسّ بثقل ما أوقعت نفسي فيه. لم يبدُ عليه أنّه سيفعل شيئاً غير المشي. وأنا لم أهتدِ إلى ما هو أكثر من ارتجافتي تلك. حتّى إنّني، بعد عشرين خطوة أو ثلاثين، بدأت أفكّر متى ينبغي أن أقف وأدير يدي بتلك الحركة التي تعني سؤالي له: نرجع؟

وهو، في رجوعنا، ظلّ مدفئاً يديه في جيبيه ومستغرقاً في ما يدور في رأسه. وأنا، مثله، رحت أفكّر كيف أنّه لا يستطيع، بسبب خرسه، أن يعرف الأولاد بأسمائهم مثلما يعرفون هم اسمه، وأنّه لا يعرف واحدهم إلا من هيئته حين يراه. وقد خطر لي، فيما نحن نصل إلى المكان الذي بدأنا منه مشينا، أن أختبر إن كان يحسّ بشيء إن تكلّم أحد بقربه، لا بالسمع، لكن بشيء آخر يصله من جسمه ربما: جودت، رحت أقول له من دون أن أحرّك شفتيّ أو يبين عليّ أنّي أتكلّم. ثمّ رحت أعيدها بصوت أعلى، فأعلى: جودت... جودت... جودت، ولا يتغيّر شيء في سحنته التي تبديه متألّماً من تفكّره في تلك الأشياء التي تدور في رأسه.

ربّما لأنّني، في صغري، لم أعرف أخرس سواه، أجدني ملصقاً هيئته بهيئة ابني أحمد. أرى ذلك حتى في الأشياء التي لا يتشابهان بها، كمثل أن يخطر لي أحمد مقوّساً رقبته بسبب انكسافه، هذا فيما لم يسبق لي أن شاهدته على هذه الصورة. أو أتخيّل عينيه، المبتسمتين حين يبدو مسروراً بتشاطره، تنقلبان في لحظة إلى ما كانت عليه عينا جودت.

* * *

"أين أحمد؟"، ثمّ "أين أيمن؟" رحت أسألها في تلك الأيام التي

قضيتها في البيت. حتى حين كان الناس يأتون لزيارتي كنت أقوم إلى حيث تكون هي في المطبخ أو في الغرف لأسألها أين هو أحمد، أين هما الولدان. أو أقول لها إنّها يجب أن تشتري لهما ثياباً قبل أن يذهبا. كان يحزنني أن يكونا هناك، بين الأولاد في تلك المدرسة، مثلما هما هنا. "خذي مصاري واشتري لهما ثياباً جديدة" أقول لها، قبل أن أرجع إلى من تركتهم في غرفة الاستقبال عندي.

– من سيأخذهم إلى هناك، أنا أو أنتِ؟

– تحبّ أن تأخذهم أنت؟ أو آخذهم أنا مع السائق؟

ما دامت هي التي تكلّمت مع المدرسة، فلتأخذهم هي، مع السائق ومع المعلّمة التي تعرفها.

– لكنّنا سنراهما هنا في الفرص؟

– في الفرص، وإن شئنا في نهاية الأسبوع... إن شئنا، أضافت فيما هي تنظر إليّ متبيّنة ما قد أقول.

وعلى الرغم من شفقتي عليهما كنت مستعجلاً ذهابهما. في أحيان أرى أن ذلك يشبه رغبتنا في أن نُسرع إلى إنجاز أمر لا بدّ من حدوثه، أو يشبه أن تنفتح قناة كانت الماء عالقة فيها.

أيقظتهما من نومهما حتّى قبل أن يبين ضوء الفجر. وهي بدت مستعجلة رغم ذلك كأنها تأخّرت عن ذلك لأنّ النوم غلبها. راحت تشدّهما شدّاً من أرجلهما وأيديهما لكي يسرعا إلى القيام من النوم. وهي ساقتهما بعد ذلك إلى الحمّام ووقفت لهما عند بابه. وحين خرجا منه مرتجفين من البرد أمسكت أيديهما وراحت تجرّهما إلى ثيابهما الجديدة التي كانت قد وضعتها مرتّبة كمثل ما ستكون موضوعة

على جسميهما: القمصان في الأعلى، تحت الكنزات السميكة، والبنطلونان أسفلهما، عندما يفترض أن يكون خصراهما. وكذلك الحذاءان مع جواربهما، هناك على الأرض حيث سيُدخلانهما في أقدامهما.

– ستذهب معكِ المعلّمة؟

– انشغلت. لن تكون معي، لكن السائق سيأتي في السادسة.

لا تزال مستمرّة في أن تخالف ما اعتدتُ أن أعرفه منها. بل إنّها، في ما هي تعمل بيديها الاثنتين، منجزة بذلك ما تمتدّ إليه يداها، غرضاً بعد غرض، راحت تبدو لي كأنّها امرأة أخرى. حتّى وجهها النحيل الذي كأنّه مشدود من جلدة واحدة بدا كما لو أنّ لوناً خفيفاً بدأ يميّز ملامحه بعضها عن بعض.

فيما هي تنظر إليهما نظرة ما قبل الخروج، لتبدأ بعدها سوقهما إلى الباب، أوقفتُهما وأشرتُ لهما إلى باب الغرفة الذي أغلقناه على أبي. تقدّما نحوها، وحين نظر إليه أحمد نائماً مديراً وجهه إلى الجهة الأخرى، التفت إليّ كأنّما ليعرف إن كان عليه أن يوقظه. وإذ أومأت له بأن يفعل، انقلب، يتبعه أخوه، إلى الجهة الأخرى من السرير ليصيرا مواجهين له. وبدلاً من أن يهمهم مطلقاً أصواته، أو أن يهزّه قليلاً من كتفه، راح ينقّل نظره بينه وبيني، مرّة بعد مرّة، من أجل أن أفهمه أنّ جدّه نائم وأن يتركه نائماً. وقد ساعدته أمّه على ألا يطيل وقوفه منتظراً. "عجّل... عجّل..." أخذت تقول له بصوت هامس تعرف أنّه لن يسمعه.

تحت عباءة الخروج السوداء كانت ترتدي، هي أيضاً، ثياباً جديدة.

كما أنّها علقت بذراعها جزداناً أسود لامعاً. قالت لي فيما هي تسوق الولدين ليخرجا من البوّابة أن لا أتعب نفسي بالنزول إلى الأسفل. ثمّ أدارت الولدين نحوي ليسلّما عليّ. كانا مضطربين، بطيئي الحركة ينتظران أن يُشار لهما بما عليهما أن يفعلاه. شددت قبضتي في وجه أحمد، داعياً إيّاه إلى أن يكون قويّاً هكذا. ثم ابتسمتُ لأيمن وملّست على رأسه بيدي.

على الدرجات التي راحا ينزلانها، تسبقهما أمّهما، لم يرفعا أعينهما لينظرا إليّ. وأنا، منذ أن صارا قريبين من آخرها، حيث بوّابة الحديد، أسرعت لكي أراهما، من شبّاك غرفة الزوّار، يركبان السيّارة التي تنتظرهما.

* * *

كأن لم يعد هناك من فاصل بين نومه واستفاقته. إن لم يوقظه أحد، بأن يهزّه من كتفه أو أن يكلّمه مقرّباً فمه من أذنه، سيظلّ غائباً مغطّى باللحاف حتّى لحيته. وحين أراه باقياً على نومته، مبقياً نفسه ساعات في رقدته ذاتها لا يغيّرها، أتذكّر وصف أمي لموت الناس الذين، بحسبها، يصيرون مثلما تكون الشمعة قبل أن تذوب وتنطفئ.

كانت تمثّل على ذلك بمدّها إبهامها وسبابتها متوازيين، ثمّ تروح تقرّبهما مبطئة إلى أن تصل بهما إلى أن يلتصقا، هكذا بانطباقة سريعة لتدلّ على أنّ الشمعة انطفأت ومات الرجل الذي كان موشكاً على الموت. لم يبقَ لأبي إلّا حركة الإصبعين الأخيرة، تلك التي تباغت

حين تحدث، حتّى وإن بدا أنّه يسير على مهله إلى موته. حتّى وإن كنت أنا مواكباً لانطفائه كأن أصير أقول إنّه قد لا يشعر بي إن دخلت إليه ووضعت يدي على جبينه متحسّساً حرارة جسمه. كما أنّني أؤجّل ما يجب أن أفعله له الآن، كأن أطعمه مثلاً، ما دام، في إغماضه عينيه على الدوام، لا يعرف في أيّ وقت هو.

قلت أؤجّل إطعامه إلى أن تفيق ابنتي هبة، رغم أنّني أعرف أن لا صلة بين الأمرين. في غرفة الزوّار كانت الكتب لا تزال مكوّمة حيث وضعها الرجلان، وكانت خزانتها مفتوحة أيضاً مشرعة الدرفتين. وقد خطر لي أن أتسلّى بأن أعيد الكتب إلى رفوفها، لكن ما لبثت همّتي أن تراجعت، واكتفيت بأن جلست على الكنباية القريبة من كومتها لتصير الكتب هكذا في متناول يدي.

كنت قد نسيت أيّ الكتب سبق لي أن تصفّحتها قبل دخولي إلى المستشفى. ذاك أنّي كنت أقرأ مقلّباً الصفحات، باحثاً عن كلمات دوّنها أبي على هوامشها. وها إنني الآن أفعل الشيء نفسه، موالياً الأوراق ستفة بعد ستفة، وباحثاً عن خطّه ذاك، المتطاولة فيه حروف الألف واللام وعصا الطاء وذيل الميم. ربّما أراد من ذلك أن يكون خطّ يده شبيها بخُطبه، عالياً مرتفع النبرة مثلها، مفترضاً بذلك أنّ من يقرأونها سيكونون متهيّبين إزاءها، مثلهم مثل من ينصتون لسماعه في الحسينيّات.

كان ينبغي لي أن أعلم إن كان قد كتب شيئاً. لو كان كتب لكان الناس عرفوا عنه ذلك أو ربما كانوا حفظوه. فتوى جدّي السيّد مرتضى عن استرداد الزوج لزوجته بعد طلاقه لها ما زالت سائرة

على ألسنة الناس، ومثلها قصيدته عن الإمام علي، تلك التي ردّ فيها على الشيخ الأزهري الذي أنكر على الإمام عليّ حقّه بأن يكون الخليفة الأوّل. بل إنّ الناس الذين في القرى، حتّى أولئك الذين لا يقرأون ولا يكتبون، سمعتهم يردّدون أبياتاً منها:

عرّج على النجف الشريف مبلّغاً عنّي التحيّة للإمام الأطهر

المشتري بالجهد كلّ كريمة والمرتقي بعلاه فوق المشتري

فأنا ابن سيّدة العذارى فاطم وأنا سليل أبي تراب حيدر

لم يكتب أبي شيئاً و لم يُذَعْ من أقواله شيء. فقط تلك الحكايات التي يروونها متحدّثين بها عن اندفاعه بعصاه على رجال الدرك، هامّاً بضربهم، وهم لا يعرفون إن كان عليهم أن يردّوا عليه، هم أيضاً، بعصيّهم؛ أو نزوله راكضاً عن المنبر، ليصفع الضابط الجالس في الصّف الأوّل والمرتدي بدلته العسكريّة بنجومها ونياشينها. "أخرجوه... أخرجوه من هنا" راح يقول للناس الذين حمّستهم شجاعته فجعلوا يتجمّعون ليبدأوا العراك مع العساكر الذين في الخارج، منتظرين خروج ضابطهم.

لم تكن فيه تلك الاستكانة التي تجعله يقعد مثلما يفعل الكاتبون حين يمسكون القلم في يدهم ويبدأون التفكّر في ما سيكتبونه. لم يكن مثل العلماء حكيماً هادئاً مكلّماً من يأتون إليه لاستشارته. كنت أرى أنّ غضبه يفوق سبب غضبه. حتّى في تصدّيه لرجال القرى، أولئك الذين يراهم جالسين حول الطاولات يلعبون الورق، يبدو كأنّه يلعن رجالاً سمعهم يكذّبون دينه. في أحيان كنت أفكّر أنّه ورث الغضب الذي فيه من ظلم لحق بأهل عاشوا قبله بمئات السنين،

أو من معارك خرجوا منها منكسرين مطأطئي الرؤوس. أو أنّه ما زال يشعر بالدم الذي سال من أهل البيت، حارّاً متدفّقاً لم تجفّفه السنوات، بل القرون، التي توالت على واقعتهم. كما أنّه، لا بدّ، اختار أن يقرأ من كتبه هذه ما يحرّض على الغضب، وليس ما يدفع الناس إلى الندم والبكاء على ما حلّ بآل البيت مثلما كانوا يفعلون حين سماعهم السيّد أمين يقرأ سيرة مصرعهم في أيّام عاشوراء.

لم يكن مثل أبيه في ذلك، ولا مثل جدّه ولا مثل جدوده الأسبقين. من الكتب التي قرأها كان يلاحق ما يوافق ثورته وغضبه. وأنا، حين كنت أسمعه يخطب أو يتكلّم، كنت أنتظر أن يستشهد بالأقوال المحرّضة وحدها، تلك التي قالها أو كتبها الذين كانوا مثله. "أتى القطار حامل النار" كان يقول، مستشهداً بأبي ذرّ حين يحكي عن الأموال التي ينهبها الحاكمون، أولئك الذين كان بعضهم جالساً هناك في الصفّ الأوّل، ولا يستطيع أن يقوم لئلّا يقول له أبي، من وراء منبره ذاك: "إلى أين... إلى أين أنت هارب؟".

سأحتاج إلى وقت كثير لكي أجد ما كان يبحث عنه في الكتب. أسهل لي أن أكتفي من ذلك بما عرفته منه. كما أنّني، إن أردت أن أرصف الكتب على رفوف الخزانة بما يتلاءم مع جدّتها أو قدمها، أو بين أبوابها واختصاصها، سأحتاج إلى وقت يطول عليها مكوّمة هكذا، بقرب خزانتها، على الأرض. الآن يجب أن أطلّ عليه، يجب ألا أتأخرّ عن إطعامه حتّى وإن كان جوعه لن يوقظه من نومه.

لكنّني، مع ذلك، تباطأت في القيام. أراحني أن أظلّ جالساً على تلك الكنباية لا أفعل شيئاً. بل إنّني كنت قد بدأت أغفو وأنا جالس

حين انتبهت إلى ابنتي هبة واقفة أمامي وهي تعرك عينيها، بيديها الصغيرتين، من أثر النوم. كانت كما لو أنّها مستوحشة ومستغربة لخلاء البيت من أمّها وأخويها. وأنا قلت لها، بعد أن حضنتها ممسكاً يديها بيديّ، إنّني أنا سأغسل وجهها وأطعمها اليوم. ثمّ رحت أسألها ماذا تحبّ أن تأكل، مرّة بعد مرّة، معدّداً الأكلات التي يسهل إعدادها، والتي قدّرت أنّها تعرف أسماءها، وذلك في انتظار أن يزول عنها أثر النوم وأسمعها تقول كلمتها الأولى لذلك النهار.

* * *

كنت، على أيّ حال، سأمضي أيّاماً قاعداً في البيت بانتظار استعادتي لقوّة جسمي. لكنّني، إذ وجدت نفسي مضطرّاً إلى البقاء فيه ذلك النهار، أحسست كما لو أنّني قد سُجنت، بل وكدت أستجيب مرّات لرغبة راودتني بالخروج. لا أكثر من أن أنزل إلى الساحة الواسعة في الأسفل، وأمشي خطوات فيها، ذاهباً آيباً، على ألا أبتعد إلى الحدّ الذي لا أعود معه أسمع صوتاً قد يطلع من بيتي. كان نهاراً طويلاً لم أفعل شيئاً فيه إلا الاهتمام القليل بابنتي هبة، وإطعام أبي مرّتين غلبه النوم في ثانيتهما فأبقيت الصحن والملعقة هناك على طاولة صغيرة قرب السرير. الوقت الباقي قضيته جالساً على الكنباية القريبة من كومة الكتب، متهيّئاً لأن أمدّ يدي إلى ما قد تطاله منها. لكن، على الدوام، ظلّ يؤخّرني عن ذلك كسلي عن القراءة.

ومنذ أن حان الوقت الذي قدّرته لعودة زوجتي، بدأ جلوسي يصير ثقيلاً ومُغضباً لي. بين الحين والحين كنت أقوم إلى النافذة لأرى

إن كانت السيّارة تلك، التي أطلعت هديرها، هي السيّارة التي ستنزلها عند بوّابة البيت. لم يسبق لي أن كنت، وأنا في بيتنا هذا، منتظراً عودة زوجتي من خروجها. بل وراح يخطر لي، لكن من دون أن يحنقني ذلك أو يحملني على أن أصدّق ما أفكّر فيه، أنّني، في هذا اليوم، تبادلت معها الدور الذي اعتاده كلّ منّا. وإذ أرى أنّها ليست السيّارة التي ستنزل منها تلك التي قمت لها إلى النافذة، صار يزداد فيّ شعور المبادلة ذاك، وتقترب هي أكثر من هيئتها الجديدة، تلك التي تبدو لي فيها مختلفة عمّا هي.

بقيتُ جالساً في مكاني، على الكنباية القريبة من كومة الكتب، حين سمعت خطواتها تصعد الدرجات. قبل ذلك سمعت انطباق بوابة الحديد وحكيها مع هبة التي كانت جالسة هناك، وراء البوّابة. وحين وصلتْ في صعودها إلى أوّل البيت، ألقت نظرة إلى غرفة الاستقبال، لتراني ملتفتاً إليها أنا أيضاً. وذلك ما لم يرقني. لم أحبّ أن أبدو هكذا في وضع المنتظر الذي لا بدّ نمّت عنه نظرة عينيّ. قالت لي، فيما هي تحرّك بيدها الهواء لتبرّد وجهها، إنّ الحرارة صارت شديدة في الخارج وإنّ اثنتين من نوافذ السيّارة معطّلتان. ثم استدارت نحو الممشى، لكنها، قبل أن تخطو خطوتها الأولى إليه سألتني إن كنت أطعمت هبة. اكتفيت بأن أومأت برأسي، إيماءة خفيفة. لم يعجبني أن تسألني إن كنت أطعمت هبة وأن أجيب بأنّي أطعمتها. وقد أوقفتْها إجابتي تلك عن أن تسألني بعد ذلك عن أبي ماذا فعلت له.

وقد تأخّر بقاؤها هناك، في الغرفة حيث ذهبت لتغيّر ثيابها. فأنا، المنتظر رجوعها إلى حيث أجلس، فكّرت أنّها تؤخّر نفسها عن

قصد، معاقبة إيّاي هكذا على اللامبالاة التي أظهرتْها إيماءتي القليلة غير المكترثة. بل إنّها، بعد أن غادرت الغرفة، توجّهت إلى المطبخ الذي بدأت تُطلع منه أصوات أوانيه وصحونه، مطيلة بهذا وقت انتظاري ومنتظرة ربّما أن ينفد صبري فأقوم إليها وأقف مسنداً يديّ إلى طرفي الباب وأسألها، فيما هي مشغولة بما في المجلى: كيف كان الولدان، كيف تركتهما.

لكنّي لم أفعل. بقيت حيث أنا، خمس دقائق أو أكثر قليلاً، قمت من بعدها إلى عباءتي وعمامتي لأرتديهما، ثمّ مشيت إلى الدرج محرّكاً قبل خروجي درفة الباب ليطلع صريرها. وهناك، عند المدخل الضيّق المعتم، لم أقف أكثر من ثوان قليلة لأكلّم هبة. كانت قد وزّعت علباً صغيرة فارغة ومزقاً من قماش جاعلة منها بيتاً للعبتها. سألتها إن كانت تحبّ أن تخرج معي. ولما بدا أنّ تحديقها إلي سيطول، فتحتُ بوابة الحديد وخرجت. لكن ليس لأبعدَ من تلك المسافة القليلة التي كنت أتخيّل تمشّيَ عليها وأنا هناك في الغرفة أضيق بانحباسي.

ليس إلا مسافة قصيرة، عشرين خطوة مثلاً، أمشيها ذاهباً آيباً لأصرّف الوقت وأقطّعه.

– السلام عليكم يا مولانا.

قال أبو عاطف،أحد الرجلين الجارين اللذين يحبّان أن يسلياني. كان هو ورفيقه قد جاءا لزيارتي في البيت بعد عودتي من المستشفى.

– الحمد لله، أنت أحسن بكثير يا مولانا. وجهك أحسن، واللحية أيضاً، قال وهو ينظر إليها مبتسماً بعد أن لاحظ أنّ شعراتها النابتة ازدادت طولاً.

- ذاهب إلى الجامع؟ سألني.

ذكّرني ذلك بأنّه ربّما بات ينبغي عليّ أن أُنهي استراحتي في البيت، وأن أذهب إلى الجامع الذي لم أدخل إليه منذ ما قبل العمليّة.

- هيّا نترافق، قلت له، مستحسناً الذهاب معه. رأيت أنّ ذلك سيضاعف الوقت الذي أسعى إلى تصريفه، وأيضاً من دون أن أحسّ به أو أستعجل انقضاءه.

الفصل الرابع

أشياء كثيرة تغيّرت في جسمي. كان عليّ أن أعرفها، أو أتعرّف إليها، واحدة بعد واحدة، في الأيّام التي أعقبت خروجي من المستشفى. كان الطبيب قد قال لي إنّ عليّ أن أعتاد ما تغيّر فيّ لكي تصير لي ذاكرة جديدة عن جسمي. "مثلاً، عليك أن تجد طريقة أخرى لتفعل ذلك مع زوجتك" قال لي فيما هو ينظر في وجهي، متبيّناً كيف سيقع كلامه عليّ. وأنا كنت أنتظر أن يكمل، أن يفسّر لي شيئاً أو أن يدلّني إلى ما يعرفه، لا بدّ، أكثر ممّا أعرفه. "ستعرف ذلك بنفسك" أجاب قبل أن ينشغل بأخذ قلمه من جيبه لكي يكتب شيئاً في الورقة التي سيؤذَن لي، بعد أن يأخذها الممرّضون، بأن أخرج إلى بيتي.

كنت قد ضجرت من قعودي في البيت، كما من تردّدي إلى الجامع الذي رحت أقضي فيه المدّة من صلاة العصر حتّى انتهائي من صلاة العشاء. كان الذين يقصدون الجامع قليلين، أربعة رجال أو خمسة كانوا يأتون للصلاة ولا يمكثون طويلاً من بعدها. بعد رحيلهم كان يأتي أبو عاطف ورفيقه ليسلّياني، أو ليعيناني على تصريف الوقت الطويل الذي لا يعرفان، هما أيضاً، أين يقضيانه. كان يعجبهما كيف أنّني أصغي إلى ما يحكيانه عن أخبار الضيعة، كما يعجبهما أيضاً أن يقولا أمامي ما لا يُقال عادة أمام رجال الدين. "الحاج خليل جاء إلى امرأته بصندوقة راحة الحلقوم لكي تقبل به في الفراش" يقول أحدهما ليكمل الآخر من بعده، بأن

صندوقة الراحة "ذهبت بلا فائدة لأنّ عضو الحاج خليل ازداد صغراً عمّا كانه". وأنا أضحك لما يقولانه، لكن ضحكاً متردّداً إذ أعرف أنّني ينبغي لي أن لا أتركهما على سجيّتهما. بل إنّني، في وقت ما يقومان هامّين بالخروج، أقول لهما أن يبقيا لصلاة العشاء، هكذا مذكّراً إيّاهما، مرّة أخرى، بأنّ عليهما ألّا يصدّقا أنّني قد أذهب في مجاراتي لهما إلى حدّ أبعد.

أضجرني البيت كما أضجرني الجامع أيضاً. في أحيان يخطر لي أن أسير بعد خروجي منه، ماشياً على رجليّ، هكذا مثلما يفعل من يرغبون في التنزّه. لكنّني لا أجد نفسي إلا متّجهاً نحو بوابة البيت. ذاك لأنّي أعرف أنّ من كان مثلي لا يحسن له أن يمشي هكذا من أجل المشي وحده. ينبغي ألا أُشاهَد على الطريق، على حافة الطريق، ماشياً بمفردي، تاركاً طرفيْ عباءتي ينفتحان وينغلقان. لكي يراني أحد ماشياً بمفردي يجب أن أكون قاصداً بيتاً أو مكاناً، كما أنّني لا أُحبّ أن أسير سير المنهمك لأبدو أنّني ذاهب لتلبية حاجة لأحد. إن فعلت هذا فلن يعود المشي مؤنساً. أعود إلى البيت إذن حيث، هناك على الكنباية، أروح أفكّر في ما كنت سأفكّر فيه وأنا أمشي على الطريق.

أتذكّر بيتها، مدخل بيتها، فيما أنا أخلع عمامتي ناظراً أين أضعها. أو أتذكّر خروجها من الباب متردّدة قليلاً في بقائها هناك، منتظرة أن أصل، أو أن تخطو قاطعة الممشى إليّ. في أحيان أخرى، أبدأ ذلك من رؤيتي بلال يأتي راكضاً، مسرعاً لكي تصل يده إلى مسكة الباب ليفتحه لي. عندما أخرجوني من الطابق السفليّ ممدّداً على تلك العربة

راح صوته ووجهه يخطران لي. وقد أراحني ذلك وأعادني إلى الحياة التي كان التخدير ودوخة ما بعد التخدير قد أغفلاني عنها. كان وجهه مبتسماً، نظيفاً ممشّط الشعر وأنا أنظر إليه مرتفعاً عنه ومنتظراً أن يبدأ المشي قبلي إلى داخل بيتهم. "تفضّل، تفضّل يا عمّي" كان صوته يطلع من بياض وجهه وابتسامه. في مرّات يذهب بي عقلي إلى أن أجد شبهاً بينه وبينها. ليس الشبه الذي يتّفق على أوصافه الناس، كأن يكون وجهاهما يتشابهان أو تكون مشيتهما كذلك، بل الشبه الذي يجعلني أرى في وجهه وحركاته شيئاً فيها لا أعرف ماذا هو. لا أراه بعينيّ بل أحسّه.

– قم، قم، أبوك يختنق...

أخرجتني زوجتي من سهوي وقمت لأركض ركضاً وراءها. كانت قد رفعته من نومه ليصير رأسه عالياً عن جسمه. وكان هو يفتح عينيه ويغلقهما مع كلّ شهقة كأنما، ليُدخل الهواء إلى رئتيه، عليه أن يبذل كلّ قوّته.

– ارفعه، ارفعه.

وإذ خفت من أن أوقف تنفّسه إن ضغطّتُ بيديّ على صدره وظهره، تقدّمتْ هي إليه لترفعه بدلاً منّي. لكنّي أبعدتها. كان ينبغي أن أجازف بأن أحمّل جسمه ما لا يقوى على تحمّله. وضعت يديّ تحت إبطيه، ثمّ شددتهما فيما أنا أضع فيهما قوّة وجدت أنّني لا أحتاج إليها. كان خفيفاً، بل وقليلاً. وهو، فيما كانت تُعليه يداي، في تلك الحركة السريعة، أدار عينيه إليّ كأنّما ليراني بهما هذه المرّة، وليس فقط لكي تساعدانه على أخذ نَفَسه.

– أنا سأفتح الشبّاك، قالت فيما أنا ممسك به، معلياً إيّاه بيديّ، ولا أعرف إن كان يقدر على أن يكون في وضع الجالس مستنداً بظهره إلى حافّة السرير.

راحت شهقاته تزداد قوّة وصفيراً كأنّ الوضع الذي أجلسته فيه آذاه وضيّق نفَسه. كان رأسه قد انحنى، كأنّما من ثقله الذي لم تحتمله عظام رقبته.

– أعده كما كان، قالت فيما هي تستدير مسرعةً لتقف عند الجهة الأخرى من السرير.

أدار عينيه إليّ، صاحيتين كأنّهما ارتدّتا إلى ما كانتا عليه قبل غشاوتهما. وقد أبقاهما متعلّقتين بي، حتّى وهو يُخرج نفثة الهواء الصغيرة التي كان حصّلها من شهقته.

– سترتاح يا أبي... ستتحسّن، قلت مستجيباً لما بدا لي أنه صحوة وعيه أيضاً. لكنّني مع ذلك، التفتّ إليها لأسألها إن كان يفيده أن نخرجه إلى الشرفة.

لم نكن نعرف ماذا نفعل. كان ينبغي لي أن أجلب إليه أحداً من الأطبّاء منذ أن بدأ تعبه ومرضه. كانوا سيقولون لي ماذا عليّ أن أفعل إزاء نوبة مثل هذه. لم أفعل. فكّرت في أنّ ضعفه وغيبته لا يحتاجان إلى طبيب. الطبيب لن يصلح شيئاً لأنّ ما فيه ليس مرضاً قد يزول بالدواء. الكبر والهرم ليسا من الأمراض، لأن لا أحد يستطيع أن يُرجع من يكون فيهما إلى الوراء.

كانت تلك نوبة وانقضت. شهقة بعد شهقة بدأ نفَسُه يهدأ، لكن ليس من دون أن يُفرغ عرقُه الكثير من الماء الباقي في جسمه، كما أنّ

الصفير الملازم لتنفّسه ظلّ على حاله. "أبقي الشبّاك مفتوحاً" قلت لزوجتي فيما أنا أغطّي جسمه حتى وسطه بالشرشف الخفيف. ثمّ أومأت إليها بحركة من رأسي أن نخرج الآن لنتركه ينام.

وراء الشبّاك المطلّ من غرفة الاستقبال على الساحة تحتي رحت أفكّر في أنّ نوبات أخرى ستصيبه، لا بدّ، وأنّنا، مع ذلك، لن نستطيع إلّا أن ننتظر انقضاءها. كنت أعرف أنّهم يعالجون التنفّس بقناني الأوكسيجين يضعونها في البيوت، لكنّني فكّرت، رغم ما سأترقّبه من معاودة نوبته، بل وازديادها قوّة، في أنّ ما يصيبه يأتيه من عمره. ربما أقنعني بذلك تصوّري لقنّينة الأوكسيجين مركونة بقربه، كبيرة مثل قناني الغاز التي في المطابخ، ومنها تخرج أنابيب لن نعرف كيف نتصرّف بها.

عيناه اللتان اتسعتا فيما هما تنظران إليّ ظلّتا متعلّقتين بي. ربّما كان يسعى بذلك إلى أن يبلغني شيئاً، لظنّه أنّ شهقاته تلك هي شهقات موته. أو ربّما، بسبب ظنّه ذاك، أراد أن يلقي عليّ نظرة أخيرة ليفهمني أنّه، في غيبته تلك، كان صاحياً على الدوام وأنه قاصداً اختار أن يغيّب نفْسه.

– يجب أن نأتيه بطبيب... الآن، قالت مفاجئة إيّاي.

ثمّ لم تتأخّر عن أن تضيف أنّها لن تتحمّل نوبة مثل هذه إن حدثت وأنا خارج البيت. "أو خذه إلى المستشفى" قالت متّخذة هيئة من خطرت لها فكرة المستشفى الآن، في لحظة ما قالتها.

– هو يحبّ أن يكون هنا، عند ابنه، في بيت ابنه، قلت.

– لم تجبني على غضبي. فقط نظرة أخيرة ألقتها نحوي فيما هي

تمسك قبضة الباب لتغلقه عليّ. نظرة مزدرية ومتوعّدة اكتسبتها من تحوّلها نحو أن تصير امرأة أخرى.

* * *

قال الطبيب الذي أحضرته من النبطيّة أن لا فائدة من أن نحمل أبي إلى المستشفى لنجري له فحوصات فيها. كان قد نقّل سمّاعته على أنحاء ظهره وبطنه، ثمّ أمسك فكّيه بيديه ليفتحهما عن فمه ليرى ماذا فيه. وقد ظلّ أبي نائماً في أثناء ذلك، أو منوّماً نفسه في ما رحت أحسب، لأنّ تقليبنا له كان سيوقظه، لا بدّ، حتى من ثقل غيبته. في غرفة الاستقبال سألني الطبيب إن كان يتوجّع. "لا أعرف..." أجبته قبل أن أضيف أنه لا يحبّ أن يُظهر عن شيء فيه.

– هذا في أيّام ما كان قويّاً، قال مصاحباً ذلك بابتسامة خفيفة.

وقد تراءى لي أنّه سيبتسم مرّة أخرى، الابتسامة ذاتها، حين سألته عن أيّام أبي الباقية كم هي. لم أكن مستعجلاً موته، فقط كنت راغباً في أن أعرف. "هذا بأمر الله" أجابني، كأنّه يذكّرني غامزاً بأن عليّ أنا، رجل الدين، ألا أسأل عن هذا.

– أنت، هل تعتقد بأنّه يتوجّع؟ سألت الطبيب الذي زمّ شفتيه متّخذاً هيئة من يسائل نفسه.

– طبعاً هو يتوجّع. ربّما ليس الوجع الشديد، وإلا لا بدّ أنّكم في البيت قد عرفتم ذلك.

– ربّما يكون يتوجّع حين يصير يرفض الأكل؟

– نادراً ما يكون النزع من دون وجع.

ربما أعدّ أبي نفسه لما سيصيبه في هرمه. كان يعرف عن ذلك، وكان قد استعدّ له بأن أدّخر له شيئاً من عصب شبابه. "إنّه قلع الحياة" قال مرّة في بيتنا لرجال الدين الذين كانوا يتكلّمون عن النزع، وعن الموت والأيّام التي تصاحبه. هو قلع الحياة، قال جاعلاً إيّاي، وأنا أسمعه آنذاك، أتخيّل يداً قويّة ذات عروق تقبض على ما يمكن أن يكون جذور الموت المتشعّبة الغارزة في صدر المقبل على حتفه. كانت تلك الكلمة التي يصف فيها النزع تشبهه، أقصد تشبه كلامه الذي يقوله لسامعيه في الحسينيّات، كما تشبه حركة جسمه، وتشبه عقله أيضاً، ذاك الذي يذهب إلى الشيء من فوره، من دون أن يتلفه بالثرثرة والكلام الكثير.

لكن، في ما خصّه، لم يكن النزع مثلما هو في وصفه له. كان الموت يصل إليه متمهّلاً مبطئاً. خطوة صغيرة واحدة كلّ يوم. خطوة صغيرة واحدة لا تُرى أو تُلاحظ. أفكّر في أنّ موته هذا لا يشبهه. وهو يعرف ذلك، ليس الآن أقصد، وهو في مرحلته الأخيرة، بل في الوقت الذي كان يخبّئ نفسه في صفنته. "جئناك بالأكل يا أبي" كنت أقول له وهو بعد قاعد على كرسيّه، فلا يلتفت إليّ ولا إلى ما أحمله. فقط تلك الارتجافة في العينين التي تدلّني على أنّه يحوّل نظرته من شيء إلى شيء.

* * *

أرى أنّ عقلي مثل عقول الأولاد الصغار كلّما فكّرت في أنّ أخي يراني ناظراً إليّ من مكان ما في الأعلى. ولا يكون ذلك حين أكون قاصداً بيتها، كما هي حالي الآن وأنا أقود السيّارة متمهّلاً على الطريق، بل أيضاً حين أكون جالساً على كنبايتي، في بيتي، أتذكّر، أو

أتخيّل، مواضع في جسمها، أحدّق إليها بنظري أو أتخيّل أنّي ألمسها بيدي. وأنا، في ذلك الحوار الصامت الذي أجريه بيني وبين نفسي، أو بيني وبين أخي الذي في الأعلى، أقول له: لكنّك متّ. ثمّ، بعد ذلك، أجد طرقاً لتبرير رغبتي، كأن أقول إنّ الزمن الذي انقضى على موته محا أثر يديه عن جسمها، يوماً بعد يوم بعد يوم، بل سنة بعد سنة بعد سنة.

وأنا أعرف أنّني في ذلك إنّما كنت أسعى إلى أن أُسقط عنها بصماته تلك وأزيلها. وأنا في السيارة أسوق على مهلي أجد، كلّما تخيّلتها تقرّب إليّ تلك المطارح من جسمها، أنّني أكشح وجه أخي بحركة من يدي، هكذا مثلما أكشح ذبابة تطنّ منذرة بأن تحطّ على أنفي.

لكنّك متّ، أقول له، بصوتي الذي يطلع منفلتاً من بين شفتيّ، وإن خفيفاً هامساً. أمّا هي، امرأته، فلا تتوقّف عن أن تكشف جسمها لي، ليس بالرؤية فقط، بل أيضاً بالحرارة التي أتحسّسها بيدي. أو بيديّ الاثنتين حين أتوهّمهما تتنقّلان، بسرعة النظر ذاته، بين أنحائها العارية.

ما نقص منّي بسبب العمليّة لم يُضعف قوّة تخيّلي ولا شعوري الذي يُبدي لي ما أتخيّله حقيقيّاً من لحم ودمّ؛ حقيقيّاً وفجّاً في عريه، كأنه، هو جسمها العاري أمامي، لا يتوقّف عن الانتفاض مقرّباً نفسه إليّ، وإن باقياً على وقفته لا يتحرّك أبداً.

وإذ يخطر لي، فيما أنا أسوق سيّارتي، أنّ هذا الذي يجري في رأسي ربما يحدث حقيقة، أروح أضغط قدمي على دوّاسة السرعة

لأقصّر وقت الوصول إليها. لم يعد بيتها بعيداً على أيّ حال. عشر دقائق، أو ربما أقلّ. وها هي السيّارة تقطعها مسرعة ولن تتأخّر بي. وأنا ينبغي لي أن أظلّ محتقناً من الصور التي استغرقتني، إذ ربما تدفعني إلى أن أفعل ما تردّدت من قبل عن فعله...

ها إنّني أصل. لم يبقَ إلا هذان المنعطفان. إنّني أقطع أوّلهما. أصبح ورائي. فقط دقيقتان، أو دقيقة. هذا هو بيتها. لن أفعل شيئاً. لن أطلق صوت المحرّك قويّاً ولن أضغط على زمّور السيارة معلناً وصولي. سأتركها تسمع صوت السيّارة العادي وهي ستراني، حين تفتح باب بيتها، جالساً حيث أنا وراء مقودي.

وها إنّني جالس وراء المقود، أنتظر أن ينفتح الباب وتظهر هي من ورائه. وقد خطر لي أن أبدأ بالخروج البطيء، لكني انتظرت. من الأفضل لي، حين تراني، أن أبدو كأنّني أتحسّب لغيابها عن البيت، فأدير السيّارة إلى طريق الرجوع.

الباب المقفل الذي كان عليه أن ينفتح بعد ثوانٍ قليلة من توقّفي ظلّ على حاله، مُقفل الدرفتين. لكي أبدأ بالهبوطً والخيبة لم يكن يلزمني أكثر من ثوان تالية أخرى، أبدأها بأن أخرج عن الصورة التي شئتها لنفسي: جالساً وراء المقود وتخرج هي مستعجلة إليّ.

لكنّها ستأتي، لا بدّ أن تأتي، قلت. وأنا لن أظلّ منتظراً هنا. أستطيع أن أدور حول الطريق العريضة، لكن من دون أن أبتعد. سأعود إلى هنا كلّ عشر دقائق أو أقلّ قليلاً لكي يبدو كلّ وصول لي هو الوصول الأوّل. ذلك من أجل أن تقول لي، فيما أنا أتقدّم بسيّارتي، إنّها قد وصلتْ الآن لتوّها، أو سيكون من الأفضل أن أصعد بسيّارتي إلى

تلك التلّة المرتفعة التي تغطّيها الأشجار. من هناك أستطيع أن أرى البيت. من هناك، وأنا جالس في سيّارتي، سأراها حين تصل. ولن أنزل إليها من فوري. سأنتظر وقتاً تكون تريح نفسها فيه. وسأسير متمهّلاً لكي أكون، حين أصل، كأنّني كنت عابراً في الطريق العريضة وأنّي جئت لأنّ لديّ وقتاً أقضيه.

أنا هنا على التلّة. أقف بسيّارتي بين شجرتين لا تغطّيان نافذتي التي منها أرى البيت وطريقه الموصلة إليه. أعرف أنّني لا ينبغي لي أن أبقى هنا طويلاً. فقط الوقت الذي أقدّر أنّ رجلاً يعبر لن يراني في رجوعه. ذاك أنّه سيرتاب بشيء وهو يلقي عليّ السلام للمرّة الثانية. بل إنّه سيقترب منّي مبرزاً وجهه من النافذة المفتوحة ليسألني إن كنت في حاجة إلى شيء. لا ينبغي لي أن أطيل وقوفي هنا. عشر دقائق مثلاً، أو أكثر قليلاً، أتحرّك بعدها بسيّارتي قاطعاً مسافة أعود بعدها إلى هنا.

لكنّي، مع ذلك، أطلت بقائي أكثر ممّا ينبغي لي. كنت قد أدرت محرّك السيّارة مرّات، لكن كنت أعود فأطفئه. لم تمرّ بقربي إلّا سيارات بدا أنّها ذاهبة إلى أماكن بعيدة. لكن مشهد بيتها في الأسفل، وكذلك الطريق إلى بيتها، ظلّا كما هما. لم يتحرّك شيء فيهما. لا أكثر من صورة ساكنة راح بصري يزيغ كلّما أطلت النظر إليها. حين خطر لي أنّ المشهد أمامي بات راسخاً من ثقله ولن يتغيّر شيء فيه، أدرت محرّك السيارة وسرت بها، نازلاً الطريق الملتفّة التي ستوصلني إلى بيتها. لا بدّ أن يحدث شيء إن غيّرتُ الوضع الذي أطلت المكوث فيه. ربما أراها قد وصلت حين أُطلّ بعد غياب تلك الدقائق التي استغرقها

نزول سيّارتي متمهّلة على الطريق، بل وأراها تفتح الباب قبل أن تستدير لترى قدوم السيّارة التي سمعت هديرها.

لكنّ الدقائق الخمس أو الستّ لم تكن كافية لتغيّر شيئاً. الباب والنافذة المغلقان ظلّا مغلقين. وأنا تعبت. لن أدور حول البيت دورة أخرى. ينبغي أن أذهب الآن. وأن أذهب مسرعاً، ولا أنظر إلى طرفَيْ الطريق حولي. فقط المسافة التي أمامي. المسافة وحدها، أسرع في طيّها ولا أفكر في ما عداها.

* * *

– كانت هنا زوجة أخيك.

قالت لي زوجتي بعد أن استدارت عن الباب الذي فتحته لي ومشت خطوات باتجاه المطبخ.

– وحدها؟

لم تسمع. لم يرتفع صوتي الذي جعلته يبدو غير مبالٍ.

لكنّني عدت وسألتها:

– كانت هنا وحدها؟

مع ابنها، أجاب صوتها من حيث هي في المطبخ.

أردت أن أعرف أكثر، وهي، زوجتي، لن تضيف شيئاً إلّا حين تُسأل عنه. ولكي لا أبدو مهتمّاً أكثر مما ينبغي لي، رأيت أنّ عليّ أن أنتظر، أن أتحيّن فرصة يكون سؤالي حينها كأنّه طالع من سهوي.

وقد اهتديت إلى ذلك مسرعاً. توجّهت إلى سرير أبي، كأنّما لكي أطمئنّ إلى حاله، وبقيت دقيقة أو دقيقتين ناظراً إليه ورافعاً اللحاف

الذي يغطّيه حتّى ذقنه، وفي طريق رجوعي التفتّ إليها لأقول لها:
– وهل تعرّف إليها أبي؟
– ظلّ نائماً، لم يفتح عينيه.
لا يفيد أن أظلّ واقفاً هناك، عند باب الغرفة. لن تزيد شيئاً على الكلمات التي ترى أنّ الإفاضة فيها هي من قبيل التقرّب الذي لا تريده ولا تسعى إليه.
لكن لن يكون مريباً في أيّ حال أن أسألها:
– ابنها، هل جاء هو أيضاً؟
هذه المرّة، أخرجت نفسها من المطبخ لتسألني ماذا قلت.
– ابنها، هل أتى معها ليرى جدّه؟
وقد بدا ذكري لجدّه مرتبكاً ومؤلَّفاً تأليفاً.
– أتى هو أيضاً.
أجابت، لكن بما يعني أنّ ذلك لا يستحقّ توقّفها عمّا تشتغل فيه.
ما يبقى ممّا أحبّ أن أعرفه سأترك جوابه لي. لا أقصد كم من الوقت بقيتْ هنا مع ابنها، ولا على أيّ كنباية جلست، ولا أين تنقّلت في البيت، ولا ماذا كانت ترتدي... ما ينبغي أن أعرفه هو، معتمداً على لاشيء تقريباً، إن كانت قد أتت لتراني. إن كانت أتت لتقول لي إنّها جاءت من أجلي، وإنّه من غير المهم إن كنت هنا ما دامت زوجتي ستبلغني بمجيئها. "الطريق طويلة، عليّ أن أذهب الآن" أتخيّلها قالت فيما هي تقوم واقفة، ثمّ قالت "بلّغي سلامي إلى السيّد" وذلك قبل أن تستدير، مقدّمة ابنها أمامها، لتخرج من الباب المفتوح. "بلغي سلامي إلى السيّد" التي تعني "أبلغيه بأنّي جئت".

و لم تتمهّل فيما هي تنزل الدرجات مطرطقة بكعبها العالي. لم تنتظر أن يُصادف مجيئي نزولها على الدرجات، أو مفاجأتها لي خارجة من بوّابة الحديد. ذلك ستتركه إلى الغد، حيث ستكون منتظرة إيّاي، لا بدّ، هناك في بيتها.

– هبة ليست هنا؟

– (...)

– هبة ليست هنا؟

– هي نائمة، قالت فيما هي تخرج من باب المطبخ.

وإذ قدّرت أنّها باتت هناك، في غرفة الأولاد، قمت إلى المطبخ لأعمل لي شاياً، مؤخّراً وقت وقوفي العابر السريع أمام سرير أبي.

* * *

هذه المرّة لن أكتفي بأن أختبر إن كانت تريد أو لا تريد. لن أكتفي بلحظة أو بلحظتين إضافيّتين مبقياً يدي فوق يدها ومترقّباً ماذا سيكون من ذلك. لن أخفي ما أريده وراء الكلمات التي منها أن تسألني كيف أشرب قهوتي وأجيبها أنا بأنّني لا أريد أن أُتعبها بعمل القهوة. أو أن أروح أختلس النظر إلى ما انكشف من ساقيها من حيث أجلس على الطرف ذاته من الكنباية. لا يحتاج ذلك منّي إلّا أن أقول الكلمة الأولى، الكلمة الصحيحة الأولى: "اشتقت إليكِ"، هكذا صريحة وغير مغلّفة بما يمكن أن يكون تحسّباً للتراجع، أو أن أضع يدي فوق يدها لوقت ستنتقل هي بعده، أو أنتقل أنا، إلى فعل ما يتعدّى وضع اليد فوق اليد. ولكي أشجّع نفسي على ذلك، وأنا

في سيّارتي ذاهباً إليها، رحت أقول إنّني إن لم أفعل ذلك اليوم فلن أفعله أبداً.

لا يحتاج ذلك منّي إلّا إلى تلك الكلمة الأولى أو الحركة الأولى. ربما أتلعثم، أو يظهر الارتباك على وجهي، لكنّني سأفعل ذلك، بل وسأكمله إن دفعني خجلي إلى التوقّف أو التراجع. المهمّ هو الخطوة الأولى، تلك التي يصبح كلّ شيء هيّناً من بعدها. "عليك أن تخرج من جبّتك وعباءتك" كان يقول الشيخ عبد الحسن، المحبّ للنساء، ونحن هناك في النجف، ناصحاً إيّانا بعدم الاكتفاء بالخطوة الناقصة التي يسهل التبرّؤ منها. "إن كنت تريد قل لها ذلك بنظرتك كلّها، لا أن تبدو كأنّ عينك وقعت عليها بالخطأ".

بعد قليل أصل. لم تستغرق الطريق وقتاً طويلاً. التصميم الذي أبقيته فيّ لن أفلته في هذه المسافة الأخيرة. ليست إلّا دقائق. دقائق لا أكثر...

وهذا هو بيتها، أمامي.

كانت تنتظرني.

بدت، حين أطلّت من شقّ الباب، كأنّها تعرف أنني أنا الذي جئت. وهي، هذه المرّة، لم تخرج مرحّبة لتقول لي، بوجه مجامل مبتسم، "أهلاً بالسيّد". بقيتْ هناك، ممسكة بالباب الذي لم تفتح درفته حتّى آخرها. وأنا، متمهّلاً، نزلت من السيّارة، ثمّ متمهّلاً أيضاً، بدأت أُقفل بابها بالمفتاح. وإذ رحت أسير إلى الأمام، مخمّناً إن كانت ستظلّ واقفة هكذا وراء الباب نصف المفتوح، رأيتها تلتفت إلى الداخل، ثمّ تميل بجسمها كأنها تستجيب لصوت أتاها من هناك،

ثمّ، في لحظة، ابتعدت عن الباب الذي تركته لي مفتوحاً.

كنت قد فكّرت أن أقف منتظراً عند الباب المفتوح لولا أنّها عادت مسرعة، بل راكضة. "أهلاً، أهلاً وسهلاً بالسيّد" قالت خالطة الترحيب ببقايا مرح لم يزايل وجهها. ثمّ أفسحت لي لكي أدخل. ولأنّي كنت مترقّباً لما قد تقع عليه عيناي، لم يفاجئني وجود النسوة الثلاث اللواتي بدون ينتظرن دخولي، صامتات، وبلا حركة، لكن مبقيات على ما كنّ فيه: اثنتان جالستان على الكنباية التي في الوسط، وواحدة واقفة، حاملة بيدها فنجان القهوة على صحنه الصغير.

– السيّد... أخو المرحوم، قالت لهنّ مشيرة بذراعها إلى حيث أقف.

وقع ذاك في أذني موقعاً غريباً ومشوّشاً لما أعرفه من صلتي بها وصلتها بي. كأنّها قالت ذلك بالكلام الذي يقوله ناس آخرون، وقد خفت أن تسمع النساء الثلاث ذلك مثلما سمعتُه فيعدن إلى الضحكات التي كنّ قد أوقفنها قبل دخولي.

– تفضّل، تفضّل، قالت هي مادّة ذراعيها الاثنتين داعية إيّاي إلى الجلوس في مكان لم تعيّنه.

أنا أيضاً لم أعرف أين ينبغي لي أن أجلس، أو إن كان عليّ أن أجلس أصلاً.

– كنت مارّاً من هنا... قلت مهتدياً إلى تلك الكلمات التي سبق لي أن هيّأتها مرّات.

من تلقائهما، نهضت المرأتان معاً عن الكنباية الكبيرة، تاركتين إيّاها لي. غير أنّي تمنّعت، داعياً إيّاهما إلى معاودة الجلوس.

– هنا... هنا يا سيّد، قالت هي مشيرة إلى الكنباية المفردة، تلك التي، على أيّ حال، لن تبعدني بما يكفي عن المرأتين، ولا عن تلك الواقفة التي انحنت نحو الطاولة التي في الوسط لتضع عليها فنجانها.

– جئت هكذا بالصدفة، قلت فيما أنا أرفع يدي لأنظر إلى ساعتي.

كان عليّ أن أذهب. لكن قبل أن أكمل قول الكلمات المعتذرة، تلك التي ستسبق خروجي، قالت تلك التي أنهت وضع فنجانها على الطاولة:

– ألا تحبّ أن تجلس معنا؟

تردّدتُ قليلاً، ثم ما لبث أن أجلسني ارتباكي. على الكنباية المفردة واضعاً يديّ الاثنتين على طرفيها العاليين، شعرت كما لو أنّني وقعت في المصيدة. لا شيء يردنه، هنّ النساء الثلاث، إلّا أن يضحكن ويتمادين في الضحك، وذلك ما لا أجيده ولا أعرف كيف أسلك فيه.

– سأعمل لك قهوة يا سيّد، قالت لي، هامسة ومقرّبة وجهها إليّ كأنّما لتحيّدني عن وجودهنّ حولي.

– لن أتأخّر هنا، قلت، بصوت يكاد يكون هامساً هو أيضاً.

– إن كان بسبب وجودنا نستطيع أن نغادر، قالت المرأة الواقفة فيما هي تهمّ بالجلوس على الكنباية المفردة بمواجهتي.

– لا... لا، ليس بسببكنّ. سأذهب لأن ليس لديّ وقت كثير.

وقد جعلت أبدو في جلوسي مستعدّاً للقيام، مستقيم الظهر ورجلاي لا تبعدان كثيراً عن حدود الكنباية.

لم يعدن إلى النظر بعضهنّ في وجوه بعض، كما لم تعد تظهر

على شفاههنّ تلك الابتسامات التي كنّ يدارين إخفاءها. وفي سكوتهنّ ذاك، سمعت خبط خطواتها بالكعب العالي متّجهة، من حيث كانت تقف خلفي، إلى المطبخ. ثمّ سمعت الخطوات عائدة لتصل إليّ. من أجل جلوسها وضعتْ الكرسي التي جاءت بها من هناك قريبة منّي.

– الآن سأعمل القهوة، قالت، تاركة الكرسي خالية.

بقينا على صمتنا، أنا والنساء الثلاث. كنت أنتظر منهنّ أن يتكلّمن، أن تقول إحداهنّ شيئاً، فقد بدا الصمت بيننا يصير ثقيلاً ومحرجاً. وهي أحسّت به من هناك، وتداركته بأن قالت لهنّ إنّهن اكتفين من شرب القهوة وإنّ ما تعمله فنجان واحد هو لي.

– لا تريدنا هنا، قالت التي على طرف الكنباية القريب إليّ.

وأنا ابتسمت، لكن فيما أنا مخفض رأسي أنظر إلى يديّ.

– كان يجب أن نضع أغطية على رؤوسنا، أضافت المرأة بعد ثوان من سكوتها.

لم أجب، فقط رفعت وجهي إليها. ثم خطر لي أن أقول شيئاً ممازحاً، لكنّي عدلت معيداً نظري إلى يديّ.

كنت أعرف أنّني، بصمتي وبالقليل القليل الذي يصدر عنّي، أترك لهنّ كلاماً كثيراً يثرثرن به حين يصرن وحدهنّ.

– القهوة يا سيّد، قالت حين أوصلتْها خطواتُها إليّ. كانت تحمل الفنجان وصحنه من دون صينيّة تحتهما، وأنا، لكي آخذهما، حرصت على ألا تلامس يدي يدها.

ثمّ جلست على الكرسيّ إلى جانبي، مرتفعة قليلاً عنّي.

– كان يجب أن نضع أغطية على رؤوسنا، أعادت المرأة، مخاطبة زوجة أخي هذه المرّة. لكنّها لم تلقَ منها جواباً. بل ربما أوقفتْها زوجة أخي عن كلامها بواحدة من تلك النظرات المُسْكتة.

– لم أركَ في البيت البارحة، قالت لي هامسة مقرّبة نفسها إليّ، لنكون كما لو أنّنا وحدنا، منعزلين عنهنّ.

كنت سأزيد ما بيننا قرباً إن أجبتها بأنني كنت هنا البارحة، عند مدخل بيتها، لكنّي أجّلت ذلك إلى وقت لا يكون فيه أمامي أحد سواها. لكنّني، مع ذلك، لم أستطع أن أُغالب رغبتي في أن أسمع منها شيئاً آخر تقوله عن زياتها تلك؛ شيئاً أستدلّ منه إن كانت هذه الزيارة لي وليست لأبي المريض ولا لبيتي، ولا للقرابة الباقية بين بيتينا.

– بقيتِ كثيراً هناك؟

– ربما ساعة... لم أستطع الانتظار أكثر،

الانتظار الذي لم تستطعه، الذي لم تستطع الاستمرار فيه، ربما بسبب ضجرها من البيت، أو ربّما لأنّها تأخّرت عن عمل عليها أن تؤدّيه، لكنّني، مع ذلك، لم ألتقط إلّا ما يمكن أن يخصّني: لم تستطع أن تستمرّ في انتظاري أكثر ممّا فعلت.

– ربّما أنا جئت بعد وقت قليل من خروجك... على أيّ حال لم تقل لي زوجتي شيئاً غير أنّكِ جئتِ.

– وقالت إنّ بلال جاء معي؟

– فقط إنّك جئت مع بلال، لا شيء أكثر، وأنا لم أحبّ أن أسألها، مع أنّني بقيت حتى آخر النهار أنتظر أن أسمع منها شيئاً.

قلت هذه الجملة الأخيرة بصوت أكثر انخفاضاً من الكلمات التي سبقتها، وقد استدعى ذلك مني أن أقترب منها إلى ما يتعدّى تلك المسافة القليلة الباقية.

وهي، من ذلك القرب، التمع وجهها بتلك الابتسامة التي تعني أنّها فهمت ما أردتُ قوله.

- هنا لا أحد يريد أن يتكلّم معنا.

قالت تلك الجالسة على طرف الكنباية القريب إليّ. أتعبها التحدّث مع رفيقتيها بأصوات مجارية لصوتينا في انخفاضها.

كان علينا أن نصمت إذن، وأن نستقيم في جلوسنا وأن يدير كلّ منّا وجهه إليهنّ مستعدّاً للكلام أو السماع.

- أحسسنا أنّنا هنا وحدنا، أضافت تلك القريبة إليّ...

ولم يلقَ مزاحها ذاك من امرأة أخي إلّا نظرةً جامدة. أنا أيضاً فكّرت أنّهنّ، هنّ الثلاث، سيشتركن معاً في الكلام المو ارب ليسلّين به أنفسهنّ. كما أنّني ينبغي لي ألا أظلّ جالساً منتظراً خروجهنّ. كنت لا أزال ممسكاً بفنجان القهوة الفارغ بيديّ. وحين قرّبت هي يديها لتأخذه منّي، بدا ذلك شبيهاً بوضع نقطة في آخر السطر. وقد أكملت ذلك بأن حملت الفنجان إلى المطبخ بدل أن تضعه على الطاولة القريبة.

كان يجب أن يتغيّر شيء. أن يغادرن هنّ، أو أن نغادر جميعاً.

حين عادت من المطبخ، ماشية مِشية من ينتظر حدوث شيء ما، قمت أنا واقفاً. قلت لها ناظراً إلى ساعتي إنّي تأخّرت. ثمّ، فيما أنا أبدأ الخطو نحو الباب، حيّيت النساء الثلاث بكلمة واحدة أو كلمتين.

سألتني إن كنّ أزعجنني فيما هي تفتح لي الباب، ثمّ، فيما هي تقف في فرجته، محتجبة عنهنّ، قالت لي إنّهن لا يأتين كلّ يوم على كلّ حال.

* * *

من تلك المسافة القليلة، والتي كانت تصير أقلّ كلّما دنوت منها لأكلّمها أو انعطفتْ هي إليّ لتكلّمني، كنت أشعر كم إنّها قريبة من ملمسي. إنّه شعور حقيقيّ ذلك الذي يحسّه الرجل حين تكون يد المرأة قريبة هكذا من يده أو من نظره. ونحن في ذلك القرب لا نكون فقط قريبين من الوصول، بل نكون قد حقّقنا قدْراً منه.

كذلك فإنّني، وهي في ذلك القرب، اهتديت إليها كيف ستكون حين تنكشف لي وتصير كلّها متاحة ليديّ. كنت راضياً فيما أنا أسوق السيّارة عائداً إلى بيتي. ثمّ إنّها، هناك عند الباب، كانت تدعوني إلى وقت نكون فيه وحدنا، أنا وهي. هنّ لا يأتين كلّ يوم، قالت بتلك الابتسامة الغامزة. كانت تدعوني إلى أن أستعجل عودتي. هكذا تريدني أن أفعل. أن أكون هنا غداً، أو بعد غد، لا أكثر. ستكون ما زالت كما تركتها، لم يُنسها انقضاء الوقت ما كنّا فيه، هي وأنا، تاركين النسوة الثلاث كأنّنا منفصلان عنهنّ.

أنا وهي بينهنّ أو أمامهنّ، لكن منفصلان عنهنّ. لم يسبق لنا أن كنّا قريبين هكذا. كأنّ وجودهنّ معنا، هنّ النسوة الثلاث، أتاح لنا أن نفعل ما لم نكن نفعله حين نكون بمفردنا. كأنّنا كنّا في حاجة إلى أن نوجد بينهنّ لكي ننعزل عنهنّ. من ذلك القرب الذي كان يمكن

لكتفي أن يحفّ بكتفها، إن شئت، من دون أن يبدو ذلك مقصوداً، كنت أحسّ بأشياء تزيد عن اشتهائي لها. كأن شهوتي التي أعرفها قد اختلطت بمشاعر غامضة، بينها العاطفة والقرابة والحنين إلى أشياء انقضت. وقد رحت أتخيّل أنّني، إن تسلّلت بيدي إلى ما تحت ثيابها، لن أكون أبحث فقط عن الرغبة التي يتطلّبها جسمي، جسمي وحده أقصد.

وأنا أعرف أنّ ذلك ليس حبّاً من النوع الذي يُغنّى في الأغنيات ويقال في القصائد. ذاك لأنّي، كلما خطرت لي، لا أراها إلّا واقفة أمامي بجسمها كلّه. جسمها القويّ الذي فيه ما يستفزّ أكثر ممّا فيه ما يُحَبّ.

* * *

منذ أن انعطفتُ إلى الساحة التي يطلّ عليها بيتنا عرفت أنّ أبي قد مات. كان صوت المقرئ يطلع قويّاً ومشوّشاً من مكبّرَيْ الصوت المثبتين في أعلى المئذنة، وعند مدخل بيتنا، هناك أمام بوّابة الحديد المفتوحة، تجمّع رجال كثيرون. وهم، من لحظة ما شاهدوا سيّارتي، تباعدوا في وقوفهم كما لو أنّهم يفسحون الطريق لوصولي. ثمّ تقدّموا نحوي فيما أنا أوقف السيّارة وأفتح بابها. كانت وجوههم صامتة عابسة، و لم يقل أحد منهم شيئاً. قدّروا أنّني عرفت بموت أبي وأن لا حاجة بهم إلى قول ذلك. وأنا، الذي لم أعرف في أيّ هيئة عليّ أن أظهر أمامهم، ولا ماذا ينبغي عليّ أن أقول، اكتفيت بأن هززت رأسي مصاحباً ذلك بابتلاع ريقي. وحين مشيتُ إلى البوابة

الحديد، عابراً بينهم، لحقوا بي، سائرين خلفي على الدرجات.

في البيت، هناك بين المطبخ والغرف، ازدحمت نساء أتين من بيوتهنّ حول الجامع والزقاق الممتدّ إلى يساره. كانت زوجتي تتحرّك بينهنّ، غاضبة أكثر ممّا هي مشغولة. وحين خطوت لأصير قريباً منها، خطر لي أن أسألها كم مضى على موته، كأنّما لأعرف منها عن الوقت الذي تركتُها فيه، وحدها، مع أبي الميّت. كان باب غرفته مقفلاً، وإن كانت النساء الكثيرات غير بعيدات عن مدخلها إلا خطوة واحدة أو خطوتين. هنّ أيضاً أفسحن لي لكي أمرّ، ناظرات إلى وجهي محدّقات فيّ. في الداخل، وراء الباب الذي أغلقتُه خلفي، سمعت صوت ذبابة تطنّ محوّمة في الغرفة. هي واحدة من الذبابات الكبيرة، تلك التي لا تكون إلّا منفردة وحدها في المكان الذي تدخل إليه لتحوّم فيه. وهو، أبي، كان مكشوف الرأس تحت دورانها. نائماً نومته ذاتها، تلك التي لم يبدّلها و لم ينقلب عنها في أيّامه الأخيرة. حتّى إنّني رحت أفكّر كيف عرفتْ، هي زوجتي، بأنّه مات، ما دامت رؤيته نائماً لا تختلف عن رؤيته هكذا ميّتاً. ثمّ فكّرت في أنّه ربما كان قد انقضى وقت طويل على موته، قبل أن تعرف به زوجتي.

كان عليّ أن أنتظر وقتاً حتّى أدرك ما يعنيه موته، أو حتّى أن أصير أشعر بما ينبغي أن أشعر به. ذاك أنّي، وأنا واقف أنظر إليه ممدّداً، مغطّى باللحاف حتى أعلى ذقنه، لم أتأثّر بشيء لكوني لم أجد شيئاً متغيّراً حولي. ومثلما أفعل للناس حين يموتون، جعلت أقرأ الفاتحة عن روحه. الفاتحة فقط، حيث إنّي لم أحتج إلى أن أدير وجهه إلى

اتّجاه القبلة. كان قد فعل ذلك بنفسه، ومنذ أيّام كثيرة، مستعدّاً لموته هكذا، بل ومغالباً رغبته في إراحة جنبه وكتفه.

ولم أمكث لوقت طويل هناك في الغرفة. دقائق قليلة فقط كانت كافية، ليس فقط لألقي نظرة عليه، بل أيضاً لأزيد على ذلك تردّدي بين الخروج أو البقاء معه. وحين فتحت الباب رأيت أنّ النساء ابتعدن إلى أوّل الممشى واختلط بعضهنّ بالرجال. وقد أداروا وجوههم إليّ، هم الرجال والنساء، وعدن ليفسحن لي لكي أمرّ إلى غرفة الاستقبال. حين اقتربتُ من كنبايتي التي قام من كان عليها ليجلسني، قال أحدهم بصوت راعد قويّ: أفلح من رفع صوته بالصلاة على محمّد وآل محمّد. وإذ ردّوا مجتمعين من بعده، بصوت واحد، اندفعتْ دمعةٌ إلى عيني، ثمّ شهقتُ شهقة قام أحدهم على أثرها ليعطيني ورقة من علبة محارم كانت معه.

وقد أمسكت دمعي بعد ذلك لأنّه ينبغي لي ألا أبكي أمامهم، أنا الذي أعرف أنّ الموت حقّ، وأعرف الموت لكثرة ما صلّيت على الميّتين. ولكي أشاغل نفسي وأنصرف بها عمّا يُدمعني، سألت واحداً من الرجلين اللذين يجالسانني في الجامع، وكان يتنقّل بين الجالسين كأنّه يدبّر أمر استقبالهم: في أيّ ساعة مات؟ قال إنّه لا يعرف، وإنّه، حين صعد إلى البيت مع رجلين كانا واقفين في الساحة، وجد جسمه بارداً لا حرارة فيه. ثمّ التفت إلى ناحية الممشى ليردّ على صوت أتاه من امرأة. "الله يرحمه"، قال فيما هو يعود من الممشى حاملاً صينيّة امتلأت بفناجين الشاي... "الله يرحمه... لم يكن أحد مثله" قال ليسمعه الجميع الذين التفت بعض منهم لينظروا إلى الصورة المعلّقة

ما زالت، في ذلك المكان المرتفع من الحائط. وقد أعليت وجهي، أنا أيضاً، إلى الصورة بعد أن قال واحد من الرجال الواقفين تحتها إنّنا ينبغي أن نعمل منها نسخاً لنوزّعها.

كنت أعرف أنّهم سيقومون عنّي بما ينبغي فعله. وهم باشروا ذلك بأن أنزلوا الصورة من مطرحها وأخذوا، قبل أن يخرجوها من بروازها، يحدّقون إليها منقّلينها من واحد إلى آخر. و لم تكن قد اكتملت دورتها بينهم حين أخذها واحد من بينهم وقال، فيما هو يبدأ خروجه، إنّه ذاهب الآن إلى النبطيّة. سيفعلون كلّ شيء بأنفسهم، وسيكونون متحمّسين في الاهتمام بي فوق ذلك، يقرّبون فنجان الشاي إليّ ويعطونني محرمة الورق حين أحتاج إليها ويسألونني، فيما هم ينحنون لكي أبقى جالساً كما أنا على الكنباية، إن كنت أريد شيئاً يفعلونه لي.

وكانت أصوات النساء تأتي كثيرة متداخلة من الممشى ومن الأبواب المفتوحة حوله. وعلى الدرج النازل من البيت نحو بوّابة الحديد كان أناس يصعدون وآخرون ينزلون، هكذا كأنّ البيت انفتح لأهل الشقيفيّة جميعهم، فصاروا يدخلون إليه ويخرجون منه من دون أن يكلّموا أحداً أو يحيّوا أحداً. والقادم منهم، حين يصير في الداخل، ينضمّ إلى واحدة من الحلقات الصغيرة التي تتداول في ما ينبغي تجهيزه. وقد اقترب منّي الرجلان مجالساي في الجامع ليسألاني، بعد أن خرجا من حلقتهما، إن كنت سأتكلّم أنا في يوم العزاء، ثمّ راحا يتداولان في ذلك أمامي مقترحين أن تكون الكلمة للمفتي الجعفري الذي عليه أن يأتي من حيث هو في

بيروت، ثمّ أن ألقي أنا كلمة من بعده. لكن يجب أن يأتي المفتي، وهو سيأتي من نفسه على كلّ حال.

* * *

كان كلّ شيء قد صغر في أيّام نزعه الطويل، حتى رأسه وجمجمة رأسه. وهو مسجّى في النعش الذي حملوه إلى الجامع، كان خفيفاً لا يحتاج حمله إلى تلك العزائم التي راح يبذلها الرجال. وقد خطر لي أنّها رحلة قصيرة تلك التي قطعناها حاملين جثمانه، كما ستكون قصيرة أيضاً تلك المسافة بين الجامع والجبّانة. وإلى ذلك، كان الناس قليلين وراء النعش. بعضهم أتى من القرى المجاورة وبعضهم، وهؤلاء من المشايخ الذين ربما كانوا يعرفون عنه ويؤيّدونه في ما كان يفعل، أتوا من مناطق أبعد، متأخرّين عن الدفن. وأنا، فيما كان يُرفع نعشه محمولاً إلى الجبّانة، خطر لي مشهد الناس الكثيرين الذين كانوا محيطين به، مشاركينه في غضبه، يوم كان يتقدّمهم مندفعاً إلى صفوف العسكريين الرافعين بنادقهم ومصوّبين بها. كان الناس قد نسوه، أو ربما شاخ الذين كانوا حوله ومعه، أو ماتوا، طالما أنّ من كانوا حوله من أهله قد ماتوا هم أيضاً و لم يبقَ منهم إلّاي. لكي تكون جنازته تليق بما كانه، كان عليّ أنا أن أكون غير ما أنا عليه الآن. ذاك لأنّ الناس إنّما تحتشد مجاملة لمن هو حيّ وليس لمن مات. كان عليّ أن أكون ما كانه هو لكي يكون مشهد موته مكملاً لحياته.

كانت المسافة قصيرة بين الجامع والجبّانة. لم يقل قبل مماته شيئاً عن دفنه. لم يوصِ بأن يُدفن في النجف مثلما أوصى أبوه وجدّه. حتّى

إنّه لم يقل إنه يحبّذ العودة إلى ضيعته التي عاش فيها أكثر سنواته. ربما قال في نفسه إنّ الأماكن كلّها سواء ما دمنا، نحن سلالة رجال الدين، نتوزّع بينها فيصير مكاننا ما لم يكن من قبل مكاننا. كان صعباً عليّ أن أسأله قبل موته، أو أقول له وهو بعد في أوّل مرضه: أين تريد أن تُدفن يا أبي؟ ترك ذلك لي، أن أقرّر أنا ماذا أفعل وأن أختار أين أدفنه. وقد تركت الناس يقومون بذلك عنّي. هم الذين أسرعوا إلى إنجاز الأمور تاركين إيّاي، في أثناء ذلك، جالساً على كنبايتي، وموافقاً على ما يقولونه حين يتقدّم إليّ أحد ليقول لي: سنرسل ورقة النعي هذه إلى القرى، وأنا، بعد أن أنظر إلى ما في الورقة، أكتفي بهزّ رأسي موافقاً وبإعادة الورقة إلى من قرّبها إليّ.

لم يحملوا نعشه إلّا لمسافة قليلة أعقبتها مسافة قليلة أخرى. ذلك أعفاني من أن أُلحقه بأبيه وجدّه هناك، حيث أرادا، في النجف. لو فعلت لكان طول الطريق وحرّها سيهلكانني حيّاً ويهلكانه ميّتاً. ثمّ إنّني أعرف أنّ الصخب والغضب اللذين عاش فيهما حياته يجعلانه مختلفاً عن أبيه وجدّه، الهادئين الحكيمين، اللذين لم يُروَ عنهما شيء إلّا وكانا فيه جالسين يسبّحان بالسبحات. من كانوا مثلهما سيهتمّان، لا بدّ، بأن يُدفنا هناك. لكي يكون موتهما مثلما كانت حياتهما التي كانا يعرفان فيها كيف سيكون غدهما وكيف سيكون بعد غدهما. وهما كان لديهما الوقت الكثير ليفكّرا طويلاً قبل أن يقول كلّ منهما لابنه، أو لعائلته: حين أموت أوصيكم بدفني في النجف.

بعد أن واروا جثمانه في الجبّانة راحوا يدعون أولئك المعزّين الذين

قدموا من ضياعهم إلى بيت واحد منهم. "تفضّل يا سيّدنا، تفضّل معنا" كانوا يقولون لي قبل أن يضيفوا أنّهم اتفقوا على ذلك منذ البارحة. وأنا لم أتأخّر في القبول فأسير إلى ذلك البيت محاطاً بالمعزّين وبرجال الذين الضيوف.

* * *

كان عليّ أنا أن أقول لهم، هم الذين يتوزّعون أعمال الجنازة، أن يرسلوا أحداً إلى بيت أخي ليخبروا زوجته وابنه. حتّى هذه أهملتها، لا لأنّي نسيت، بل لأنّي كنت مكتفياً بأن أطيع ما يقرّرونه هم. لكنّها علمتْ، وإن متأخّرة. ربما كان هذا أفضل لي، إذ لم يكن ممكناً، في يوم الجنازة ذاك، إلّا أن أكون مع الرجال وأن أظلّ الوقت كلّه بينهم. أمّا هي فكانت ستمكث في بيتنا، مع زوجتي ومع النساء اللواتي ربما لا تعرف واحدة منهنّ.

كنت أعرف أنّها لن تتأخّر في المجيء. بل إنّها ربما أخّرت مجيئها عن قصد. لم يكد يطلّ صباح اليوم التالي حتّى وصلت، ومعها ابنها بلال الذي، مثلما يفعل الكبار مع الكبار، عانقني وأنا ما أزال جالساً على كنبايتي، ودعا لي بالبقاء وبالعمر الطويل. وهو أطال معانقته لي مسنداً رأسه إلى كتفي. وقد ظلّت أمّه، بثياب العزاء السوداء، واقفة خلفه منتظرة. لكنّني، فيما أنا أحيطه بيديّ، وقفتُ لأعزّي أمّه وأقبل عزاءها، مصافحاً يدها، وضاغطاً عليها كأنّني أنقل لها رغبة بالمواساة تأتيني منها، من حضورها هي ومن وقوفها هكذا أمامي.

كان رائقاً ذلك الصباح. الضوء الآتي من النافذة كان يدفئ قماش الكنبايات، وعلى مساحة من البلاط، هناك في الوسط، كان منعشاً ذلك المستطيل المائل الذي أضاءته الشمس. زوجتي التي، على عادتها، لم تتخطّ الباب المفتوح إلى غرفة الاستقبال، سألتْها إن كانت تريد قهوة أو شاياً. وحين قلت إنّني أرغب بالشاي أنا أيضاً، استدارت زوجتي، لكن ليس من دون تلك النظرة التي تعني أنّني أكثر تحمّساً مما يجب.

سألتني عن الولدين وإن كان أخبرهما أحد بموت جدّهما. ثمّ سألني بلال، متّخذاً هيئة الكبار لا يزال، إن كانا يحبّان المدرسة التي هما فيها. ثمّ سألني عن هبة. إنّها هنا، أجبت، متطلّعاً حولي كأنّما لأنظر أين هي أو لأسأل أحداً عنها. "البارحة ضاعت بين النساء والرجال الكثيرين في البيت" قلت كأنّني أجد عذراً لكونها ليست قريبة منّي. "هو خسارة كبيرة" قالت هي، زوجة أخي، من أجل أن تذكر أبي بشيء. وكان عليّ أن أبدو صافناً مفكّراً فيه للحظات. لكنّني، ولكي أبدو كأنّني أقول كلاماً حقيقيّاً وليس للمجاملة وحدها، قلت لها إنّه كان يقترب من موته يوماً فيوماً وإنّني لا أعرف إن كان موته صعباً عليه.

وفيما كانت زوجتي لا تزال مشغولة هناك في المطبخ، قلت لها، إنّهما، هي وبلال، سيبقيان هنا إلى ما بعد الغداء. قلت ذلك متعجّلاً، ليس فقط لأستبق عودة زوجتي، بل أيضاً من أجل أن يبدو قولي حاسماً ومؤكّداً. وقد بدا ذلك آمراً، ومشركاً بلال في الذي هو بيننا، أنا وهي. لكنّها اكتفت بأن ابتسمت، تلك الابتسامة التي لم تخلُ من

تلفّت عابر إلى ناحية الممشى الذي يفصلنا عن حيث ذهبت زوجتي، ثمّ إلى الفراغ في وسط الغرفة حيث نجلس. وقد رغبتُ أنا في أن أعيد ما قلته، متجرّئاً مرّة أخرى، لكنّها أسكتتني بأن عضّت شفتها محذّرة وجعلت عينيها تبدوان فزعتين. لكنّني نقلت ذلك إلى بلال الذي أعلم أنه مدرك بلا شكّ لما يجري بيننا: "ستبقى معنا اليوم يا بلال، سنستقبل الناس أنا وأنت"، وهو نظر إلى أمّه منتظراً أن توافق هي أوّلاً.

وقد تأخّرت زوجتي عن الوقت الذي يحتاج إليه غلْي الشاي وإحضاره. وإذ راح بلال ينظر من حيث يجلس إلى الكتب المصفوفة على الرفوف، قلت له، مشيراً إليها، إنّها كتب جدّه، داعياً إيّاه إلى أن يقوم لينظر إليها عن قرب. وأنا، فيما هو مدير ظهره إلينا، لم أقل كلمة و لم أقم بحركة. فجأة بدا لي أنّ أيّ شيء أقوله أو أفعله سيبديني ملحّاً إلحاح ولد. حتّى إنّني عدت إلى سؤالها كيف كانت الطريق وفي أيّ ساعة انطلقت هي وبلال من هناك.

لم تكن زوجتي مشغولة بالشاي وحده. حين عادت حاملة الصينيّة كانت قد غيّرت ثيابها وسوّت ما بان من شعرها تحت الغطاء. بل وربّما لوّنت خدّيها بحمرة خفيفة بدّلتها قليلاً عمّا كانته عندما تركت الباب ذاهبة إلى المطبخ. وقد بدت لي فيما هي تقرّب الصينيّة من ضيفتها لتحدّق إليها من ذلك القرب، كما لو أنّها تبحث عن شيء. وحين تقدّمتْ بالصينيّة نحو بلال، الذي كان قد عاد للجلوس على كنبايته، رأيتها تفعل الشيء نفسه. كانت الصينيّة قد أصبحت خالية بعد أن أخذتُ منها فنجاني، وهي دلّتها إلى جانبها مثلما تدلّي

صحناً فارغاً أو رغيفاً. وفي هذه المرّة، رأت أن تجلس هنا في غرفة الاستقبال ما دامت الزائرة فيه امرأة، بل وقريبة للعائلة أيضاً.

لكنّه جلوس موقّت، أو مضطرب من بدايته، فقد أبقت الصينيّة الخالية معها، مبسوطة على ركبتيها. هي أيضاً سألت زوجة أخي عن الطريق كيف كانت، ثمّ نظرت إلى بلال لتقول ما شاء الله كيف أنّه صار قريباً من عمر الشباب. وقد ردّ بلال على ما قالته بأن سألها عن أحمد وأيمن وهبة، ذاكراً إيّاهم هكذا بالأسماء. وأنا عرفت، فيما هي تبقي نظرها عليه، أنّها تتذكّر ولدينا كيف هما، مقيمة المقارنة، لا بدّ، بينه وبينهما.

وأنا قلت لها أن ترتاح من الصينيّة وتضعها على الطاولة، كأنّني أعيدها إلى تردّدها بين أن تتركنا أو أن تبقى بيننا. لكنّها وضعت الصينيّة على الطاولة الصغيرة إلى جانبها. تريد أن تبقى، معرّضة نفسها لما قد يخطر لي، فيما أنا أقلّب نظري بينها وبين المرأة التي إلى جانبها، هكذا، مثلما فعلتْ هي في تذكّرها ولدينا الغائبين.

– تبقيان على الغداء معنا، قالت موجّهة كلماتها إلى بلال وأمّه.

وقد شجّعني ذلك على أن أعيد ما كنت قلته:

– تتغدّين معنا، أنت وبلال، هو اشتاق لعمّه.

و لم تعلن موافقة صريحة. لا أكثر من غمغمة مصحوبة بابتسام.

– بلال يحبّ أن يبقى، قلت، وهو يريد أن يتصفّح الكتب في مكتبة جدّه.

كان الصباح ما يزال منعشاً. شمسه الطريّة، المضيئة مربّعاً، أو مستطيلاً، من بلاط الأرض، اقتربت من أرجلنا وهي لن تتأخّر أكثر

من دقائق قليلة لتصل إليها. إلى رجليها أوّلاً، المضمومتين والمنكشفتين حتّى الركبتين.

– هذه هبة، قالت ناظرة إلى الممشى.

كانت هبة ما تزال نصف نائمة، تعرك عينيها بيديها الاثنتين، وهي، حين وصلت إلينا، تقدّمت لتوّها إليّ ووقفت بين رجليّ، مديرة وجهها إلى من في الغرفة. وقد قامت زوجة أخي لتقبّلها أو لتحملها، مقرّبة يديها منها، لتصير هكذا قريبة منّي، وليصير صدرها، بعد انحنائه، قريباً منّي هو أيضاً.

وقد تمنّعت هبة برفع كتفيها وإخفاضهما، مرّة بعد مرّة، ثم أدارت وجهها وجسمها إليّ كأنّما لتختبئ فيّ. "أنا معي شوكولاته"، قالت زوجة أخي فيما هي تستدير لتُخرج الشوكولاتة من جزدانها. "هذه هي"، قالت، فيما هي تمسكها بين إصبعين من يدها وتهزّها كأنها خشخاشة ستحدث صوتاً.

تريّثت هبة لثانيتين أو ثلاث ثمّ، فجأة، مدّت يدها لتخطف الحبّة المغلّفة بغلاف فضيّ لامع.

– بوسيها يا هبة، بوسيها وقولي ميرسي.

لم يسبق لزوجتي أن لفظت هذه الكلمة من قبل. كانت تعرفها لا بدّ، ليس من رفيقتها المعلّمة وحدها، بل من كثيرين آخرين سمعَتْهم يقولونها. لكن أن تقولها، أن تتجرّأ على قولها، فهذا يعني استعدادها لمجاراة أعرف أنّها لن تبلغها أبداً.

قبل أن ينتهي بلال من شرب فنجانه عاد مرّة أخرى، مطيعاً ما قلته، إلى خزانة الكتب. وأنا، ممازحاً أمّه، قلت لها إنّه ربما يرغب في

أن يكون مثل جدّه وعمّه. ابتسمت، ثمّ حرّكت يديها الاثنتين بما يعني أنّه قطعاً لا يريد ذلك. وقد علّلت ذلك بقولها إنّه يقضي أكثر وقته أمام المرآة محدّقاً إلى وجهه وثيابه ومصفّفاً شعره.

– ستتغدّى هنا، قالت زوجتي فيما هي تتردّد في القيام.

– لا... لا، قلنا للسائق أن يأتي ليأخذنا قبل الظهر.

– ما كنت أنتظره ليس موافقتها على البقاء بل أن تذهب زوجتي إلى المطبخ من أجل ذلك. وهي، زوجتي التفتت إليّ لكي تعرف منّي ماذا عليها أن تفعل. لم أجب بشيء، تشاغلت عنها وعن زوجة أخي بالنظر إلى بلال، وكأنّ أمر بقائها لم يعد يهمّني.

– أنا سأقوم على كلّ حال، قالت زوجتي.

– كيف ترى الكتب يا بلال؟

– صعبة، أجابني ملتفتاً إليّ.

– أكثر من صعبة، قلت مبتسماً، بل وضاحكاً، متذكّراً عناوينها التي لا بدّ توجع رأسه.

– أنت قرأتها كلّها؟

– لا أحد يقرأ الكتب كلّها.

– حتّى جدّي؟

– جدّك لا أعرف، يمكن.

هناك، مواجهاً خزانة الكتب، بدا أنّه يقف لإرضائي فقط.

– يجب أن نذهب لنقرأ الفاتحة، قلت له، قبل أن ألتفت إليها، كأنّني أدعوها، هي أيضاً، إلى خروجنا معاً، إلى مجرّد خروجنا معاً، وليس لقراءة الفاتحة على القبر.

– نقوم، قالت، وهي بدأت لتوّها بالقيام مسوّية ثيابها ممّا قد يكون أحدثه بها الجلوس.

* * *

كان من تولّوا إجراء الدفن قد أقاموا خيمة صغيرة بجوار التراب الذي لم يُقم فوقه القبر بعد. وحين صرنا قريبين منها سمعت صوت المقرئ الذي في داخلها، ضعيفاً واهناً كأنّه ما زال يقرأ، من دون استراحة، منذ أوّل الليل. كانت هي تسير متمايلة في ممّرات المقبرة المتفرّعة الضيّقة، وتتوقّف كلّما خطت خطوتين أو ثلاث، كأنْ من أجل أن تبقي على توازنها الذي يربكه مشيها بكعبها العالي. وكان يخطر لي أن أمدّ إليها يدي، لكنّني كنت أتردّد خوفاً من أن نظهر لأحد يسير على الطريق قرب المقبرة. كما كان بلال يسير وراءها، مهيّئاً يديه، هو أيضاً، من أجل أن يسرع إلى الإمساك بها إن تعثّرت.

سألتني، حين صرنا قريبين من الخيمة، إن كان الرجل قد قضى الليل كلّه هنا. من الداخل، رفع الرجل عينيه عن القرآن لينظر إليّ من تلك الفتحة، لكن لأقلّ من ثانية لم تنقطع معها تلاوته. كان القنديل الذي بجانبه لا يزال مُضاءً، وأنا قلت له، بعد أن أبعدت رأسي عن تلك الفتحة، إنّ الدنيا أضاءت في الخارج. لا أكثر من ابتسامة خفيفة، وقد أسرعتْ إلى إخفائها ناظرة إلى التراب الأحمر الرطب الممهّد على الأرض. ثمّ انحنيت أنا لأقرفص وأمسك بيدي كومة من التراب ولأذروها من بعد، فيما أنا أقرأ الفاتحة. وقد تبعني

بلال بأن بسط يده على التراب وراح يقرأ الفاتحة مبقياً يده هناك. وحين وقفنا، سألته إن كان يحبّ جدّه. لم يعرف بماذا يجيب، و لم يبدُ عليه التأثّر لكونه قرأ الفاتحة على تربة جدّه. أنا أيضاً فعلت ما فعلته من دون أن أفكّر في أبي أو أتخيّله راقداً هناك في الأسفل. كنت منجذباً إلى وقوفها القريب منّي، مستعيداً مشيتها المتمايلة المتعثّرة بين القبور، تلك التي أبدتها كأنّها تحثّني على أن أمدّ يديّ إليها لأسندها من الوقوع. وقد أغبطني ظنّي أنّها تظهر لي ضعفها أمامي، هكذا عن قصد، كأنّما لتبدو لي هكذا، امرأة محتاجة إلى حماية رجل.

لكنّها لم تكن مثلما تكون النساء حين يقفن بإزاء القبور. لم تذرف دمعة واحدة و لم تقل كلاماً عن أبي. بل بدت لي كأنّها أبقت على أثر من تلك الابتسامة التي لازمتها في مشيها المتمايل. وأنا لم أشأ أن أبقيها طويلاً هناك، واقفة منقّلة نظرها بين التراب الرطب أمامها والقبور الأخرى حوله. سألتها بحركة من رأسي إن كانت تحبّ أن نعود. وهي أجابتني بحركة مماثلة من رأسها. و لم نكن قد ابتعدنا إلا ثلاث خطوات أو أربع عن القبر، حين نطقت بتلك الكلمة الأولى: "كان عليّ ألّا أجيء بالكعب العالي". وهي أرفقت ذلك بأن أمالت جسمها إلى ناحيتي، لكن من دون أن تترك نفسها تلتصق بي. ثمّ قالت لبلال أن يعطيها يده، فرجع إليها بعد أن سبقنا خطوات ليكون أمامنا. حتّى هو، بلال، كان يعرف، أو يحدس، أنّ هناك ما يتعدّى المشي العادي، وأنّنا لسنا كما ينبغي لنا أن نكون. "أمسك بيد أمّك يا بلال"، قلت له في الوقت الذي كان قدّ مدّ يده إليها.

وحين صرنا في السيّارة، بقي مبعداً نفسه عنّا، مسرعاً إلى إدارة وجهه من النافذة ليصير مستغرقاً في ما حوله في الخارج. قال لي، فيما لا يزال مرسلاً وجهه إلى الخارج، إنّ ضيعة الشقيفيّة حلوة، ليضيف بعد ذلك، كأنّما بينه وبين نفسه، إنّها حلوة لأنّ فيها شجر كثير.

وقد أجبته أنا، لكي لا نبدو منفصلَيْن عنه، أو لكي لا يبدو متكلّماً وحده، بأنّ الشجرات التي في الطريق إلى بيتهم جميلة هي أيضاً. في السيّارة، وهي جالسة إلى جانبي، أعادت لوجهها ملامح الجِدّ وجعلت تبدو كأنّها ذاهبة إلى المكان الذي لا تحبّ أن تكون فيه. وهي لم تتأخّر في أن تقول ذلك بالكلام:

– لا أحبّ أن أبقى، أفضّل أن نرجع.

وأنا عرفت أنّ ما يخطر لها هو وجه زوجتي، ذاك الذي رحت أتخيّله طويلاً وجافّاً ولا تنمّ ابتسامته عن شيء.

وإذ بدا لها أنّني فهمت عدم رغبتها في البقاء، وذلك بهزّة موافقة من رأسي، قالت لي، بصوت حرصت على ألّا يصل إلى بلال

– نلتقي عندنا أحسن.

وبعد هزّة أخرى من رأسي، خفيفة ومتكرّرة، مدّت يدها إلى ناحيتي، داعية إيّاي إلى أن أحتضنها بيدي. وقد أطالت إبقاء يدينا متحاضنتين ضاغطة إحداهما على الأخرى. وبصوتها الهامس ذاته قالت لي إنّها ستعود معي إلى بيتنا، لكن فقط من أجل أن تقول كلمة وداع لزوجتي.

– شرط أن أوصلكما بسيّارتي.

– لا، اليوم سيأتيك ناس كثيرون، نحن سنعرف كيف نذهب.

* * *

كان يجب أن يموت وهو في زمن نشاطه وصخبه. نسي الناس كيف كان يسير في مقدّمتهم معرّضاً نفسه للبنادق المصوّبة عليهم، كما نسوا كيف كان ظهوره على المنابر في الحسينيّات وكيف كان لا يأبه لأولئك الذين يُسمّون رجال الدولة الكبار. كان ذلك يحتاج إلى قوّة، ليس قوّة الغضب وحدها بل قوّة العصب. حين بات قريباً من عمر السبعين صار يقول لي إن أهل البابليّة يرسلون له لكي يتكلّم في عزاءاتهم، وإنّه متعب فلأذهب أنا بدلاً منه. وكنت أنا أذهب، فأكون عندهم، على منبرهم، كأنّني أنا وهو في الوقت ذاته. أقصد أنّهم كانوا يلاقونني، محتفلين بي أكثر مما لو كنت قد جئت أنا من دون إرساله لي. أنا وهو في وقت واحد. أتكلّم ببعض وهرته وليس بها كلّها، أما صوتي فيكون صوتي وصوته معاً، إذ إنّني منذ أن بدأ الناس يقولون لي "أحسنت... أحسنت..." كنت أعرف أنهّم يستحسنون تقليدي لصوته ونبرته.

لقد أنساهم إيّاه كبرُهُ ومرضُه من بعد كبرِه. وأنا أقول إنّني أنا أيضاً كنت من بين الأمور والأشياء التي دفعتهم إلى نسيانه. الناس، حين يحتشدون في الجنازات، يكون ذلك من أجل مَن بقي لا من أجل مَن رحل. كان عليّ أن أكون مثلما كان، أو أن أفعل مثلما كان يفعل حتّى أبقيه معروفاً بينهم، أو حتّى يكون مستمرّاً فيّ مثلما يُقال في الكتب. لكنّني تكاسلت، اكتفيت بالشقيفيّة وبأهلها. بل إنّني قصّرت في ما كان ينبغي أن أفعله بهذه الضيعة الواحدة. حين كان الناس يقولون

إنّني إمام الشقيفيّة، مسمّين ما أنا فيه، كنت أرى أنّهم يشعرون، هم أنفسهم، بكبر الاسم وفضفضته. إمام الشقيفية مثلما كان عمّي السيد عقيل إمام العبّانية التي لم يكن أهلها القليلون يحتاجون إليه لأكثر من ميتاتهم وزيجاتهم.

في جنازة أبي، رأيت أنه لم يكن هناك لزوم لتلك الصور التي طبعناها، إذ إنّها لم ترتفع إلّا فوق رؤوس قليلة. لا بدّ أنّ أحداً هناك، في الجنازة، كان يقول : أهذا هو من كان يخيف الحكومة؟ أهذه جنازته؟

"لأنّك ولده الوحيد" قال لي أبو عاطف الشامي، أحد الرجلين اللذين يجالسانني في الجامع "... في الجنازات الكبيرة يكون الإخوة سبعة أو ثمانية" أضاف، قاصداً الإخوة المتفرّقين الذين لكلّ منهم عائلته ومعارفه. أنت وحدك، قال لي، بل وربّما اقترب من أن يقول إنّني وحدي وإنّ الشقيفيّة هذه ليست ضيعتي.

وكان أبو عاطف يقول لي، كلّما أتت امرأة من وراء الباب حاملة صينيّة القهوة، "اجلس... اجلس، ابقَ مرتاحاً يا مولانا". وهذه أيضاً (مولانا) أجدها كبيرة عليّ بين الجمع القليل الذي حولي. لكنّني مع ذلك أجلس وأتركه يأخذ الصينيّة من يد المرأة ويروح يديرها على الجالسين. كان ينبغي أن أفعل ذلك بنفسي، أن أفعل كلّ شيء بنفسي... أن آخذ أبي، جثّة أبي أقصد، إلى النجف على الرغم من أنّه لم يوصني بذلك. كان يريد ذلك لا بدّ، لكنّه كان يعرف أنّه يكون يربكني إن فعل. كما أعرف أني، إن ذهبت به إلى هناك، سأرهق نفسي وأرهقه هو، وإن ميتاً. أجدني وقد أرهقت وتعبت من مجرّد التفكير في الطريق التي كنت، في ما سبق، أظلّ أيّاماً أعدّ نفسي لمشاقها قبل أن أقطعها،

فكيف سيكون حالي الآن وهو معي، راقد في نعشه.

ربّما كنت قد ذهبت به إلى هناك لو لم أكن وحدي. لو كان أخي عدنان ما زال حيّاً لم يمت لكنّا ذهبنا معاً فيساعدني وأساعده. أقول له أمسك من هنا، فيرفع النعش بيديه القويّتين اللتين مرّنهما بشغله في السيّارات. وكنّا سنقف نحن الاثنين إلى جهتي النعش، أنا إلى جهة وهو إلى جهة. وكان رجال كثيرون سيرافقوننا بسيّاراتهم ولا يتركوننا إلا حين نصل إلى الحدود. ذاك لأنّنا سنكون اثنين وليس واحداً. الاثنان، حين يكونان معاً، لا يكونان واحداً وواحداً، واحداً زائداً واحداً، بل يكونان أكثر من ذلك، إذ سيُضاف إليهما آخرون يأتون منضمّين إلى الشراكة التي بينهما.

لكنّني وحدي، ولده الوحيد كما قال أبو عاطف الشامي. لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك لأنّني وحدي، هكذا سأجيب أخي حين يظهر لي وجهه، المبتسم على أيّ حال، ليقول لي إنّهم كانوا قليلين في جنازته، هكذا، أقلّ ممّن كانوا في جنازته هو. لأنّه كان حيّاً، والذين جاؤوا إنّما جاء أكثرهم من أجله. لكنّك لم تفعل شيئاً، يقول لي، حتى إنك لم تضع كتفك بين أكتافهم حين رفعوا النعش. وهو، فيما يقول ذلك، ظلّ على ابتسامته ذاتها، تلك التي لن يبدّلها حتى حين سيقول لي إنّني، فوق ذلك كلّه، رحت أفكّر في زوجته حتّى فيما كانوا يحيطون بي وأنا أسير وراء نعش أبي في الجنازة.

* * *

صار المعزّون أقلّ في اليوم الرابع لموته: بعض الرجال من الضيعة ظلّوا

يتردّدون عليّ في غرفة الاستقبال ليقوموا بخدمة الضيوف، وآخرون بعضهم من رجال الدين الذين تأخّر علمهم بموته فأتوا من ضيعهم. وأنا كنت أنزل كلّ يوم لأقرأ الفاتحة وأرى الرجل المقرئ في خيمته التي بالكاد تتسع لجسمه. وحين أعود أجد رجلين أو ثلاثة رجال في البيت منتظرين عودتي. قالت لي زوجتي إنّه كان من الأحسن أن أدعو الناس إلى ذكرى الأسبوع فيأتون كلّهم معاً. أبو عاطف الشامي راح يقول لي ذلك أيضاً، لأنّ الناس هكذا يفعلون في العادة، كما كان يضيف.

وكانت تقول لي زوجتي، بعد يوم واحد من الجنازة، إنّني يجب أن أعامل الصبيّين معاملة الكبار فلا أهمل إخبارهم بموت جدّهم. عليك أن تخبرهم، هم صاروا كباراً ويفهمون، تقول فيما هي تصوّب إصبعها إلى أعلى رأسها. وهي، إذ رأت أنّني لا أفعل إلّا أن أطرق برأسي متّخذاً هيئة من يفكّر ماذا عليه أن يفعل، أرسلتْ إلى السائق كي يأتي بهما من مدرستهما.

غداً صباحاً يكونان هنا، قالت لي فيما أنا أستدير عن الباب الذي وقفتُ عنده لوداع معزّين. كان وجهها قريباً إلى وجهي، وهي بدت كأنّها تنتظر أن أردّ على ما ينبغي لي أن أعتبره تحدّياً منها. لم أفعل أكثر من أن أدرت وجهي عنها، تاركاً إيّاها على وقفتها تلك.

كنت مشتاقاً لهما. منذ أن أُخذا إلى تلك المدرسة لم أرهما أبداً. ربما كنت أُكثر من وقت غيابهما هناك لكي أراهما، حين يأتيان، وقد غيرهّما كثيراً ما تعلّماه. حين جيء بهما في اليوم التالي رأيتهما وقد

كبرا، خصوصاً ابني أحمد الذي لم يكن كبره في جسمه وحده بل في ملامح وجهه التي جعلته يبدو مثل الأولاد الذين يكبرونه عمراً. كانا عارفين بموت جدّهما. أخبرهما السائق الذي أتى بهما. كانا مطرقين حين دخلا، ناظرين إلى الأسفل لكي يتجنّبا النظر في الوجوه. "ما شاء الله... ما شاء الله" صار يقول الذين يعرفونهما من الشقيفيّة. وفيما هو لا يزال على إطراقته، انحنى ابني أحمد على يدي ليقبّلها، وكذا فعل أيمن، مقلّداً ما فعل أخوه. وأنا، بعد أن صارا واقفين أمامي لا يتحرّكان، قبّلت أحمد على جبينه ورأسه، وهو، فيما أنا أرفع رأسي عنه، رأيت نظرته إليّ. حتّى نظرته تغيّرت، بل وربّما تغيّرت عيناه اللتان باتتا مشوّشتين وأعمق سواداً ممّا كانتا. لقد غيّرته معاشرة الناس الآخرين، قلت في نفسي، مربتاً على كتفه لأنتقل من بعده إلى أخيه.

ولم أشأ أن أجرّب، أمام الرجال الثلاثة أو الأربعة الجالسين، مخاطبتهما بالكلام لأعرف إن كانت المدرسة قد فعلت شيئاً. فقط قضيت وقتاً أنظر إليهما واقفين أمامي ثمّ، لكي لا أطيل حرجهما، أحطتهما بيديّ وسقتهما إلى خارج غرفة الاستقبال. في الممشى قرصت خدّ أيمن مداعباً فرفع عينيه نحوي، هامّاً بأن يطلق ابتسامة. وحين صرنا عند باب المطبخ حيث كانت أمّهما، أوقفتُهما وأنا لا أزال محيطاً بهما، وأدرت وجهيهما لتراهما، موجودين هنا في البيت. ابتسمتْ، لكن لهما وليس لي، أو أنّها عرفت كيف تبقي ابتسامتها لهما ولا تتعدّاهما إليّ. وحين تقدّمت بهما بعد ذلك إلى الغرفة التي كانت لأبي، التفتّ إليهما وحرّكت أصابعي المضمومة

باتّجاه فمي، سائلاً إيّاهما هكذا إن كانا جائعين، ومختبراً، في الوقت نفسه، بأيّ طريقة سيكون ردّهما.

لا أكثر من أن رفعا رأسيهما نافيين. بل إنّ أحمد مسح كفّ يده ببطنه علامة على أنّها توجعه وأنّه لا يريد أن يأكل الآن.

– بطن أحمد توجعه، قلت لزوجتي من أمام باب المطبخ.

– هذا من الطريق، أجابت بعد أن نظرت إليه نظرة سريعة.

ثمّ، بعد أن ربتّ على كتف كلّ منهما، تركتهما هناك، عند باب المطبخ، وذهبت إلى ضيوفي، تاركاً ما أحبّ أن أعرفه عن الولدين إلى وقت آخر.

* * *

ليس ذلك هو الكلام، وليس هو أوّل الكلام أو مقتبله. ما زالت هي الأصوات ذاتها التي أعرفها، تلك التي تصدر من أسفل الحنجرة أو من قاعها العميق، وتخرج كما هي، مثل شيء خام لا يقدران، لا هو ولا أخوه، على أن يرقّقاه أو يهذّباه. بل إنّني لطالما كنت أتساءل إن كانا يعرفان أنّ أصواتهما تطلع ويعرفان أن من يكونون حولهما يسمعونها. كان عليهم هناك في المدرسة أن يعلّموهما كيف يوقفان تلك الأصوات أوّلاً. أن يتركاها حيث هي، هناك في قاع الحنجرة، وأن يبدأوا تعليمهما الأصوات الحقيقيّة، الأصوات التي يألفها الناس، قبل أن يعلّموهما الكلام.

ذاك أنّ الكلمات التي تعلّما قولها، وهي قليلة على أيّ حال، تطلع مصحوبة بتلك الحشرجة. "أبي" قالها أيمن مشيراً بيده إليّ، بالألف

الغريبة والباء المضخّمة التي احتاج إلى أن يُقفل شفتيه إقفالاً تامّاً من أجل أن يوقفها. قالت لي أمّهما إنّهما ما زالا في أوّل تعليمهما، وإنهما، مع الوقت، سيصبحان قادرين على أن يقولا الجمل كما هي، كاملة. وإنهما سيكتبان أيضاً.

أنت "أيمن" أقول له فيما أنا أشير بإصبعي إليه، مبالغاً في لفظها، محرّكاً شفتيّ وذقني كأنّني أقلّد أحداً لا أعرفه. وهو يجيبني بكلمة "أبي" ذاتها، المضخّمة الغريبة، بطريقتها ذاتها. أبتسم له أنا، لكنّني أروح أفكّر كم من الوقت سيستغرق تعليمهما طالما أن لا سبيل إلى إدخال الكلام إلى رأسيهما إلّا بقدر من التعب الذي أحسّه الآن أنا نفسي، ثقيلاً ومرهقاً.

قالت أمّهما إنه ليس ضروريّاً أن آخذهما إلى قبر جدّهما، وإنّ هذه من أنواع الواجبات التي نستطيع أن نعفيهما منها. لكنّني، حين سألتهما، ظهرا لي قابلين، بل راغبين. فقد جعلا، منذ أن فهما سؤالي لهما عن ذلك، يهزّان رأسيهما هزّات متسارعة. حين خرجنا من بوّابة الحديد، بدا لي أحمد وقد كبر عن البنطلون القصير الذي يلبسه. بدت رجلاه أكثر غلظة مما تكون عليه أرجل الأولاد، ورحت أفكّر فيما هو ينقلب إلى الجهة الأخرى من السيّارة أنّه لا يعرف ربما أن يقرّر بنفسه متى يجب أن يتخلّى عن البناطلين القصيرة. وهو، حين جلس على المقعد بجانبي، لم يكن متحسّباً أن يحتجّ أخوه على جلوسه هو في الأمام. بدا لي كما لو أنّ أيمن قد سلّم له بكبره عنه، أو ربما كانا مأخوذين بحيائهما منّي بسبب فترة الابتعاد.

ظلّا على جلوسهما ذاته ونحن في طريقنا إلى الجبّانة. وحين أوقفت السيّارة عند مدخلها نزلا متمهّلين مبطئين. مشيت أنا فلحقا بي ليصيرا ماشيين بجانبي. وعندما صرنا في الدرب الضيّقة التي تعترضها القبور، صرنا نسير واحداً وراء الآخر مثل قطار.

– هنا، قلت فيما أنا أشير إلى رقعة التراب الأحمر الرطب. كان الرجل المقرئ لا يزال في الخيمة الصغيرة، ساكتاً هذه المرّة. حين أحسّ بقدومنا أخرج رأسه من فتحتها ونظر إليّ وإلى الصبيّين، ثمّ أعاد رأسه إلى الداخل. ضمّ أحمد كفّيه المفتوحتين وراح، مثلي، يتلو سورة الفاتحة. وقد تبعه أخوه في ذلك، بادياً كأنه يقلّده تقليداً. و لم يكن أحمد ينبس بما يدلّ على أنّه يستذكر كلام السورة. فقط اليدان المفتوحتان والعينان الناظرتان فيهما. ثمّ إنّه، مثلي أيضاً، مسح بيديه وجهه في ختام التلاوة.

لم يُظهرا حزناً ولا ارتباكاً وهما أمام التراب الذي يرقد تحته جدّهما. كنت أعرف أنّ ما يشعران به لن يُظهراه هنا في الجبانة. لكنّني، مع ذلك، لم أكن لأعرف في ماذا يفكّران، وما إن كان يحزنهما حقّاً موت جدّهما. حين التفتّ إلى الخيمة لأسأل المقرئ أين صاروا في بناء القبر،التفتا مثلي لينظرا إلى حيث أنظر. قال لي إنّه سمعهم يقولون إنّهم ينتظرون أن ينتهي النقّاش من حفر الشاهدة. ثمّ خطر لي أن أسأله إن كان سيبقى هنا حتّى ينتهوا من وضعها، لكنّني عدلت لأنّه سيفهم ربما أنّ ما أقصده هو أنّه يُطيل بقاءه ليُكثر أجره.

ثمّ، حين عدت والتفتّ إلى التراب الأحمر لألقي نظرة ما قبل الذهاب، فعلا مثلما فعلت، ثم تبعاني عائدين إلى السيّارة التي هناك.

حين بلغناها، صعدا، كلّ من بابه، من دون أن يتنازعا، هذه المرّة أيضاً، على الجلوس. وأنا أدير المحرّك خطر لي أنّهما اختلفا عمّا كاناه. الشهور القليلة التي قضياها هناك أبعدتهما عنّي. لم يقترب منّي أيّ منهما ليمسك بيدي مثلاً، و لم يسألني أحدهما عن شيء. وقبل أن أستدير بالسيارة لأرجعها إلى طريق البيت جرّبت أن أقرّبهما إليّ. مددت يدي إلى الوراء وأسبلت كفّي داعياً أيمن إلى أن يهوي عليها بكفّه. تأخّر قليلاً، وحين فعل بدا وقع كفّه خفيفاً متردّداً ولا أثر فيه لحبّ اللعب. لا يهمّ، قلت، سأحاول أن أصلح ذلك في اليوم ونصف اليوم الباقيين لهما هنا.

* * *

قالت لي زوجتي إن من الأفضل لي ولها أن أستقبل من قد يأتي من المعزّين في الجامع. "هكذا تكون تتقبّل العزاء وتقوم بشغلك"، ملمحة بهذا إلى أنّني لا أفعل ما يجب عليّ أن أفعله. وقد وافقني ما قالته، فقد أضجرني بقائي في البيت طيلة النهارات التي مضت.

كان الجامع خالياً كعادته، وأنا، لكي يعلم الناس أنّي ماكث فيه، فتحت درفتي بابه على وسعهما. ذاك أنّ مَن سيقصدونه من الناس، هكذا من تلقائهم، لن يأتوا قبل وقت الصلاة. كان عليّ أن أنتظر، جالساً في مواجهة الباب المفتوح الذي لا يضيء داخل الجامع إلّا قليلاً. سيأتي المعزّون، وبينهم أولئك القليلون الذين يتردّدون كلّ يوم، إلى البيت أوّلاً. "هو في الجامع" ستقول لهم زوجتي من وراء الباب المشقوق. نصف ساعة أخرى ويصلون، أو ربما ساعة. وأنا

سأبقى منتظراً، إذ لا شيء في الجامع قد يُلهي أو يُشغل.

"مثل جامع الحجّ"، كنّا نقول عن الجوامع الفارغة والتي ليس فيها إلا إبريق الوضوء. ربما ينبغي أن تكون هكذا، خالية لا شيء فيها من أجل ألا يتلهّى المصلّون عن صلاتهم وألا ينصرف المتعبّدون عمّا جاؤوا من أجله. لا شيء هنا، إلّا الحصر المفروشة على الأرض وتجويف القبّة التي، كلمّا رفعت نظري إليها، أروح أتساءل كيف أمكن لهم، هم أهل الشقيفيّة، أن يرفعوها هكذا وأن يمكّنوها فلا تسقط على أرض الجامع. هنا، تحت القبّة، لا أجدني متأمّلاً إلا في القبّة ذاتها. في أحيان أقول إنّني هكذا لأنّني أعرف الجوامع فلا تأخذني رهبتها ولا تزيحني عمّا يشغل عقلي وأنا هناك خارجها. ولا أحسب أنّ أبو عاطف الشامي ورفيقه يشعران بغير ذلك حين يكونان هنا، متحدّثين عن أهل الضيعة، نامّين عليهم، من أجل أن يضحكا ويضحكاني. حتىّ أولئك الكبار الذين يأتون للصلاة فقط وللقعود بعد الصلاة، لا يتغيّرون كثيراً عمّا يكونون عليه وهم جالسون في الساحة منتظرين أن يعبرها أحد حتّى يطيلوا التحديق فيه والوشوشة عليه.

وأنا مثلهم، ما يتصوّر لي وأنا في البيت وحدي أتصوّره هنا. أن أدخل إلى بيتها وأغلق الباب خلفي، بظهري وليس بيدي، إذ أكون مديراً وجهي إليها وهي مقبلة نحوي، مسرعة، لكي لا تتأخّر عن معانقتي. أو أتخيّل وجودي معها من منتصفه، كأن أرى نفسي، هكذا من دون أيّ شيء سبق، جالساً على حافّة السرير وهي ممدّدة عليه، عارية، ناظرة إليّ، تلك النظرة التي تصحّ أن تكون بداية لما

سنفعله أو أن تكون نظرة الانتهاء ممّا فعلناه. أو أجد نفسي في وسط ذلك، في منتصفه، أو مقطّعاً مشاهده قطعاً صغيرة أتنقّل بينها في سرعة المحموم. ولا ينتهي ذلك إلّا حين أعود أفكّر في أنّ أحداً قد يجيء إلى الجامع. تصير نظرتي قد تبدّلت إلى القبّة فأقول إنّ اللون الأزرق الذي طليت به صار حائلاً وميّتاً، فأروح عندها أتخيّل رجلاً مرفوعاً على سقّالات يغطّ فرشاته العريضة في سطل الدهان ويروح يمسّحها فوق ما بقي من اللون.

* * *

ما نقص منّي بعد العمليّة لم يخفّف شهوتي نحوها و لم يهدّئ تلك الصور التي تأتيني عن جسمها. تلك الشهوة ما زالت باقية كما هي، لم تمسّ. لكنّها لن تكون كاملة إلا في التخيّل، حين أكون وحدي. أعرف أنّ ما نقص منّي سينقص من شهوتي حين أصير معها، في غرفة مقفلة: هي على السرير، عارية، وأنا قاعد على حافّته. إن حدث ذلك حقّاً، فسيكون لنظرتها معنى مختلف، مثل أن تكون تسأل لماذا أتردّد أنا، ولماذا ما زلت مرتدياً دشداشتي. أو ربما تعني نظرتها توقّع الخيبة قبل حصولها. تلك النظرة المتسائلة التي تحتاج إلى أن تكون العينان فيها متسعتين، محمّلتين بمشاعر من بينها الحيرة والاستراحة الخائبة التي ستقوم هي عن السرير من بعدها، لتسرع في لمّ ثيابها عن الأرض، ولتجمعها مثل كرة لتغطّي بها بطنها وما يعلو بطنها وما هو منخفض عنها. وأكون أنا واقفاً منتظراً أن تبتعد عنّي ولا أراها بعد ذلك إلا جالسة على كنباية في الصالون، مرتدية ثيابها كلّها.

بسبب ما نقص منّي بعد العمليّة ينبغي عليّ أن أظلّ في ما يسبق وجودنا معاً في تلك الغرفة المقفلة الباب. أقصد أن أتصرّف كأن لا شيء بي ولا ينقصني شيء. عليّ أن أتوقّف مباشرة قبل أن ينقفل باب الغرفة، بل وحتّى قبل العناق الذي يعقبه أن تمتدّ الأيدي المعانقة إلى ما يتعدّى انطراحها على الأكتاف.

لكنّني في كلّ الأوقات التي تسبق ذلك أكون مثل رجل تامّ. بل أكون رجلاً تامّاً حقيقة، إذ لا تنقصني تلك الشهوة. هي موجودة، ومتحفّزة، لكنّها، في لحظاتها الأخيرة، لا تجد باباً مشرّعاً للخروج.

الحدّ الذي ينبغي أن أتوقّف عنده هو حدّ ما قبل الوصول، حدّ ما قبل الذروة. وهذا ما ينبغي ألّا أكثر التفكير فيه الآن. ما سأفكّر فيه هو ما تدفعني رغبتي إلى القيام به: أن أركب سيّارتي وأذهب إلى بيتها، وألا أوقف خيالات الشهوة التي تأتيني على الطريق. وسأسرع حين تشتدّ الشهوة، كما لو أنّني، حين أصل، سأفعل كلّ ما خطر في رأسي من صور، كأنّني أنسخه نسخاً على شاكلة ما كان يتخلّق في رأسي.

أقول مثلاً إنّني غداً، بعدما يرحل الولدان، سأذهب من فوري إليها، وسأجدها منتظرة هذه المرّة، ومهيّئة كلّ شيء لوصولي.

* * *

قرّرت أن آخذ الولدين إلى بيروت بنفسي. قلت إنّني هكذا أغيب النهار كلّه عن البيت فلا أرى زوجتي ولا المعزّين المتأخّرين الذين

ستقول لهم زوجتي إنّني أخذت الولدين إلى مدرستهما في بيروت. رحت أنتظرهما في الأسفل، محمّياً محرّك سيّارتي، ثمّ نافضاً الغبار عنها بمنفضة الريش. تأخّرا. فكّرت أنّ أمّهما تزوّدهما في الأعلى بإرشادات لتعرف إن كانا سيعملان بحسبها. وحين ازداد تأخّرهما أطلقتُ زمّوراً قصيراً كنت سأعقبه بآخر طويل وزاعق لو لم يظهر ابني أحمد خارجاً من الباب وفي يده كيس صغير ليأكل ممّا فيه إن جاع على الطريق. ثمّ خرج من بعده أخوه حاملاً كيسه هو أيضاً.

هذه المرّة أيضاً لم يتنازعا على مطارح الجلوس. بدا أيمن مسلّماً بجلوس أخيه في المقعد الأماميّ بقربي وهو، من فوره، أسرع إلى فتح النافذة التي ورائي ليبدأ منها النظر إلى الطريق. إلى جانبي كان أحمد مرتدياً بنطلونه القصير إلى منتصف الفخذ، والضيّق كأنه كبر عنه وما زال يرتديه. وقد خطر لي للحظة أن أنزل من السيّارة لأصعد إلى البيت وأسأل أمّه إن كان لديه بنطلون غير هذا، طويل ويغطيّ كلّ رجليه. كانا أكثر غلظة من رجليْ ولد في العمر الذي تُرتدى فيه البناطلين القصيرة. كما كانت كذلك هيئة وجهه وصفنته التي ليست من صفنات الصغار.

كنت أحبّ أن أعرف إن كانا مغتمّين الآن لكونهما ذاهبين إلى المدرسة. لم أسألهما عن ذلك في اليومين اللذين قضياهما في البيت، ربما لأنّي كنت أعرف أنّ ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً لن أصل في نهايته إلى أن أعرف إن كانا مرتاحين في المدرسة. وهنا في السيّارة لن أتمكّن من معرفة ذلك أيضاً طالما أنّي سأبقي عينيّ منتبهتين إلى الطريق

أمامي. إن كان لي أن أعرف شيئاً فمن القصص التي يحكيانها عمّا جرى لهما هناك، مع معلّميهما أو مع الأولاد رفاقهما. وهذا، حكي القصص أقصد، شيء تغيّرا عنه، و لم يبدوا، في اليومين اللذين انقضيا، في المزاج الذي يتيحه.

ولمّا بدا لي أنّهما سيظلّان صامتين هكذا، رحت أفكّر في أنّ ما يُصمتهما هو ذهابهما إلى حيث لا يحبّان. لكنّهما كانا كذلك صامتين ومبتعدين وهما في البيت. ولكي أخرجهما ممّا يستغرق كلّ منهما فيه، أرجعت، مرّة أخرى، كفي مبسوطة إلى الخلف ليخبط عليها أيمن بكفّه. لم يرقه ذلك أيضاً. شاهدته في المرآة يلتفت إلى حيث كفّي ثمّ، بعد تردّد، مدّ يده ليرخيها فوقها. وأنا التقطت كفّه ورحت أهزّها دافعاً إيّاه دفعاً إلى اللعب. ابتسم قليلاً، بل وكاد يضحك حين رحت أحرّك يده مثلما يفعل الأطفال الصغار حين يطلب إليهم تقليد تلويحة الوداع. وإذ لم يلتفت أحمد إلينا، انتقلت إليه وعلّمت يدي على فخذه، مرّة حيث ينتهي طول بنطلونه ومرّة إلى الأسفل، إلى حيث يصل البنطلون الطويل الذي ينبغي له أن يرتديه.

ولم يستجيبا إلى حدّ أن يصيرا يلهوان في السيّارة. لا أكثر من أن يروح أيمن، بين فترة وأخرى، يلكز كتف أخيه ليدير وجهه إليه ويروح ينقل له شيئاً بلغة الإشارات التي يزيدان على ما حصّلاه منها إشارات أخرى تعلّماها في المدرسة. وأنا أنظر في المرآة لأرى أيمن يستعمل أصابعه فوق استعماله ليديه، لكن مثلما يتردّد ويتلعثم ولد ناطق في أوّل حكيه. ولمّا أوقفته عند حركة صالبَ بها إصبعين من أصابعه وحرّكت يدي مستفهماً، احتار كيف يفسّر معنى ذلك لي،

كما احتار أخوه أحمد من بعده، على الرغم من أنّه تدخّل متطوّعاً ليفسّر ذلك لي.

وقد أعجبني أنّهما يتعلّمان شيئاً هناك يتفاهمان به، شيئاً مشتركاً بينهما يصيران يتواطآن به على من يكونون حولهما. لكن سروري بذلك لم يدم طويلاً، فقد خطر لي أنّهما، ليستفيدا ممّا يتعلّمانه، سيكون عليهما أن يعيشا مع الذين هم مثلهما. و لم يعجبني ذلك. فضّلت أن يظلّا مع الذين يعرفونهما وفي الضيعة التي يعرفانها. ثمّ خطر لي وجه جودت، مبتسماً هذه المرّة، وإن ابتسامة خفيفة، وسعيداً لأنّه ظلّ هنا، في الضيعة التي عاش فيها منذ أن وُلد، و لم تنقسم حياته، وهو صغير بعد، فيتحوّل ليعيش مع ناس آخرين.

سأسأل عن ذلك في المدرسة. اليوم سأسأل.

* * *

باستثناء أصوات قليلة أسمعها، خشنة وجريحة، كانت الجلبة تطلع كأنّما من الحركة وحدها. كان الأولاد فائرين في ملعب المدرسة، ينتقل أحدهم إلى هنالك بعد أن كان هناك، ويروح إلى ولد آخر بعد أن كان يفسّر، بحركات من يديه وأصابعه، شيئاً للولد الذي كان واقفاً معه. وقد خطر لي، لكثرة تبديلهم بعضهم بعضاً، أنّ واحدهم يغيّر من هو أمامه لأنّه يبحث عمّن يفهم منه ما يسعى إلى أن يقوله.

و لم أستطع، في تخيّلي، أن أرى ولديّ داخلين بينهم، متنقّلين مثلهم من واحد إلى آخر. فقد تراءى لي أنّ هؤلاء الأولاد قد سبقوهم

جميعاً إلى هنا، وأنهم ألِفوا العيش مع رفاقهم في هذه المدرسة. كان ولداي واقفين حولي، منتظريْن أن أعرف إلى أين نذهب أوّلاً. ولو لم تأتِ المعلّمة مسلّمة عليّ ومبتسمة لهما لكنت تركتهما هناك، في ذلك الممشى الملاصق للملعب وعدت إلى سيّارتي. وقد عرفت المعلّمة ماذا عليها أن تفعل. بحركة من يديها الاثنتين دعتهما إلى أن يتّجها نحو وسط الملعب. ثمّ اتّجهتْ نحوي لتقول لي أن أتبعها إلى حيث إدارة المدرسة.

الرجل الجالس إلى مكتبه ناظراً في الأوراق التي أمامه هبّ واقفاً حين رآني أدخل من الباب. أهلاً وسهلاً بالشيخ، قال فيما هو يمد يده للمصافحة وينسلّ، في الوقت ذاته، إلى جهة المكتب حيث وقفت. وفيما أنا أجلس على الكنباية قلت له إنّني أبو الولدين أحمد وأيمن. لم يكن يعرف أنّي رجل دين، بل وبدا لي أنّه استغرب أن يكون بين الأولاد من كان أبوه مثلي. ولم تتأخّر المعلّمة التي أوصلتني إلى هناك عن العودة لتكون معنا. جلستْ على الكنباية المفردة الخالية وقالت لي كلمات عزاء عن أبي. وأنا، مرتاحاً لاهتمامهما بي ولاستقبالهما، سألتهما ما كنت قد قرّرته:

– في البيت، ونحن في السيّارة أيضاً، ظلّا ساكتين...

وقبل أن أكمل قالت لي المعلّمة إنّها كانت تنتظر أن يأتي أحد، إمّا أنا وإمّا زوجتي، لكي تكلّمنا.

كانت تعرف ما لا يعرفه رجل المكتب الذي تبيّن أنّه مدير المدرسة، لكنّه، مع ذلك، قال لها أن تأتيه بملفّيهما. وحين جاءته بهما بدأ يقرأ ما فيهما من دون أن يرفع نظره أو يظهر على وجهه تعبير يدلّ على

ما يقرأه. وحين أغلقهما عادت هي، المعلّمة، إلى ما كانت تستعد لتقوله.

سألتني إن كانا قبل أن نجيء بهما إلى المدرسة مرتاحين في البيت، وإن كنّا قابلين، نحن أهلهما، بحالهما، وإن كان في عائلتنا، أنا وزوجتي، من هم خرس مثل ولديّ، وهل كان لهما رفاق قبل مجيئهما إلى المدرسة وكيف كان تعاطيهما معهم، وهل لديهما إخوة، وهل من مشكلة تعانيها أختهما...

– نريد أن نعرف كل ذلك، من أجل أن نعرف سبب ما هما فيه، قال المدير معلّقاً، ثم ملتفتاً إلى المعلّمة لتكمل أسئلتها.

كنت، فيما أنا استمع وأجيب، معدّاً نفسي لأقوم وآخذ الولدين معي. ليس من خوفي، بل من شعوري أنّهما لا بدّ متحاملين عليهما.

– لكن ما المشكلة معهما؟

– هما غير مرتاحين هنا.

وقد عرفت أن هذه طريقة ملطّفة يستعملها الناس في المكاتب ليقولوا أشياء أكثر خطراً. لكنّني بقيت مصغياً لما ستقوله بعد ذلك.

ومن دون أن أسألها ماذا تعني بأنهما غير مرتاحين، قالت:

– هما عنيفان.

وإذ بقيت مصغياً، أضافت أنّهما غير اجتماعيّين وعنيفان مع الأولاد الآخرين.

– كلاهما؟ الاثنان؟

– خصوصاً أحمد، الكبير.

– والأولاد الآخرون، ليسوا عيفين مثلهما؟

– يتشاجرون في أحيان، مثل كلّ الأولاد... لكن أحمد وأيمن، وخصوصاً أحمد كما قلت، غير مرتاح أبداً هنا. يظلّان معاً، ولا يختلطان أبداً مع الأولاد. ونحن قلنا إنّنا إن فصلناهما كلّ واحد في صفّ ربما يتغيّران. لكنّهما ظلّا صافنين على الدوام، منتظرين أن يخرجا إلى الملعب ليصيرا معاً.

– لكن كيف هما عنيفان؟

– يهجمان على الأولاد بالدفش وأحياناً يبدوان كأنّهما سيؤذيان من يتشاجران معهم. بل إنّ أحمد ضرب ولداً على وجهه وأسال من أنفه الدم.

فكّرت أنّهما انقلبا إلى أن يضربا بدل أن ينضربا مثلما كان يحدث لهما في الضيعة، وأنّهما لا بدّ يفعلان ذلك للأولاد الذين يغيظونهما.

– لكن كيف يمكن أن يكونا عنيفين كما تقولين إن لم يتكتّل الأولاد عليهم؟

– كلّ ولد جديد يأتي إلى المدرسة يتكتّل عليه الأولاد، لكن بعد يومين أو ثلاثة يتغيّر الوضع ويصير للولد رفاق هنا.

المدير الذي كان قد توقف عن النظر في الأوراق القليلة بين يديه، قال، متأخرّاً عن حيث أصبحنا أنا والمعلّمة:

– أهل الولد الذي نزف من أنفه احتجّوا وهم أصرّوا على أن يخرجوا ابنهم من هنا.

فكّرت أنّ ذلك لو حدث مع أحدهما، أحمد أو أيمن، لما كنّا علمنا بذلك.

– لكن ماذا علينا أن نفعل، قلت بعد أن شعرت بأنّهما يسعيان إلى أن يوصلاني إلى أمر سبق لهما أن قرّراه.

– نحن طبعاً نحبّ أن يعتادا...

عرفت أنّ ما قرّراه هو أنّهما لن يبقيا الولدين هنا.

– ربّما يحتاجان إلى أن يهدآ لفترة.

– لأنّ أحمد ضرب ولداً على أنفه؟

– بل لأنّه قد يكرّر ذلك مرّة أخرى، بل مرّات

لا يريدانهما هنا. وأنا لن أحاول أن أقنعهما بأن يصبرا عليهما أو أن يجرّباهما لفترة أخرى.

– الآن، تريدان أن آخذهما الآن؟

سكتا معاً. لم يجيبا بأكثر من تحريك رأسيهما علامة على أنّهما حائران وأنّهما يتركان ذلك لي.

قمت واقفاً. قلت، ناظراً إلى المعلّمة، إنّني سآخذهما معي. ثمّ أضفت، بلهجة جعلتها آمرة، أن تُعدّ لهما أغراضهما.

لم أعرف أين أنتظر عودة الولدين حاملين أغراضهما، لكنّني مع ذلك خرجت من المكتب الذي كنت فيه لأقف منتظراً عند البوابة المفضية إلى الملعب. وحين عبرتْ من أمامي المعلّمة قلت لها إنّني ذاهب لأنتظر في سيّارتي.

– لكن هناك أمور يجب أن ننهيها مع الإدارة

– عن أتعاب المدرسة؟

– لا، بل أن توقّع على أوراق.
– سأوقّع عليها هنا، قلت مغيّراً وقفتي لأبدو منتظراً الأوراق يأتون بها إليّ.

* * *

لم يتأخّر الولدان في الخروج. تقدّما إلى سيّارتي يحمل كلّ منهما كيس أغراضه القليلة. و لم ينظرا إليّ فيما هما يعودان إلى الركوب حيث كانا، أحمد إلى جانبي وأيمن ورائي. ربما كانا سعيدين الآن، فكّرت، على الرغم من أنّ وجهيهما ما زالا مقفلين كما كانا. ربما ينتظران أن أقوم بحركة، أن يظهر شيء على وجهي لكي يعرفا كيف ينبغي لهما أن يتصرّفا. وأنا لم أتأخّر عن ذلك. أمسكت ذقن أحمد بإصبعين من يدي، وأدرت وجهه إليّ. لم أشأ أن أطيل فزعه. مسرعاً أدنيت رأسي من رأسه ونطحته نطحة خفيفة ثمّ ابتسمت له من بعدها. ابتسم ابتسامة محاذرة، وكذا فعل أيمن في المرآة. ولكي أزيل حذرهما خبطت بيدي على ساق أحمد الممتلئة، ثمّ مددت يدي إلى الخلف، مقلوبة، ليخبط أيمن عليها كفّه. ثمّ أدرت محرّك السيّارة، مرتاحاً قليلاً، ومبعداً القلق إلى وقت آخر.

على الطريق، ونحن في السيّارة، أشعرني بالخجل قولي لنفسي إنّني عدت بهما كما أخذتهما. ظلّا ساكتين على الطريق وأنا لم أعد إلى ممازحتهما، فقد فكّرت أنّهما راضيان هكذا وفرحان لأنّهما أُخرجا من المدرسة التي يكرهانها. ولما رحت أفكّر ما الذي فيهما حتّى يظلّا غريبين عن الأولاد، صارت تخطر لي أشياء كثيرة، من

بينها أنّ فيهما شيئاً يجعل الأولاد يبعدانهما. لكن الأولاد هم مثلهما هذه المرّة، الأولاد الذين سيُقصَون مثلهما إن خالطوا الأولاد الذين لا يشكون من خَرَس. وحين رحت أهجس بأنّ شيئاً فيهما، علّة مثلاً، زائدة على خرسهما، ثقل رأسي ورحت، لكي أخفّف الثقل عنّي، أتذكّر بلال، ابن أخي، الذي، بوجهه الرقيق وشعره الممشّط، يريحني من فور ما تخطر صورته في رأسي.

حين أوقفت سيّارتي قرب بوّابة الحديد تردّدا وقتاً قبل خروجهما منها. كأنهما خجلان من عودتهما، أو كأنّ البيت الذي أُعيدا إليه ليس كما كان، بيتهما. وأنا أشفقت عليهما، و لم أقل لهما أن يسرعا بالنزول بل وقفت منتظراً، من دون حركة أو صوت، كما من دون أن أمدّ يدي إلى أيّ منهما، مساعداً إيّاه هكذا على النزول. حين خطونا عابرين البوّابة إلى الداخل شاهدا أختهما هبة، فنظرا إليها من دون أن يتغيّر شيء في وجهيهما. في أعلى الدرج كانت تقف زوجتي. انتظرت حتى صرنا على قرب درجات منها، لتسألني، بنبرة من كانت تنتظر شيئاً مثل الذي تراه الآن:

– لماذا عدت بهما؟

لم أجب. أكملت صعود الدرجات الباقية وعبرت إلى الداخل مجانباً إيّاها. كانت قد أوقفت الولدين، هناك في آخر الدرج لتسألهما لماذا جئت بهما. وهما لم يجيبا بشيء ربما، فقد عادت إليّ حانقة لتسألني إن كنت قد وصلت بهما إلى المدرسة.

– لا يريدونهما.

– من؟

وإذ تأخّرت عن الإجابة قالت لي حابسة حنقها:

- مَن هم، أصحاب المدرسة؟

- أصحاب المدرسة... والأولاد أيضاً.

سكتت. ربما فهمت ماقلته في لحظة ما كانت تهمّ بأن تسألني شيئاً آخر. بقيت واقفة للحظات هناك عند الباب، ثم استدارت لتذهب إلى الداخل، لتكلّم الأولاد مثلاً، أو لتعود إلى ما كانت تشتغل فيه كما لو أنّ شيئاً لم يحصل.

* * *

بدا أبو عاطف الشامي كأنّه يحذّرني من أمر ما حين قال لي إنّني يجب أن أكثر من تردّدي إلى الجامع. وأنا رأيت في ذلك ما يشبه الاتهام لأنّني كنت أهمل الذهاب إلى هناك حتى أثناء صلاة الظهر. ذلك الاتّهام الذي كنت أنتظره من أحد ما كلّما سمعت الأذان يطلع من صوت المكبّر، أو كلّما نظرت إلى ساعتي قبل عشر دقائق أو ربع ساعة من وقت الأذان ثمّ أتكاسل عن الخروج.

- أعرف... أعرف يا أبو عاطف، لكن...

أوقفني عن الكلام. كان يعرف أنّ ما يقعدني هو تكاسلي...

- ... لأنّهم سيأخذون الجامع، سيحتلّونه

- من؟

- ربما انقطعنا عن المجيء منذ زمن، قال عن نفسه وعنّي لكي لا أبدو أنّني مقصّر وحدي. "يحتلّه رجال لا نعرفهم. يأتون كلّ يوم في العصر ويظلّون هناك في الجامع إلى ما بعد صلاة العشاء".

– رجال من هنا، من الشقيفيّة؟

– لا من هنا ولا من ضيعة الشرقي، قال مسمياً الضيعة القريبة إلينا.

بل قال إنّهم ليسوا من البلد كلّه. ثلاثة رجال أو أربعة يقيمون في بيت بخراج الشقيفيّة، بينها وبين ضيعة الشرقي. وهم ملتحون وإن كانوا لا يرتدون عباءة أو يعتمرون لفّة.

– هم ثلاثة أو أربعة؟

– أحياناً ثلاثة وأحياناً أربعة، وفي أحيان يكونون خمسة.

– هل يجب أن نخافهم يا أبو عاطف، قلت له وأنا أظهر له ابتسامي مستنكراً خوفه.

– أهل الشقيفيّة يتوجّسون منهم. يقولون إنّهم جاؤوا ليخرّبوا ضيعتهم.

لكن ماذا يمكن أن أقول لهم. إنّهم في بيت الله، وسيجيبونني إن سألتهم بأنّهم في بيت الله.

يأتون هم الثلاثة أو الأربعة، أو الخمسة، حاملين قرائينهم ويبقون في الجامع الذي لم يعد يقصده إلّا رجل أو اثنين من عجائز الشقيفيّة. وهم، حين يصادفون أحداً على الطريق لا ينظرون إليه ولا يحيّونه. كأنّهم وحدهم، قال أبو عاطف. وحين يلقي عليهم أحدهم سلامه، من أجل أن يعرف كيف يردّون، يكتفون بتمتمة كلمة أو كلمتين ثم يعودون إلى إمالة رقابهم صوب أكتافهم مظهرين هكذا خشيتهم من الوقوع في الغلط ومخافتهم من الله.

فيما راح أبو عاطف يروي لي تلك الحكايات القليلة عن توجّس

أهل الضيعة منهم، بدا لي، مع كلّ كلمة يقولها، كأنّه يُفهمني أنّني آخر من يعلم بما يجري هنا. روى لي أنّ المعلّمين في المدرسة وجدوا مقاعد التلاميذ مقلوبة وعلى ألواح الصفوف كتبت شتائم، ومن قاموا بذلك أكملوا فعلتهم بأن غاطوا على الطاولات التي يضع عليها الأساتذة أغراضهم. "من سيفعل ذلك غيرهم، قال أبو عاطف مضيفاً إنّ شيئاً مثل ذلك لم يحصل في تاريخ الضيعة".

ليس عليّ أكثر من أن أعيّن أوقاتاً أكون فيها في الجامع، قال أبو عاطف، قال لي أبو عاطف ناصحاً، ثم أظهر عن ابتسامة معابثة قال بعدها إنّه والحاج طالب سيكونان معي فلا أملّ من بقائي وحدي.

– ولنذهب الآن يا سيّد، قال قائماً عن كنبايته نصف قيام ليعرف إن كنّا سنذهب الآن أو نبقى هنا.

* * *

كان الجامع خالياً كعادته. لم يغيّر الرجال الثلاثة أو الأربعة شيئاً. لم يزيدوا على ما فيه و لم يكن فيه شيء ليأخذوه.

– إن عرف الناس أنّك هنا سيأتون.

– لن يأتي أحد يا أبو عاطف. الناس هجرت الجوامع، ليس هنا في الشقيفيّة فقط بل في كلّ الضيع. كنتُ أجيء وكنت أظلّ وحدي، وحدي معكما أنت والحاج طالب. لم يعد شيء يحمّس الناس. كثيرون هنا في الشقيفيّة يقولون إنّ صوت الأذان الذي يطلع من المكبّر يزعجهم. أنا سمعت هذا بأذني. قالوا إنّنا لو نرجع إلى الأذان مثلما كان في أيّام السيّد أمين. وهم، إذ يطالبون بالعودة إلى الصوت

العادي بلا مكبّر، فمن أجل ألّا يسمعوه ولا يسمعوا صوت أذانه.

هم هجروا الجوامع وأنا بينهم صرت كأن لا لزوم لي. لا أكثر من أنّهم يدعونني إلى الصلاة على من يموت منهم وأن أزوّج طالبي الزواج. أولئك الذين يجيئون إلى بيتي يكونون قد فعلوا ما هم في حاجة إلى فعله، وهم لا يريدون منّي إلا أن أفتي لهم بأنّ ما فعلوه حلال ولا جناح عليهم منه. لم يعد الناس يحتاجون إلى الدين ولا إلى رجال الدين. أنا نفسي أجدني في أحيان غريب الهيئة بالعمامة والعباءة، مع أنّني لم ألبس غيرهما منذ أوّل الشباب، كما أجد كلامي غريباً بين كلامهم، إذ أبدو به كأنّني أردّهم إلى الوراء الذي ما عادوا يريدونه.

مكثنا ساعتين في الجامع أنا وأبو عاطف الشامي، وحدنا. هو الذي قال لي إنّ أحداً لن يأتي وإنّ من الأفضل أن نعود عند العصر. قال لي إنّهم سيكونون هنا، أولئك الرجال، وهم، حين يرونني سيعرفون أنّ للجامع إمامه وأنّ عليهم أن يطيعوني، وأني، حين يحين وقت الصلاة سأكون إمامهم هم أيضاً.

– نرجع في العصر، قلت له، مرّ عليّ ونأتي معاً.

ثم، فيما نحن نفترق لأذهب أنا إلى بيتي، التفتّ إليه لأقول له أن يأتي بالحاج طالب معه.

* * *

قالت لي زوجتي، حين عدت في المساء، إنّ أبو عاطف الشامي مرّ عليّ و لم يجدني. "قولي له إنّي جئت والحاج طالب معي" قالها هكذا

ليفهمني أنّني تراجعت عمّا كنت قلته له، بل تخاذلت عن مواجهة أولئك الذين يحتلّون الجامع بحسبه. وكان ذلك صحيحاً. لم أشأ أن أعرّض نفسي بعد الظهر ذاك لما قد يخرجني من المزاج الرائق الذي كنت فيه. لم أشا أن أقف أمامهم سائلاً ولا أن أسمع منهم إنّهم هنا في بيت الله. وربّما لن أستطيع أن أجاري عنادهم فأقول لهم في نهاية الكلام بيننا إنّكم هنا في بيت الله لكن لا تجعلوا أهل الشقيفيّة يسخطون من وجودكم.

كنت قد خرجت بسيّارتي لا لشيء إلّا لكي أبتعد عن البيت فلا يجدني أبو عاطف فيه. وقد هيّأت له جواباً أقوله حين أعود وألتقيه: "جاءني واحد من أهل البابلية وقال لي إنّهم يريدونني هناك". وهو، أبو عاطف، لن يسألني ماذا يريد أهل البابليّة لكي لا يبدو ممتحناً لصدقي، كما سأقول له إنّني لم أنسَ أولئك الناسِ وسأكون في الجامع حين يأتون، غداً أو بعد غد. أردت من خروجي أن أبتعد فقط، ألا أكون في البيت. وإذ سيكون عليّ أن ألتقي هؤلاء الرجال، فلألتقيهم وحدي، من دون أن يكون أبو عاطف ورفيقه شاهدين على ما سيجري بيني وبينهم. ربما غداً، أو ربما بعد غد، سألتقيهم من دونه لأقول له، حين نلتقي في الساحة هنا أو في الجامع هناك، إنّني رأيتهم وكلّمتهم وأُكمل له بعد ذلك بما يحبّ أن يسمعه.

أجّلت ذلك إلى غد أو بعد غد. هذا النهار، أو ما بقي منه، تركته لراحتي، لأجول بالسيّارة وأفكّر، فيما أنا أعبر الطرقات، بأن لم يعد بيني وبينها إلّا أن نكون في مرّة معاً، منفردين في بيتها. لكنّني لن أذهب إليها الآن. لا لأنّي لا أستطيع أن أرفع من درجة رغبتي إلى

الحدّ الذي يجعلني أسرع من فوري وتطير السيّارة بي، بل لأنّني سأترك وقتاً تُسائل فيه نفسها: لماذا لم يأتِ اليوم؟ هل سيأتي في ما تبقّى من الساعات؟ أفكّر هكذا، مثلما يفعل العاشقون والمعشوقون، وإن كنت أميل، بين دفعة تأمّل وأخرى، أن أضغط ضغطة قويّة على دوّاسة البنزين، مخالفاً ما قرّرته وأسرع، قبل أن يتأخّر بي الوقت، إلى بيتها.

لكنّ مشهد وقوفها فاتحة الباب لي لا يلبث أن يتبدّل. يحلّ محلّه مشهد آخر لها تكون فيه سائرة أمامي متقدّمة إياي إلى الغرفة التي، حين أصير في داخلها، تغلق الباب على انفرادنا معاً. لا أكثر من حركة واحدة تحدث في الداخل. لا أكثر من أن تبدأ بفكّ أزرار بلوزتها. الزرّ الأوّل الذي في الأعلى، والذي تكون قد انتهت من فكّه حين يخطر لي ما يعكّر ذلك ويحول بينها وبيني. في أحيان لا يكون وجه أخي ما يردعني ويوقفني، بل رؤيتي لها رؤية أخرى. كأنّ الشهوة الملحّة الصاخبة لا تعود تحتمل نفسها فتخفّ، أو ترقّ، وأروح أنا أكتفي بتخيّل وجهها مبتسماً لي، مبتسماً فقط وداعياً إيّاي إلى أن أكتفي بالنظرة المعجبة التي يمنحها لي، مقرّباً إيّاي نحوها، لكن لأكون بقربها فقط، ممتنّاً لقبولها بي.

* * *

كأنّها لم تعد ترى رفيقتها المعلّمة. "هل سألتَ عن مدرسة للولدين؟"، تسألني زوجتي كلّما عدت إلى البيت. أحبطها رفض المدرسة لهما وأعادها إلى تلك الهيئة التي تبديها حانقة منّي وكارهة عيشها.

واختفى ذلك اللون القليل عن وجهها، ذاك الذي لم أعرف إن كان من عمل الأصباغ أو من تهيّئها المتأخّر لتغيّر نفسها وحياتها. كانت تظنّ أنّ موت أبي سيريحها ويوسع لها البيت، غير أنّ عودة الأولاد ردّتها عن الارتياح الذي كانت تنتظره.

– لم تسأل عن المدرسة للأولاد؟

تسألني متّهمة هذه المرّة، عارفة بأنّي سأزيح وجهي وأتّجه إلى كنبايتي من دون أن أجيب.

أنا أيضاً كان يحنقني كسلي. لكنّني كنت أجد عذراً لي بأنّي لا أعرف أحداً أسأله. كان يجب أن أكون أقلّ سخطاً وأنا في مدرستهما فأسأل المعلّمة أو المدير بأيّ مدرسة ينصحانني. هنا في الشقيفيّة، وكذلك في القرى التي حولها، لن أجد أحداً يعرف عن هذا النوع من المدارس. لكنّني لا أتوقّف عن أن أقول لنفسي إنّني أؤجّل ذلك إلى وقت آخر. فلأدعهما يرتاحان الآن، أقول، وينسيان ما كانا فيه في تلك المدرسة. وأنا أعرف أنّ هذا تأجيل بعد تأجيل، خصوصاً حين أرى الولدين عائدين إلى البيت ولا شيء يفعلانه فيه، كما أنّهما لم يكونا يفعلان شيئاً وهما هناك في الخارج، إذ صار أحمد كبيراً على اللعب والتحرّش بالأولاد ليقبلوه واحداً منهم. وأخوه أيمن كبر معه، لأنّه يظلّ ملازمه ومقلّداً ما يفعله.

يبدوان لي، كلّما رأيتهما خارجين أو داخلين، أو قاعدين ناظرين في فراغ الغرفة حولهما، أنّهما سيظلّان هكذا. لا يوحي لي مشهدهما باحتمال أن يتحوّلا إلى مشهد آخر سواه. وأروح أفكّر أنّ العبوس، بعد وقت غير بعيد، سيعقب ذلك. عبوس جودت

ذاته، حيث الشفتان مزمومتان ومطبقة إحداهما على الأخرى، والعينان محاذرتان وغاضبتان. في مرّات أراني مجرياً تلك الهيئة على وجه أحمد، الكبير، فأزمّ شفتيه وأجعل وجهه جامداً بتلك النظرة الغاضبة. أحمد وليس أيمن، لأنّي اعتدت أن أماثله بجودت، أو لأنّه الأسرع، بسبب كبره، إلى أن يكون ما كانه جودت.

الفصل الخامس

لا أحد، لا في الشقيفيّة ولا في سواها، أستطيع أن أكلّمه بما أحبّ أن أحكيه. أنا وحدي بينهم، هم أهل الشقيفيّة، لا ينتظرون منّي إلّا أن أُجيب حين أُسأل. وحين أراهم على الطريق يكتفون بتلك "السلام عليكم" يقولونها باسطين أكفّهم على صدورهم لتبديهم مؤمنين طائعين. ثم يكملون طريقهم ليعودوا، بعد أن يبتعدوا عنّي، إلى استئناف ما كانوا يتكلّمون فيه. يظنّون أنّني لا أحتاج إلى أحد أحادثه، وأنّني أظلّ أكلّم نفسي وأحاورها بتلك الأشياء التي أعرفها ولا يعرفونها. أبو عاطف الشامي ليس هو السيد مضر الذي كان رفيقي في النجف، ذاك لأنّه لا يكلّمني إلا ناصحاً إيّاي في المسائل التي، لصغرها وقلّة أهميّتها، يرى أنّه لا يليق بي أن أتعرّفها بنفسي، أو ينقل لي نكاتاً عن رجال في الضيعة ليضحكني ويسلّيني.

لا أقول إنّ الجبّة والعمامة وحدهما أفردتاني عنهم، إذ إنّني كنت هكذا من قبل أن أرتديهما. أتذكّر كيف أنّي، حين يتطرّف الأولاد في لعبهم، كنت أقف جانباً أتفرّج عليهم بدل أن أكون في حلقتهم. وكنت أذهب إلى جودت لأحادثه وأتمشّى معه فيما هم يسخرون من خَرَسه ويرشقونه بالحجارة. أفكّر أنّني كنت أتقرّب إليه لا لإرضائه بل لقربٍ منه أحسّه فيّ. أحاول أن أدفعه ليقول شيئاً، أن يعبّر بشيء أقصد، فلا يفعل إلا أن يكمل مشيه بعد أن يبتسم لي معفياً نفسه من الجهد الذي سنبذله كلانا ليُفهمني، ما سيردّ به أو

ما سيقوله. كان أخي، وهو أصغر منّي بسنة، يصخب مثل الأولاد في لعبه، بل ويروح يطلق صوته زاعقاً فيما هو يندفع ليختطف الطابة من بين أيديهم. وكان يغالبهم ويغالبونه في الساحة، في وسط الساحة، وأنا أنتظر أن يصير قريباً من حيث أقف لأقول له، بصوت أكاد أهمسه همساً في أذنه، إنّنا يجب ألّا نظهر هكذا مثلنا مثل الأولاد الآخرين.

وهو ينفلت من أمامي ليرجع راكضاً إلى لعبهم وتصايحهم. وغالباً ما كنت أذهب إلى البيت، تاركاً إيّاه في لعبه الذي لا يليق بنا، نحن أولاد السيّد، كما تقول أمّي. إذهب وقل له إنّ أمّك ستشكوك إلى أبيك، تقول لي، وأنا أعرف أنني لن أفعل شيئاً غير أن أعود إلى الوقوف هناك، أنتظره، بل أنتظرهم، لينتهوا من لعبهم ويعودون كلّ إلى بيته.

في عودتنا يكون عرقاناً لاهثاً ومتسّخ الثياب، ويصير يلبط برجله الحجارة التي أمامنا على الطريق. ذاك لأنّ اللعب لم يكن قد استنفد كلّ شقاوته. وهو ظلّ كذلك حين كبرنا. قال لأبي إنّه لا يريد أن يدرس في النجف، وحين سأله أبي عن سبب تمنّعه أجاب بأنّه لا يريد أن يكون رجل دين. لم يقل إنّه لا يستطيع، بل قال إنّه "لا يريد"، هكذا من دون حتى أن يلطّف كلامه أو يخفّفه. وهو، على أيّ حال، كان قد قطع شوطاً واسعاً نحو أن يكون ما كانه. لم يكن شيء فيه يدلّ على أنّه رُبّي في بيت أبيه. كان يشتري أشياء ليبيعها، بينها كؤوس زجاج وأحزمة رجاليّة وجزادين، وقطع تُزاد على السيّارات لكي تزيّنها، ودمى للأطفال وأشياء أخرى. وكان يأتي بها إلى البيت

ليخزنها فيه. يومان فقط، كان يقول لأمّي فيما هو يبتسم ويرفع إصبعيه الاثنين أمامها مؤكّداً أنّه سيبيعها بيومين.

وفي شغله ذاك كان يتنقّل بين رجال كثيرين، كان بعضهم يأتي ليسأل عنه في بيتنا. لم تكن هيئاتهم تُعجب أمّي التي كانت تقول له إنّ واحداً من بيّاعي الخردة أتى ليسأل عنه، محتقرة هكذا ما يشتغل فيه. لا بدّ أنّه كان يعرف رجالاً كثيرين، يتنقّل بين هذا وذاك منهم. وكان ينبغي لحركته أن تكون سريعة بينهم، حتّى إنّني، حين تخطر لي صورته بومضة تذكّر خاطفة، أرى كتفه وجانباً من ظهره، تاركاً رجلاً كان يكلّمه ليذهب إلى رجل آخر تأخّر عن موعده معه.

كأنّه وُلد وكبر في بيت غير بيتنا. في تمشّينا معاً، وأنا لم أكن قضيت في النجف أكثر من سنتين، كان يقول لي، ليحرجني، إنّه سيغمز هذه البنت المسرعة في مشيتها أمامنا. بل إنّه كان يقول لي، حين تصير البنت بمحاذاتنا: انظر... انظر إلى الغمّازتين، وذلك من أجل أن يُخجل البنت ويُخجلني. وحين تصير مبتعدة عنّا أقول له إنّه لا يحسن به أن يتصرّف هكذا حين أكون معه، ولا حين لا أكون معه.

لم يكن مثلي ولست أنا مثله. ليس ذهابي إلى النجف ما جعلني هكذا، مطيعاً ما كانوا يملونه عليّ : لا تفعل ما يفعله الناس من حولك. لا تكن مثلهم. إن ضحكت فاضحك كأنّك تستحي من ضحكك. لا تُطل النظر في وجه من يحادثك. إن ألقت امرأة عليك التحيّة ردّ التحيّة، لكن اجعلها غير مسموعة كأنّك تتمتمها أو تقولها في قلبك. وإن عبرتَ بين نساء ردّ طرف عباءتك على طرفها الآخر، كأنّك هكذا تخبّئ نفسك، ثمّ أسرع في خطوك كأن تأخّرك بينهنّ

سيفسد شيئاً فيك. ذلك، على أيّ حال، ما كنت سأفعله حتى وإن لم أرتدِ عباءة و لم أكن رجل دين.

* * *

– أهلاً بالسّيد.

كانت وحدها في البيت. عرفتُ ذلك من بقائها مسندة ظهرها إلى الباب بعد أن أغلقتْه. كانت تنتظر مجيئي، لا بدّ، وهي لذلك غيّرت تسريحة شعرها فجعلته مرفوعاً إلى الأعلى، كاشفاً عن خدّيها ورقبتها. ذلك من أجل أن تبدو أنّها هكذا تكون وهي في البيت وحدها، فكّرتُ. وحين تقدّمتْ باتجاه ما كنت واقفاً أنتظر، قالت لي إنّ بلال ذهب إلى بيت رفيق له ولن يعود إلّا في المساء. وهي، بعد ذلك، سبقتني إلى كنبايتها القريبة من حيث اعتدتُ أن أجلس. سألتُها كيف هو بلال، هكذا، من أجل أن أخفّف من وقع ما أحسست أنّنا مقبلون عليه. لم تُجب، أو أنّها قالت شيئاً لم أسمعه. وإذ سبقتني إلى الجلوس، مرخية جسمها على الكنباية، كأنما من تعب، راحت تتلفّت حولها كأنّها تبحث عن شيء حولها نسيت أن ترتّبه وتسوّيه. كانت قريبة منّي، أكثر قرباً ممّا كانت تتيح الكنبايتين من قبل. ولما نظرت إليها من ذلك القرب، سطع ذلك البياض حول أذنها، مضيئاً تلك الشعرات الناعمة القليلة في أعلى رقبتها.

ما كان عليّ أن أفعله هو أن أمدّ يدي إلى تلك الشعيرات المتفرّقة الناعمة. تلك هي البداية الصحيحة التي تعفيني من اختراع كلمات أعرف، حين أنطق بها، أنّها ستكون متلعثمة وبلا معنى. لكنّني فوتّ

تلك الفرصة لكوني لم أفعل ذلك في حينه، في وقت ما خطر لي. وبعد أن انقضت لحظات أخرى على بقائنا صامتين، نهضتْ هي عن كنبايتها لتتّجه إلى المطبخ، ذلك الذي لن تفعل شيئاً فيه، كما بدا لي. لكنّها من هناك سألتني إن كنت أريد قهوة. قلت لها، لكي لا يتأخّر بقاؤها هناك، إنّني أريد ماء فقط.

كانت يدها ترتجف فيما هي تضع كأس الماء على الطاولة أمامي. اضطربتْ تلك القوّة التي كانت لها، وها هي تعود إلى الجلوس مرتخية على الكنباية، ومستسلمة تنتظر منّي أن أقول شيئاً أو أن أبدأ شيئاً. وأنا، المتردّد أيضاً في أن أقوم بتلك الحركة الأولى، قمت من جلوسي متجّهاً إلى النافذة لأطلّ من الشقّ القليل على الخارج حيث سيّارتي، ثم لأنعطف من هناك كأنّما لأذهب في اتّجاه المطبخ. ومن هناك، من حيث انحرفتُ لأصير مبتعداً عمّا تراه عيناها، مشيت تلك الخطوات التي جعلتني واقفاً وراءها، مرتفعاً عنها، ثم مددت يديّ الاثنتين إلى جانبيْ وجهها، هناك عند البياض الذي كشف عنه شعرها المرفوع.

هذه المرّة أفعل ما أفعله قاصداً لا مختبِراً ولا محاذراً. أما هي فظلّت صامتة وناظرة إلى حيث يتّجه وجهها. ثم رحت بأصابعي ألامس تلك الشعيرات الناعمة وأوصل يدي بعد ذلك إلى خدّيها وما حول شفتيها. كانت مستسلمة صاغرة، وحين بدا لها أنّني أطلت إبقاء يديّ هناك، كأنّني أتردّد في أن أنتقل بهما إلى ما يتعدّى ملامساتي، رفعت يداها لتلتقطهما، ثم لتحيطهما بعد ذلك، ملصقة إياهما بأعلى صدرها، كأنّما لتحتجزهما هناك.

انتقلتُ من حيث كنت أقف لأصير أمامها ولأرفع وجهها إليّ. كان محمرّاً من الارتباك وعيناها اللتان رفعتْهما لتنظر إليّ بدتا زائغتين. لكنّها مع ذلك أطالت النظر في وجهي. وإذ أمسكتُ يديها كأنّما لأعينها على الوقوف قبالتي، وإذ باتت واقفة تكاد تكون ملتصقة بي، أرختْ يديها ثمّ رفعتهما إلى كتفيّ داعية إيّاي إلى أن أنتظر. من شقّ النافذة ذاك، تطلّعتْ إلى الخارج، ثمّ ردّت درفة النافذة لتغلقها. وهناك، في وسط الصالون، راحت تنقّل نظرها لتتأكّد من أن كلّ شيء مقفل. ثمّ تقدّمت نحوي بعد ذلك، محاذرة أن يطلع صوت من خبط قدميها على الأرض.

* * *

تلك الخطوة التي لطالما تخيّلتها بتّ خائفاً من أن تحدث: بتّ خائفاً أن تمسك يدي وتقودني إلى الغرفة ذات السرير العريض، وأن تقفل بابها. حين نصير في الغرفة، هناك في الداخل، لا ينبغي أن نوقف ما نفعله إلّا حين نصل إلى نهايته. أبقى هنا، أبقيها هنا إذن، في الصالة الواسعة حيث يمكن لشيء ما أن يحدث، مثل صوت نسمعه آتياً من الخارج، أو نتخيّل أنّنا نسمعه، يمكنه أن يكون عذراً لي لأنهي من فوري ما نكون غارقيْن فيه.

هنا، ونحن في بيتها، لن تتأخّر في أن تستردّ قوّتها وتكمل بها ما كنتُ أنا قد بدأتُه. بتلك القوّة التي تستدرجني على رغم خوفي منها، راحت يداها تفكّان زرّ القميص لتكشف عن رقبتي وأعلى صدري، ولتعود بعد ذلك إلى أن تخلع عنّي، بيديها المتأنيّتين، عباءتي. "الطقس

حارّ"، قالت مرفقة ذلك بابتسامة خفيفة غاوية. ثمّ أدخلت يدها لتلامس ما كشفتْه من صدري، ولتذهب بها من هناك إلى ما لا تزال تخبّئه جبّتي. وأنا أسرعت إلى أن أفعل الشيء نفسه. ففككت الزرّ الأعلى من قميصها كاشفاً عن ذلك الشقّ الذي مددت إليه إصبعي، متابعاً مجراه إلى الأسفل. ثمّ، فيما أنا أحيط أحد ثدييها بكفّي كلّه، شهقتْ، وأغلقت عينيها، وارتخى جسمها كأن ساقيها القويّتين انثنتا من وسطهما، وكان عليّ أن أسندها محيطاً وسطها بذراعي.

وربّما شهقتُ أنا أيضاً، لكن لأنّني وصلت إلى ما ظللت أتخيّل حصوله وأفكّر، في الوقت نفسه، أنّه ممتنع عليّ. كان ثديها يملأ قبضتي، بل ويفيض عنها. وهي، مستجيبة لتلك البداية التي رأيت أنّها سريعة، ألصقتْ وجهها بصدري وراحت تقبّله وتتمسّح فيه. كانت أنفاسها تطلع عالية فيما هي تدير يديها على ما تصل إليه عند ظهري وجنبيّ، وبدت كما لو أنّ شهوتها المتعجّلة قد أتعبتها فتراجعت، فيما هي ما تزال متمسّكة بي، نحو الكنباية الكبيرة. هناك، عند حافّة الكنباية، رحت أكمل فكّ أزرار قميصها كاشفاً عن صدرها الذي تدلّى إلى جانبيه، ثمّ عن بطنها البيضاء الناعمة الطريّة الملمس. كلّ ما تقع عليه عيناي، أو تلمسه يداي، سبق لي أن تخيّلته مرّات، مجموعاً أو متفرّقاً. و لم أسعَ إلى أن أقابل بين ما تخيّلته وأراه، إذ إنّني كنت منقاداً إلى كلّ شيء ينكشف لي. ثدياها وبطنها، وسرّتها التي في الوسط، مغرية بأن أضع فيها إصبعي، كأنّني أبحث فيها عن ثقب يوصلني إلى عمق ما تحتها.

لم يبقَ إلّا أن أفكّ عقدة التنّورة التي انحدرت إلى الأسفل كاشفة

عن تلك الرخاوة التي تسبق شعيرات عانتها المختبئة. كانت هي مسترخية على الكنباية التي لا تسند إلّا جذعها فقط، ساهية عن ساقيها المنفلتتين والمنفرجتين. هنا، عليّ أن أبقي يديّ هنا، عند الساقين، عند أعلى الساقين حول أطراف تلك الشعيرات التي لا ينبغي لي أن أصل إليها. ينبغي أن تظلّ مرتدية لباسها الأخير. لو خلعتْه، لو خلعتُه أنا، سيكون عليّ أن أفعل الشيء نفسه فأكون عارياً مثلها. هنا يجب أن أتوقّف، قلت في نفسي، أن أتوقّف أو أن أتراجع، كأن أبقي يديّ وقتاً زائداً هناك، حول أطراف لباسها، وأن أطيل ذلك حتّى تحسّ بنفسها أنّني لن أذهب، الآن، إلى أبعد.

* * *

لم يطل استلقاؤها على الكنباية. في لحظة سريعة انتبهتْ إلى أنّ ما كنّا فيه قد انتهى. ضمّت ساقيها المنفرجتين وأنزلت تنّورتها لتغطّيهما، ثمّ رفعت يديها إلى الأزرار المفتوحة وقامت لتغلقها، أمام المرآة ربّما، هناك، في الغرفة التي دخلت إليها. أنا أيضاً رحت أغلق الأزرار القليلة المفتوحة وأسوّي على عجل ما تهدّل من ثيابي. وحين عادت كان وجهها ما زال متوهجّاً بالحمرة والعرق الذي نضح منه. سألتْني إن كنت أريد قهوة الآن. أجبتها إنّني لن أطيل بقائي ومددت يدي إلى حيث تجلس لكي نبقى قليلاً معاً. لم يكن ذلك وقت كثير على أيّ حال. دقائق قليلة كنا فيها صامتين، إذ كان سيبدو مفتعلاً أن نتكلّم عن شيء غير الذي كنّا فيه. قلت لها إنّني سأذهب، وقمت، متناولاً عباءتي لأسألها بعد أن وضعتها على كتفيّ، إن كان مظهري مناسباً

هكذا. ثم ابتسمتُ قبل أن أتّجه نحو الباب الذي يجب أن أحاذر قليلاً قبل أن أفتحه.

* * *

خليط من الغبطة ومن عدم الرضى كانا يتقاذفانني وأنا أسوق عائداً إلى بيتي. رائحة جسمها كانت لا تزال فيّ وتكوّر ثديها ما زال مالئاً يدي. كثير ذلك الذي جرى في هذه المرّة الواحدة، رحت أقول، لأنّ وقعه عليّ كان ثقيلاً. أرضاني لوهلة شعوري ذاك، فقد أراحني من التفكير في ما قد تظنّه من قطعي لما كنّا فيه وإيقافه، هكذا فجأة وبلا سبب. وقد تعجّبتُ كيف أنّ أخي لم يخطر لي، لا صوتاً ولا وجهاً، فيما زوجته ملقاة أمامي على الكنباية محمرّة الوجه ومتلاحقة الأنفاس وتاركة إيّاي أصل إلى حيث أريد. لم يحضر أخي هناك بيننا لكنّني، وأنا أفطن لغيابه، كنت كأنّني أستدعيه ليكون معي، هنا في السيّارة، بعد انقضاء المشهد كلّه: "لن تذهب إلى أبعد ممّا وصلت... ذاك هو كلّ شيء"، قال وجهه الذي لم تفارقه تلك الابتسامة المعابثة الهازئة. وهو تعلّق بي في ما بقي من الطريق فكان لا يلبث أن يعود فيظهر لي بعد أن يُبعده تفكيري بأشياء متفرّقة أخرى. "لن تذهب إلى أبعد من ذلك..."، صار يقول لي معيّراً إيّاي بما لا أستطيعه. وهو، بعد كلّ عودة له وأخرى تتحوّل ابتسامته عن لهوها وهزئها لكنّها تظلّ مبقية على شكلها ذاته. أعني أنّها تصير أخبث، قاصدة أن تُظهر لؤماً لا يفلح انفتاح الشفتين في إخفائه.

وأنا أروح أجيبه بأنّه مات. "أنت متّ" أقول له بنبرة تجاري

التحوّل الذي يجري على كلامه ووجهه. لكنّني لا أصل إلى أن أهمسها زاجرة لئلّا يطلع لي مشهده وهم داخلون به ملفوفاً بذلك الشرشف السميك ومحمولاً على أكتافهم. "اسكتي... اسكتي... أقفلي فمك واسكتي" راح يقول أبي لعمّتي حسيبة وهي تزعق بصوت مثل أصوات البوم. وهي تجيبه: "لكنّه مات... عدنان... عدنان مات"، كأنّها تنبّهه إلى أنه لم يعرف بعد ماذا يعني أن يكون ابنه عدنان قد مات.

"لكنّك كنت تختلس نظرات إليها من قبل أن أموت". لم يحدث ذلك إلّا مرّات قليلة كنت أحاذر في أثنائها وأستغفر الله. وكنت أبدو لنفسي كأنّ نظري وقع بالخطأ على ما ينكشف من ساقيها. "أستغفرك الله ربّي وأتوب إليك"، أقول فيما أنا أدير وجهي عنها وأزيل ذلك الانكشاف الذي تعلّق بعينيّ و لم يمحَ عنهما. وأنا لن أكذب، لن أقول إنّ نظري وقع عليها هكذا من دون قصد منّي. ذاك لأنّي أكون أكذب على نفسي وليس على أخي الذي حفظ في رأسه ما رآه منّي وعرف أنّني اختلسته وتسرّقته.

* * *

أتعبني تذكّري لأخي وتشبّثه بعد ذلك بي. ما انتظرت حدوثه معها شهوراً وسنين ها إنّني أوقف نفسي عن استدعائه وتذكّره. لكنّني لن أدفع نفسي إلى نسيانه. سأعود إليه مرّة أخرى، بل مرّات أخرى، بل مرّات كثيرة أخرى، هناك في البيت، حين أكون قاعداً وحدي في غرفة الزوّار ولا أحد معي. وحين لا يكفيني أن أفكّر في ذلك

وحدي، سأجد أحداً أحكي له عمّا يجري بين الرجال والنساء اللواتي لسن زوجاتهم. أن أقول ذلك كما لو أنّني أُخبرت به جارياً بين رجل وامرأة في واحدة من القرى. بل وأستفيض في وصف ما جرى بين ذاك الرجل وتلك المرأة. ينبغي لي أن أجد أحداً أكلّمه. بل وأن أساعده على أن يظنّ أنّ الرجل هذا ربما كان أنا نفسي لكي أظل متشوّقاً لأن أحكي له، ويظلّ هو متشوّقاً لسماعي. ذاك أنّه سيتساءل لماذا أكلّمه عن ذلك مرّة بعد مرّة لو لم يكن ما أقوله متعلّقاً بي. المشكلة يا أبو عاطف أنّه قريب لها إلى ذلك القدر، أقول له، هو أبو عاطف، حيث لا أجدني مكلّماً أحداً سواه. المشكلة يا أبو عاطف أنّها قريبة إليه حتّى لتكاد تكون من أهله. وهو سيسألني إن كانت من حلاله. لا... لا يا أبو عاطف ليست حلالاً. وهو سيقول لي لماذا لا يتّخذها زوجة إذن. لأنّه لا يريدها من أجل ذلك يا أبو عاطف. إنّه يريد أن يعشقها كما يعشق الرجال النساء، وأن تعشقه هي.

سيتعبني أبو عاطف. لن أظلّ قادراً على إحالة ما أحكيه على رجل وامرأة آخرين. ما سيريحني هو أن أقول له الأشياء كما هي: تعال يا أبو عاطف، أنا رجل الدين إمام الجامع أختلي بامرأة هي زوجة أخي... أخي الميّت، أضيف من أجل أن يقول لي، مرّة أخرى: تزوّجها، تزوّجها واسترها. ليس من أجل ذلك أريدها. أريد أن أكون معها مثلما يكون العاشقون الذين يسعون إلى ما لا يحقّ لهم. أن أراها وهي تخلع لباسها وأقول بأنّ ما أراه لا يحقّ لي. أن أختبر في كلّ مرّة إن كانت تريد أن أفعل ما جئت لفعله. وأن

أشعر، كلّما لمست فيها شيئاً، أنّ هذا يحصل الآن وربّما لن يحصل مرّة أخرى.

* * *

– أين هما الولدان؟

قلت بعد أن حملتُ هبة التي كانت تبكي وهي تتبع أمّها في تنقّلها بين الممشى والغرف. لم تكن أمّها تستجيب لصوت البكاء الذي كان يقوى بين لحظة وأخرى محتجّاً على إهماله. وهي بين يديّ وعلى كتفي بدأ يخفّ نشيجها لكنها لم تتوقّف عن النظر إلى حيث تدخل أمّها وتخرج.

لم تجبني عن الولدين، وأنا، بصوت أعلى، عدت وسألتها عنهما مرّة ثانية:

– أين هما الولدان، أين ذهبا؟

لكي تجيبني، تقدّمت إليّ حاملة المقشّة وناظرة في وجهي:

– في الجامع، ذهبا إلى الجامع.

تريد أن تبلغني، بسخطها ذاك، أنّهما في الجامع الذي عليّ أنا أن أكون فيه.

– وماذا يفعلان هناك في الجامع، سألت لكن لا لأنتظر جواباً.

– وجدا مَن يعلّمهما شيئاً، قالت لتكمل سخطها.

كان يجب أن أذهب من فوري إلى هناك، أن أُنزل هبة إلى الأرض وأسرع إلى الجامع. لكنّني لم أفعل. لم يرقني مشهدي داخلاً إليهم وهم يستقبلونني مرحّبين بي كما لو أنّني أزورهم في بيتهم.

– منذ متى يذهبان إلى الجامع؟

لم تجب. لم تسمع ربما. كانت قد صارت في آخر الممشى.

بقيتُ حاملاً هبة لكن مدلّياً إياها قليلاً كأنّني أهمّ بأن أُنزلها. أبو عاطف يعلم ماذا يفعلون هناك في الجامع، وهو يجب أن يسرع في المجيء حيث لا بدّ رأى سيّارتي وعرف أنّني هنا. بل إنّني رحت، وأنا لا أزال حاملاً ابنتي، أنظر إلى الطريق تحتي علّني أراه آتياً مسرعاً إليّ. بل وخطر لي أن أذهب أنا إلى بيته، أن أدقّ بابه وأقول لمن يفتح لي: أبو عاطف هنا؟ صارت هبة، الساكتة ما زالت، تحرّك جسمها لتنزلق به إلى الأسفل. أنزلتُها، وهي، من دون أن تنظر إليّ، أسرعت راكضة إلى حيث أمّها، من أجل أن تبدأ أمامها جولة بكاء جديدة.

هذه المرّة سيبدو أبو عاطف، حين يأتي، نصف غائب نصف حاضر. ذاك أنّه يئس، لا بدّ، من انتظار شيء أقوم به. سيقول لي، فيما هو ينظر إلى الأرض مبعداً عينيه عنّي، إنّهم احتلّوا الجامع ولا أحد يستطيع أن يُخرجهم منه. يجب أن يأتي، الآن يجب أن يأتي، رحت أقول فيما أنا أقوم إلى النافذة لأنظر منها إلى الطريق. لا أحد هناك تحت النافذة. لكن فيما أنا أستدير عنها، رأيت أوّل الأولاد يخرج من الجامع، ثمّ تبعه ولدان آخران، ثمّ ابني أحمد الذي، بعد خروجه، التفت ليرى إن كان يتبعه أخوه. ثم خرج أيمن أيضاً، وحده، ليقف لحظة بجانب أخيه، ثمّ ليبدآ مجيئهما إلى البيت.

أولاد آخرون تبعوهما إلى الخروج، ثلاثة أولاد أو أربعة شُغلتُ عنهم بالنظر إلى ولديّ يتقدّمان نحو البيت، ثمّ بتوجّهي إلى الباب لكي أفتحه قبل وصولهما. وإذ عرفا أنّني هنا من سيّارتي التي

رأياها في الأسفل، دخلا توّاً إلى حيث أكون في غرفة الاستقبال. وكعادتهما، وقفا أمامي كأنّما من أجل أن أستجوبهما، وانتظرا أن أبدأ أنا بسؤالهما.

أحياناً يكون الأولاد سبعة أو ثمانية، قال لي أحمد مستعملاً أصابع يديه وناظراً إليها كأنّما ليعدّها قبل أن يرفعها أمامي. لكنّهم اليوم تسعة أولاد، قالت اليدان بعد أن ارتبكتا في إشهار الأصابع التسع. ثم قال، مقاطَعاً من أخيه، إنّ من يعلّمهم رجل دين مثلي، لكن لا يعتمر عمامة بل طاقيّة لا تغطّي إلّا دائرة صغيرة من رأسه. وهو بدين كما عبّر ابني أيمن نافخاً خدّيه وجاعلاً يديه تتّسعان عن جسمه. "وهو يقرأ؟" سألتهما بأن مددت يديّ أمامي مفتوحتين. هزّا رأسيهما موافقين. وأنا لم أشأ أن أسألهما ماذا يحصّلان من ذلك، هما الاثنان، ما داما لا يسمعان ما يقول.

لا بدّ أنّه يجد لهما طريقة لكي يبقيهما حاضرين مع الأولاد الآخرين. كأن يرفع يده إلى السماء حين يريد ذكر الله، أو أن يروح يُظهر علامات الوقار والتقوى حين يأتي على ذكر الرسول. لن يبدأ معهم من البداية الأولى على كلّ حال. إنّهما يعرفان أشياء، لا بدّ. جودت، مع أنّ بيته كان خالياً من أحد يُفهمه، كان عارفاً بالدين. ليس أنّه كان يصوم شهر رمضان فقط، فهذا ممّا تعلّمه بتقليد إخوته وأهله، بل إنّه كان يعرف الحلال والحرام ويعبّر عن ثانيهما بأن يدير رأسه إلى اليمين وإلى الشمال فيما هو يرسم على وجهه ما يرى أنّه تكشيرة الحرام. وفي أحيان كان يرفع إصبعه إلى الأعلى ليقول إنّ الله يرانا ويراقبنا.

لن يحتاج ولداي إلى أن يقرآ حتى يعرفا ما كان يعرفه جودت. كانا سيحصّلان ذلك من حيث لا أعلم أنا. لكن على ماذا سيحصلان من الرجل القارئ بالقرآن، والمنقّل نظره، لا بدّ، بين من يعرف أنّهم يسمعونه. ربما كانا يتسلّيان هناك، قاعدين بين الأولاد الذين لن يُعداهما هذه المرّة ولن يرسلا لهما من بُعد نظرات كارهة.

* * *

– لكن مَن هم هؤلاء يا أبو عاطف، من أين أتوا ومن أرسلهم؟

– هم ليسوا هنا في الشقيفيّة وحدها... في القرى حول النبطيّة هناك الكثيرون منهم. أحزابهم هي التي ترسلهم، وهي تدفع لهم ليستأجروا بيوتاً وينفقوا على أكلهم.

لم أكن أعلم شيئاً ممّا يعلمه أبو عاطف، أو حتى مما يعلمه أهل الشقيفيّة الآخرون ربما. بل إنّني، حين أخذ أبو عاطف يعدّد لي أسماء هذه الأحزاب استحيت أن أبدو غير عارف بشيء منها.

– في البداية كنت أقول إنّهم أقاموا هنا لأنّهم رأوا الجامع خالياً من الناس أكثر الوقت. أهل الشقيفيّة هنا لا يحبّون الدين، قال أبو عاطف كأنّما ليفهمني بأنّ ما مكّنهم من البقاء هنا ليس إهمالي وحده وتركي الجامع أكثر الوقت.

– هم هكذا في القرى الأخرى؟ أقصد هل يفعلون في الجوامع مثلما يفعلون هنا؟

– من؟

– ... رجال الأحزاب.

– في العامريّة أخرجهم الناس بالقوّة. قالوا عنهم إنّهم يتحرّشون بالبنات الصغيرات وإنّهم دخلوا إلى المدرسة وكسّروا كراسيها وطاولاتها. بل وقالوا إنّهم غاطوا على الطاولات حيث يجلس الأساتذة...

– وهنا يجب أن نفعل مثلما فعل أهل العامريّة؟

– وبسرعة، لأنّ هؤلاء عرفوا كيف يشتغلون هنا. في العامريّة بدوا كأنّهم عملوا هجوماً على الضيعة. جاؤوا معهم بشيخ اسمه حسين الكواري صار يبدأ بوعظ الناس على الميكروفون قبل ساعتين من طلوع الفجر، بل وصار يعيب عليهم سهرهم واختلاطهم نساء ورجالا في الأعراس، ويقول عن بناتهم إنّهنّ بلا حياء. الذين جاؤوا إلى هنا يعرفون كيف يشتغلون.

– وخرجوا هكذا من العامريّة؟ أخذوا أغراضهم وخرجوا؟

– يمكن أن تكون أحزابهم هي التي أخرجتهم، لأنّهم فظّعوا هناك كما يقول الناس.

– يعني أنّ أحزابهم تُخرجهم إن كرهتهم الناس؟

– لكن الذين هنا، عندنا في الشقيفيّة، يعرفون كيف يشتغلون. يظلّون مخفضين رؤوسهم ناظرين إلى الأرض، وإن مرّت من أمام أحدهم امرأة يلوون رقابهم لكي يظهر عليهم أنّهم لا يرون منها شيئاً.

– أنا... ماذا عليّ أن أفعل؟

– لا أعرف، ربما يجب أن تقضي أكثر الوقت في الجامع...

– معهم يا أبو عاطف، أكون في الجامع معهم؟

ذلك ما لا أستطيعه، كدت أقول لأبو عاطف الذي كان ينظر في وجهي محدّقاً إلي. لا أستطيع أن أجاورهم وأتقاسم الجامع معهم؛ أن نكون قاعدين أنا في زاوية وهم في زاوية نتنافس على اجتذاب كلّ داخل جديد. ذلك ما لا أستطيعه، لقلّة قوّتي، بل لقلّة حماستي أيضاً. لقد انقضى وقت طويل على إهمالي الجامع وعدم اكتراثي بتردّد الناس إليه. في النجف كانوا سيردّون ذلك إلى قلّة الإيمان، هكذا كأنّهم يعرفون الإيمان كاملاً تامّاً، بل ويستطيعون أن يروه بعيونهم مثلما يرون وجوههم في المرايا، أو يرونه في داخلهم، في داخل أجسامهم، بمجرّد أن يكشفوا عن صدورهم أو عن بطونهم الثياب التي تغطّيها...

– في الجامع ستكون أنت إمام الشقيفيّة وليس هم، قال أبو عاطف متأخّراً عما أفكر فيه...

القوّة والحماسة وليس الإيمان. لم يكن أبي ليتركهم يتصرّفون هكذا بالجامع الذي هو إمامه. اخرجوا... اخرجوا من هنا، كان سيقول لهم مخاطباً إيّاهم مثلما كان يخاطب رجلين كانا يتكلّمان، أو يتوشوشان، في أثناء ما كان يتكلّم في الحسينيّة. "أنتما الاثنان اخرجا من هنا" كان يقول لهما، وهما يخرجان، لأنّهما يعرفان أنّه سيُلحق كلامه بشيء آخر إن لم يفعلا: كأن يقوم إليهما قافزاً من منبره، متهيّئاً لدفعهما بيديه وركلهما برجليه.

الفصل السادس

ليس أنّي لم أقم بما كان عليّ أن أقوم به. في تلك الأيّام الأولى كان يرافقني أبو عاطف ومعه رفيقه. أما الآخرون أولئك، الذين كانوا يبكّرون بالمجيء إلى الجامع، فكانوا يسبقوننا بالسلام ويحنون ظهورهم ورقابهم لي كأنّما ليقولوا إنّهم موجودون هنا بموافقتي وإذني. وكان الناس الذين يقصدون الجامع يحذون حذوهم في ذلك، إذ يتقدّمون أوّلاً إليّ، بل ويقبّل بعضهم يدي، ثمّ يتوجّهون إليهم كأنّما لينجزوا عملاً اتّفقوا عليه معهم. ولم يكن يليق بي أن أقحم نفسي في ما فاتني وتأخرت عن فعله، كأن أتدخّل وأقول شيئاً في مسألة بدا أنّهم حائرون بشأنها. كنت أنتظر أن أُسأل عنها، كأن يلتفت إليّ أحدهم ويقول لي ماذا ترى في هذه يا سيّدنا. وهم كانوا يفعلون ذلك في أحيان فأستجيب أنا مطيلاً الكلام لكي أبدو عارفاً، بل أكثر من عارف، بما سئلت عنه. "لا فضّ فوك يا مولانا" كان يقول أبو عاطف كلّما بدا له أنّني أفضت في قول ما لا أحسب أنّه فهمه. وكان رفيقه يثنّي على ذلك قائلاً "بارك الله فيك" فيما هو يدير عينيه بين الجالسين ليرى كيف وقع كلامي عليهم.

كما كنت أطيل الكلام مع من يقصدونني من دونهم، هكذا كأنّني متمسّك به أبقيه لكي يروا أنّ أحداً معي جاء لمشورتي. وفي مرّات كثيرة، حين أكون وحدي ولا أحد معي، أروح أتصوّر وجودي هناك كيف هو، فأخجل، وأقول إنّني لا أقوم إلا بعرض نفسي للناس وإنني

مثل بائع ينتظر زبوناً. "اقعد يا أبو عاطف، ابق قليلاً بعد"، أقول له كلما همّ بالخروج. لن أغيب كثيراً، يقول لي فيما هو يرسم بيده إشارة الرجوع. وحين يعود، بعد ساعة أو ساعتين، يجدني وقد تهيّأت لأقوم. وهم، إذ يرونني بتّ واقفاً على رجليّ، يقومون هم أيضاً، لكن ليواكبوا خروجي بوقوفهم لي. "لا أفعل شيئاً هنا يا أبو عاطف" أقول له من لحظة ما نصير في الخارج. وحين نصل أنا وهو إلى بوّابة بيتنا يسألني إن كنت سأعود إلى الجامع بعد الظهر. "مرّ بي فنرَ" أقول له فيما أنا أدفع بوّابة الحديد بيدي. وحين أصل إلى الأعلى متوجّهاً من فوري إلى الكنباية، تاركاً لنفسي وقتاً قبل أن أسأل زوجتي عن الغداء لتأتيني به، أروح أنظر إلى الصورة التي تجمعهم هم الثلاثة، لكن لأُخرج منها عمّي هذه المرّة. ليس جسمه الضخم والرخو، ولا ابتسامته التي تبديه ذاهلاً عن وجود أبيه وأخيه كأنّه لم يفهم لماذا وقفوا هكذا لتؤخذ الصورة لهم. كأنّه، وهو منفصل قليلاً عن كتف أبيه، يتذكّر دعابة سمعها من ناس يسلّونه. ما يخطر لي هو عدم سعيه لأن يزيد شيئاً على القليل الذي حصّله من علمه في النجف وإمامته بعد ذلك في العبّانيّة. لم يكن يكترث، حين يأتي إلى بيتنا، بأن يمازح النساء زائرات أمّي فيما يكون أبي، أخوه الأصغر منه عمراً، معتكفاً في غرفته لا يخالط أحداً. كانت أمّي تقول إنّ له قلب طفل و لم يكن مناسباً له أن يكون رجل دين. و لم يكن يُغضبه أن يُقال ذلك أمامه، ولا حتّى أمام النساء الشاخصات ليسمعن منه ما يضحكهنّ، فيقول لأمّي إنّ "وظيفة" رجل الدين هي أكثر ما يناسبه، موحياً بأنّه مرتاح هكذا بعطالته وبقلّة شغله.

لم يكن كسله يخجله. الناس الذين عرفوه في العبّانيّة راحوا يقولون

لنا، في يوم دفنه، إنّ ابتسامته، تلك التي تتكوّر لها شفته متدلّية إلى الأسفل، ظلّت كما هي على وجهه الميّت. لم يخجله كسله و لم يتعبه. لم تكن توخزه أو تحرجه تلك النشوة التي تأتيه من خدر جسمه وارتخاء عضله فيما هو يرفع يديه وجسمه عالياً ليطيل تثاؤبه ويتنعّم به. كان يفعل ذلك أمام الناس، بل وينهيه بصوت التثاؤب الذي يطلعه قويّاً عالياً.

وصل أبو عاطف. سمعت طرقات يده على بوّابة الحديد وصوته بعد ذلك طالعاً من الشقّ الذي فتحه.

– اصعد يا أبو عاطف، تفضّل اصعد.

وهو بعد على باب غرفة الزوّار قلت له، مكملاً مزاج عمّي الممازح الذي كنت فيه:

– اليوم، دعنا نرتاح اليوم...

– لقد عملنا ما علينا، قال فيما هو يقلّب نظره في الكنبايات ليعرف أين سيجلس.

– بل يخطر لي أن آخذ إجازة، مثل الموظّفين والمعلّمين.

وهو، مكملاً المزاح، قال لي إنّ علينا أن نستأذنهم في ذلك، قاصداً أولئك الذين هناك في الجامع.

– إنّي فعلاً أحتاج إلى إجازة يا أبو عاطف. اللاشيء الذي أفعله هنا وفي الجامع أتعبني. في مرّات يخطر لي أن أنتقل من هنا إلى العبّانيّة... هل تعرف إن كان أحد حلّ محلّ عمّي هناك؟

– لا أعرف، لكن أستطيع أن أسأل... اليوم أعرف، أو غداً.

– اعرف لي أيضاً إن كانت لا تزال صغيرة ولا يزال الناس فيها قليلين.

– وتترك الشقيفيّة، تتركها لهم.

– لا يهمّني. من البداية لم يكن يهمّني.

– وبيتك؟

– تقصد البيت... هذا البيت، قلت مشيراً بإصبعي إلى الأرضيّة تحت ما أجلس.

– والبيت، أجاب موسعاً ما بين ساعديه ليشمل الجوار الذي منه الساحة والبيوت التي حولها.

– هناك، في العبّانيّة، مثلما هنا. القرى بعضها مثل بعض. المهمّ أن يكون الناس قليلين مثلما كانوا في أيّام عمّي.

أن يكون الناس قليلين ويظلّون كما هم لا يتغيّرون، لأنّهم قليلون. ولا يختلط بهم أحد في العبّانية. "ماذا هناك بعد العبّانيّة يا سيّد؟" سألتْه أمّي التي تحبّ تعداد أسماء القرى. "لا شيء"، أجابها. "لا شيء بعد العبّانيّة... هي في آخر الطريق ولا شيء بعدها". وأنا، في صغري، كنت أفهم من قوله لا شيء بعدها أنّ الأرض تنتهي هناك، عند حدّها وأنّنا، إن نظرنا من ذلك الحدّ، لن نجد إلّا فضاءً فارغاً لا شيء فيه.

– الأولاد أيضاً تناسبهم العبّانية، قلت مجيباً عن سؤال يراود أبو عاطف لكن لا يسأله، لظنّه أنّني، إن أردت التكلّم عنه فسأصل إلى أن أجيب عليه من تلقائي.

هناك لن يحتاج الصبيّان إلى أن يبذلا ما هو فوق طاقتهما لكي يتعلّما شيئاً لن يفلحا فيه. ولن تزداد الحياة عليهما صعوبة كلّما كبرا سنة بعد سنة. في العبّانيّة يكبر الناس هكذا من دون أن يفكّروا ماذا عليهم أن يفعلوا بما سيأتي من أيّامهم.

لها أيضاً، هي زوجتي، ستكون العبّانية ملائمة. هناك لن يشغل رأسها أن حياة أفضل من حياتها تنتظرها، ولن تقضي ما تبقّى من حياتها بلومي على ما نحن فيه.

* * *

سأكون هناك كما لو أنّني في مكان أملك مفتاحه وحدي. حين أخرج بسيّارتي قاطعاً الحدّ الذي تنتهي عنده العبّانية، أو تبدأ منه، أكون مطمئنّاً إلى أنّني، حين أعود، سأجد كلّ شيء كما تركته. ذاك أنّي أفكّر أن لا أحد غيري سيخرج ويعود. كلّهم سيبقون هناك، في بيوتهم وحوْل بيوتهم، بمن فيهم أولادي وزوجتي. العبّانية تناسبني أنا أيضاً، ذاك أن الناس سترضى حتى بالقليل القليل الذي أبذله. ثمّ إنها ستريحني. أقصد أنّني لن أقف على شبّاك بيتي منتظراً أن يأتي أحد يأتي حاملاً خبراً لن يسرّني.

– سنذهب لنعيش في العبّانية...

– نحن؟

– نحن، أنا وأنت والأولاد.

– العبّانية ضيعة عمّك؟

– هي ذاتها.

تباطأتْ قليلاً في رفع صينيّة الطعام عن الطاولة أمامي، وذهبتْ، مبطئة أيضاً، كأنّما من أجل أن تعطي نفسها وقتاً لتنفعل بما سمعتْه. وهي أطالت بقاءها في المطبخ، مبقية الصينيّة ربما بين يديها الاثنتين.

وأنا كنت أنتظر مجيئها، مستعدّاً له بإمالة وجهي إلى ناحية الباب

الذي، حين تأتي، ستبقى واقفة عنده.

- والأولاد، ماذا نفعل بالأولاد هناك؟

كان صوتها هادئاً، كأنّها فكّرت من دون السخط الذي توقّعته.

- سنرى، سنجد لهما شيئاً هناك.

ولم تسخط لهذه أيضاً. ظلّ صوتها على هدوئه، بل وراحت تبدو مفكّرة في الدقيقة التي سبقت عودتها إلى المطبخ حيث، من هناك، سألتني إن كنت قد ذهبت إلى هناك أخيراً.

لم تدفعني إلى تلك المشاحنة الصامتة التي انتظرتُها، بل إنّها، بما سمعتْه وما قالتْه، بدت راغبة في أن تعرف شيئاً عن القرية التي قلت إنّنا سننتقل إليها.

- غداً سأذهب، قلت بلهجة جعلتُها مسايرة لما رأيته من تقبّلها.

- وحدك؟

- وحدي، وإذ فكّرت أنّها ربما تذهب بعيداً في فضولها فتلمح إلى رغبتها بمرافقتي، أضفت أنّ أبو عاطف الخطيب يمكن أن يكون معي.

لقد تعبتْ هي أيضاً. لا أعرف ماذا تخلّف في رأسها كلمة العبّانيّة، أو حتى إن كانت حقّاً مهتمّة بأن تعرف الكثير عن المكان الذي ستنتقل إليه. لقد تعبت، مثلي. وهي مثلي تريد أن تشعر بأنّ شيئاً جديداً قد يحدث لها.

- أنت وأبو عاطف الخطيب وحدكما؟ قالت فيما هي تجفّف الماء عن يديها بمنشفة صغيرة.

لا أعرف، يمكن أن يأتي معنا رفيقه.

لن تقولها مباشرة هكذا إنها تحبّ أن تأتي معي. تركت ذلك لي، أنا

الذي فهمت، لا بدّ، ماذا تريد. وللحظة خاطفة، شعرت بالشفقة عليها فيما هي تستدير لتعود مع منشفتها إلى المطبخ. ذلك أنّي فكّرت في أنّها ربما ذهبت بعيداً في تخيّل ما سنكون عليه معاً، هناك في مكاننا الجديد.

– تحبّين أن تأتي معنا؟ قلت معلياً صوتي.

– لا... لا، ردّدت من هناك، لكن لتضيف بعد ذلك أنّ معي رجالاً في السيّارة.

* * *

لم أستطع أن أقابل ما رحت أراه منها بما أتذكّره. ربما قام بيتان جديدان هنا إلى جانب الطريق الضيّقة عند مدخلها. وهما بيتان فقيران على أيّ حال، جُمعت في بنائهما موادّ غير متجانسة. لن أدع هذا يغيّر ما أتخيّله عنها، قلت فيما أنا أكمل سيري نحو بيوتها ومسجدها.

هنا، بين بيوتها المتوزّعة تاركة بينها جلولاً خالية إلّا من شجرات قليلة، لم يزل كلّ شيء كما هو. ليس ضروريّاً أن أدور حول البيوت كلّها لأعرف ذلك، إذ يكفي العبور في زقاقها الأوّل المتعرّج الذي تطلع منه رائحة ما تخلّفه الأبقار والتبن الذي خُزّن لأكلها. وهي رائحة قديمة يظنّ من يشمّها أنّها تلاشت من الذاكرة أو انطمرت تحت الركام الكثيف الذي تجمّع فوقها. هي رائحة "البيت الأوّل" الذي يصف الشعراء أثره، بل وغلبته على ما يلي من سكن في البيوت التي تليه. لم أوقف السيّارة، بل أبطأت مشيها لكي أقول للرجلين اللذين صادفتهما "السلام عليكم". وهما ردّا تحيّتي بأن رفعا يديهما معاً، في حركة تكاد تكون واحدة ظلا بعدها ينظران إليّ في سيارتي، مقرّبين رأسيهما

وجسميهما ليزيدا ما يريانه وضوحاً. ربما لم يمرّ من أمامهما رجل دين ولم يشاهدا رجل دين هنا منذ أن مات عمّي. وإذ تجاوزتهما وأنا في مشيي المبطئ الذي لا يزيد عن سرعة الرجل في مشيه رفعا يديهما مرّة أخرى، لكن بمثل ما يكون التلويح المتردّد، غير الواثق من أنّ عيني الرجل الذي في السيّارة ستراه أو تنتبه إليه.

وأمام رجال آخرين فعلت الشيء نفسه: "السلام عليكم" أرفقتها بالتربيت على صدري مرّة بعد مرّة. فقد كانوا، قبل أن يوقفهم مروري، يمشون غير مترافقين تفصل بين واحدهم والآخر عدّة خطوات. لم أشأ أن أكلّم أحداً، أو أن يمعن أحدهم النظر فيّ ليقول، إن عدت لأقيم، إنّه رآني هنا وأنا أسوق سيّارتي. خطر لي، باكتفائي بالتحيّة وإمالة وجهي عنهم من بَعد إلقائها عليهم، أنّني أفعل ذلك لأنّي لا أريد أن أعدهم الآن بشيء. ذاك لأنّي أعرف أنّ أهل القرى سريعاً ما يؤوّلون كلّ ما يعرض أمامهم ويوصلونه إلى غاية تناسبهم.

الجامع عرفت موضعه من مئذنته التي ظهرت لي، مرتفعة إلى أعلى قليلاً من سطوح البيوت. ولما وصلت إليه مارّاً من تحت حائطه العالي الذي جعلوا زاويته أعلى بحجرين إضافيّين عن ارتفاعه، فكّرت أنّ المؤذّن كان يقف هنا، عند الحافة، ولا يصعد إلى المئذنة، على الرغم من قصرها، ليقوم بأذانه الذي لا تسمعه، في أيّ حال، إلّا البيوت القليلة التي حوله. كان خالياً من الداخل إلّا من الحصر التي تغطّي أرضيّته، مثله مثل جامع الشقيفيّة قبل أن يأتي أولئك المقيمون فيه بالطاولتين الصغيرتين ليجلسوا خلفهما ويضعوا عليهما نسخاً من القرآن وكتباً أخرى كتبها، لا بدّ، رجال دين يحازبونهم. اللون الأزرق الذي طلوا

به قبّة الجامع ذات مرّة حال وبهت و لم يعد أثره ظاهراً إلّا في بعض المواضع. وقد تشقّقت في الوسط المادّة الكثيفة التي تغطّي الحجارة، بل وبدا قسم منها منسلخاً ومنكشطاً حتى ليمكن أن يسقط على من قد يكون تحته من المصلّين. محافظاً على وتيرة السرعة المتخفّية التي عبرت بها بين البيوت، لم أُطل بقائي في داخل الجامع تحت قبّته. ليس أكثر من دقائق قليلة رحت بعدها أتفحّص درفتيْ الباب المهترئ أسفل خشبهما. فكّرت، فيما أنا أخرج منهما تاركاً إيّاهما مفتوحتين مشرعتين، كيف أمكن لعمّي أن يختلف في لباسه عن كلّ ما في القرية التي عاش فيها أكثر حياته. تخيّلته، بجسمه الطويل وبطنه المنتفخ، وبجبتّه المكويّة الفاتحة اللون، يسير بينهم كما لو أنّه في زيارة لهم لن تطول لوجبة غداء واحدة. كأنّ تلك الإقامة الطويلة لم تقرّبه إلى الجدران التي كان يجول بينها و لم تجعله شبيهاً بالناس الذين عاش معهم. وقد كانوا يحبّونه كما كان يقول في بيتنا، ربما لعلمه، هو القليل الفطنة كما كان يقال بين أمّي والقريبات إليها من صديقاتها، أنّ عليه أن يرتفع عن الناس لكي يقدّروه ويريحوه.

كان الأنسب لأبي أن يكون بيته هنا. ذلك يتّفق مع رغبته بأن يعيش في الزمن الذي كان فقهاؤه يخطّون الكتب السميكة فيما الدنيا فقيرة مجدبة من حولهم. لكنه، مع ذلك، لم يكن ليعجبه أن أنتقل لأعيش هنا. كان سيقول لي لو كان يرافقني، جالساً إلى جانبي ومريحاً يديه وذقنه على عصاه، ومجيلاً عينيه الصغيرتين في ما يرى: أنت ستدفن نفسك حيّاً هنا. وسيجد في ما أنا مقبل عليه المطاف الأخير لكسلي الذي أعرف أنّه لم يتوقّف، وإن صامتاً، عن مراقبته.

كانت قوّة قلبه قد أبعدته عن الطمأنينة التي تأتي من تذكّر المكان الذي عاش فيه الناس القديمون. لم يكن ليعجبه أن أعيش في العبّانية على الرغم من أنّني أحسب أنّها أقرب الأمكنة إلى ذلك الزمن القديم الذي جعله يبدو، في لباسه وكلامه، كأنّه يحمله على الدوام معه. أقصد ذلك الزمن الذي جرى فيه كلّ ما حفظه رأسه من الكلام الذي كان يستشهد به وبقائليه في الحسينيّات. ذاك المكان الأوّل، أقصد، الذي أتاه، كما أتاني، من سيرة آل البيت ومن تنقّلهم ومن حصارهم ومن مسير نسائهم سبايا في الأرض المنبسطة، أرض الغبار والرمل الجاف والخيام والبيوت التي هي مثل الخيام، والنخيل المتباعدة شجراته إحداها عن الأخرى. كانت هذه الأرض الأولى الثابتة مشاهدها في الرأس والتي كنت أرى أنّهم أفلحوا في تصوير قطعة منها على المسرح الذي كانوا يقيمونه بيوم عاشوراء في كربلاء وفي النبطيّة أيضاً، ممثّلين مصرع الحسين ومن قضى معه من ذويه وأهله. هو المكان الأوّل الذي حدث لي أن صادفته، أو التقيته، كما لا بدّ صادفه أبي والتقاه، في النجف، وفي قرى بالعراق، وفي جوانب من أمكنة كنت قد عبرت بها عبوراً. أبي، المتعلّق بالزمن القديم ذاك، الذي كان يبدو كأنه مرسَل إلى أيّامنا من قِبَل أهله، كان ينبغي له أن يجد قِدمه ذاك في العبّانيّة، تلك التي، بفقرها وبقلّة زينتها، تبدو أقرب القرى إلى المكان الأوّل الذي في الرأس. المكان الأوّل الراسخ في ذاكرتنا، نحن الذين وجب علينا أن نظلّ قريبين من الدين. وهو المكان الذي يجعلنا في كل مكان نقيم فيه كأننا مستعيرينه أو لاجئون إليه.

قوّة قلب أبي أبعدته عن المكان الأوّل ذاك، لكن لا ليرغب في أيّ مكان آخر سواه. لم يكن يهمّه أين هو وأين يعيش. لم يوصِ قبل موته

بأن يُنقل إلى النجف ليُدفن فيها، هناك إلى جانب مَن سبق أن دُفن من أهله القديمين. لم يكن يهتمّ أين هو، أين يقف أو أين يعيش لكي يعنيه بعد ذلك أين سيدفن. في مرّات، حين كنت أشاهده واقفاً على مصطبة بيتنا، مريحاً نفسه من حبس نفسه في الداخل، كنت أسأل نفسي أين ينظر، وهل حقّاً يرقّ للزهرات الصغيرة التي زرعتها أمي عند طرف الحوض الفاصل بين الممشى الباطوني والبوابة. بل هل أسف لتركه بيته وإقامته عندي تاركاً كلّ شيء له هناك، وراء الأبواب المقفلة. فقط الكتب، "اذهب وجيء بها إلى هنا"، قال لي، إذ كان فيها، بين أغلفتها، كلّ ما يتذكّره ويحاور به نفسه وهو قاعد وحده عندي، مغمض العينين ذاهلاً عمّا حوله.

في السيّارة، وأنا عائد إلى الشقيفيّة، رحت أتخيّله، جالساً إلى جانبي لا يزال، وهو يقول، لكن بينه وبين نفسه هذه المرّة، إنّ ما نشاهده صغاراً ممّا يُقال ويُروى في مجالس العزاء وما يُمثّل في النبطيّة والنجف لا ينبغي أن نبقيه فينا كما هو في رؤوسنا حين نكبر. ذلك ينبغي أن يظلّ للصغار، وللآخرين من الكبار، أولئك الذين لم يغيّر الزمن ما في عقولهم.

* * *

– كنت في العبّانيّة، قلت لزوجتي.

– وحدك؟

– وحدي.

– لم يكن معك أبو عاطف ولا رفيقه؟

- وحدي.

لم تذكّرني بأنّها أبدت رغبتها في أن ترافقني، لا أكثر من أن أعادت السؤال مرّة ثانية بذكرها أبو عاطف ورفيقه. لم تستدر عن حيث تقف محتجّة على انفرادي بما لا يخصّني وحدي. لم تشأ أن تُقفل على ما ستسمعه منّي عن العبّانيّة كيف هي.

- ... وكيف وجدتها؟

- سنذهب لنزورها معاً.

وهي عرفت، لا بدّ، أنّني قلت ذلك لأعفي نفسي من الكلام، الكلام الذي سيطول وأبدو فيه في حال مَن يُستجوَب.

لم تستدر مخلية مكانها على الباب هذه المرّة أيضاً، بل انتظرتْ قليلاً لكي يبدو ذهابها انسلالاً يدلّ على أنّها ليست ساخطة رغم أنّه يحقّ لها أن تكون ساخطة.

- ... صغيرة، قلت لإرضائها بعد أن رأيتها ابتعدت خطوة أو خطوتين ذاهبة إلى المطبخ والغرف. وهي وقفت هناك، في مكانها، كأنّما لتختبر إن كنت سأكمل. تخيّلتها كيف هي واقفة، من حيث أجلس على الكنباية، متهيّئة إمّا لخطوة إلى الأمام وإمّا لخطوة إلى الخلف.

- صغيرة وفقيرة، قلت لكن بصوت بدوت به كأنّني أكلّم نفسي.

لم تقم بتلك الخطوة إلى الخلف، وأنا، بعد انتظار ثانيتين أو ثلاث، سوّيت جلوسي المائل الملتفت وذهبت هي إلى شغلها.

لقد تعبتْ، مثلي تعبت. ما باتت تريده هو أن تغادر البيت هنا، هكذا من دون أن تطلب شيئاً أو تشترط شيئاً. فقط أن تغادر، لظنّها أنّها ستبدأ حياة جديدة في المكان الذي ستنتقل إليه. بل إنّها بدأت

ربما التفكير في إعادة توزيع مختلفة للأثاث، وذلك في البيت الذي لم تعرف شيئاً بعد كيف هي متوزّعة غرفه وما هو عددها. أو يخطر لها أنّها تتخيّل أغطية مخرّمة تضعها على الطاولات لتزيّنها، وربما احتفظتْ ببعض منها في الأدراج مثلما تفعل النساء المنتظرات دائماً البيت الذي يحسبنه موجوداً في مكان ما من المستقبل. ما تريده هو أن تنتقل، أن تأتيها الفرصة لتقوم بتلك الخطوة التي تظنّ أنّها ستغيّرها، وذلك بعد أن تلاشت محاولتها السابقة لتجديد نفسها بمرافقة معلّمة المدرسة.

– أنا هنا، قال أبو عاطف مرسلاً صوته من بوّابة الحديد المفتوحة.

قمت عن كنبايتي قبل أن يظنّني لم أسمع فيكّرر نداءه.

– اصعد، اصعد يا أبو عاطف.

كان يريد أن نذهب إلى الجامع لنبدأ مناوبتنا فيه. وهو، حين وصل إلى أعلى الدرجات، أظهر لي ابتسامته التي تعني أنّه فهم بأنّني أريد أخذ إجازة اليوم.

– كنت في العبّانيّة، قلت فيما نحن نخفض مؤخّرتينا للجلوس.

– وحدك؟

هو أيضاً شعر، لا بدّ، بوخزة أنّني استبعدته عن مرافقتي.

– وحدي، قلتها ضعيفة كأنّما لكي لا تُسمع كلّها.

– ستساعدني لأجد بيتاً هناك.

– صمّمت على أن تتركنا يا سيّد؟

– تأكّدت، من دون أن يقول لي أحد، أنّ العبانية ظلّت بلا إمام منذ أن مات عمّي. كان باب الجامع مفتوحاً لكنهم تركوا الغبار يغطّي الحُصر...

- ... ولم تسأل أحداً هناك عمّن هو مكلّف بأن يهتمّ بالجامع؟

- لم أسال أحداً، لم أكلّم أحداً، فقط قمت بجولة على الطرقات بين البيوت.

- وهل أعجبك بيت من بينها لنذهب ونكلّم أصحابه؟

قالها من دون أن يخفي ميله إلى التهكّم، لكنّه، من بعدها، اتّخذ هيئة المُصغي لكي لا أقف أنا ولا يقف هو عندها.

- أعرف يا أبو عاطف أنّي لن أجد الآن بيتاً ينتظرني، وأنا لن أحمّل أغراضي غداً صباحاً وآخذها لأنزلها في العبّانية. علينا أن نسأل...

- نسأل معاً... أنت وأنا، قال معلناً أنّه لن يقوم بهذه المهمّة وحده.

- سنرى، لن نقوم بالتفتيش عن البيوت على أيّ حال. سنكلّف واحداً من الناس هناك ليفعل ذلك عنّا.

- سنرى، قال، ثمّ سألني إن كنت أنوي المرور على الجامع، "فقط لنلقي نظرة ولنقول للذين هناك "السلام عليكم"".

ونحن على الطريق قال، بما يشبه أن يكون يسأل نفسه، إن كانت العبّانية قادرة على أن تعيل رجل دين. وهو نظر إليّ بعد ذلك، منتظراً أن يتلقّى جواباً.

وأنا كان عليّ أن أفصح له عمّا أحصّله لعيشي، وهذا، في ما أرى، كان يفكّر فيه بينه وبين نفسه.

- وهل تظنّ أنّ أهل الشقيفيّة كانوا يحرصون على أن يزكّوا أموالهم ويخمّسوها؟

كان عليه هنا أن يسأل، ليبدو متابعاً فضوله، من أين يأتيني المال لأعيش. كان يعرف، كما يعرف كثيرون سواه من أهل الشقيفيّة، أنّني

أنفق أكثر ممّا أحصله منهم.

– وعمّي السيد عقيل كيف كان يعيش في العبّانية؟ صحيح أنّه لم يكن له عائلة لينفق عليها، لكنّه كان لا يرتدي إلا ثياباً جديدة ومكويّة ويقضي أيّامه متنقّلاً بين القرى.

تركته هكذا مشوّشاً حتّى حيال ما كان يعرفه، لا بدّ، من أنّني أنفق مما تركه لي أبي، وأنّني لا أزال أتلقّى شيئاً مما كان يصله من عارفيه ومؤيّديه.

عندما وصلنا إلى الجامع، وقبل أن نخطو إلى داخله، افتعل جلبة هناك عند البوّابة من أجل أن يلفت الذين في الداخل إلى أنّني جئت. كان بذلك يطوي ما حكيناه ويعيد ما بيننا إلى ما يسبق الحرج الذي تخلّله. كان الرجلان اللذان هناك قد باتا بمفردهما، وهما كانا واقفين أصلاً هامّين بالخروج. لكنّهما مع ذلك، أبديا الترحيب الذي يستدعيه الاستقبال، استقبالي، بأن قوّما وقفتهما وبادراني بالسلام قبل أن ألقيه عليهما.

* * *

كأنّ الصبيّين قد كبرا فجأة. بنطلون الأولاد القصير لم يعد يناسب ابني أحمد، الذي غلظت ساقاه وبدأتا تتّخذان الشكل الذي لسيقان الرجال. بل بدا لي شيء من العيب فيهما كأنّهما، هما المنكشفتان، ينبغي أن يكونا ممّا يجب ستره. ومثلما يحدث للصبيان وهم في عمره، خشن صوته، أقصد ذلك النشيج الذي بات يُطلعه منفلتاً وعريضاً كأنّه يُخرجه من جوفه. أيمن كبر هو أيضاً، لكن من دون أن يبدو أنّه بدأ دخوله في طور آخر من العمر. لكنّهما، مع ذلك، ظلّا مترافقين

متلازمين، وذلك لحاجة كلّ منهما إلى الآخر، أو ربما لحماية كلّ منهما للآخر، على الرغم من أنّهما، وخصوصا أحمد الكبير، لم يعودا في العمر الذي يشاكسهما الأولاد فيه ويبعدانهما برمي الحجارة عليهما. أعرف ذلك من مشيتهما في أثناء خروجهما من بين الأولاد في الجامع، حيث كانا يتبادلان معهم نظرات سريعة تنتهي بهزّ الرؤوس، ثمّ ينفصلان عنهم عائديْن إلى البيت.

ولم تبقَ رغبتهما في الذهاب إلى الجامع على حالها. ما تعلّماه هناك هو أقصى ما يمكن لهما أن يحصّلاه. في المرّتين اللتين رأيتهما قاعدين بين الأولاد كانا ساهمين أو ساهيين عمّا يقال أمامهما، وبين الحين والآخر يلتفت أيمن إليّ كأنّما ليرى كيف يبدو لي جلوسهما هناك، هو وأخوه. بل إنّ الرجل الذي يعلّمهما لم يعد يفيدهما حين يروح، بالحركات وبنبس بالشفتين، يفسّر لهما شيئاً ممّا كان قد قاله للأولاد الآخرين بالكلام. هنا أيضاً كان يلتفت إليّ أيمن، وكذلك أحمد في أحيان، ليتبيّنا إن كنت أعرف بعدم تجاوبهما مع ما يُفصّل لهما. وأنا كنت أغضّ نظري قبل أن يلتقطاه، مرسلاً عينيّ إلى المسبحة التي في يدي أو مديراً وجهي إلى أبو عاطف في المرّة التي كان فيها معي.

وقد أراحني أنّي أوقفهما عن شيء لم يعد يفيدهما فيه الرجال الذين لم أكفّ عن ارتيابي بهم على أيّ حال. بل إنّني رأيت أنّ وجودهما هناك بين الأولاد سيتعبهما، حيث سيتأكّد لهما في كلّ لحظة أنهما يفشلان في ما يحاولان فهمه. "لن يفيدهما ذلك"، كانت تقول زوجتي "لن يتعّلما إلا من معلّمين مختصّين"، كانت تضيف ملقية عليّ، بسبب إهمالي بحسبها، وزر بقائهما هكذا على حالهما.

بل إنّهما كانا سيتوقّفان عن الذهاب إلى الجامع من تلقائهما، و لم يكن سيتأخّر ذلك أكثر من أيّام. وربّما سيسرّهما، هما أيضاً، أن يغادرا الشقيفيّة التي لا أظنّهما يحتفظان من حياتهما فيها بما يسرّ. وأنا الذي كنت أؤجّل إبلاغي إيّاهما انتقالنا، رحت أفكّر أنهما لا بدّ سيتلقّيان ذلك مثل هديّة.

مفاجأتي بكبرهما لم تحدث مرّة واحدة أعتاد من بعدها على ما صارا إليه. ذلك يحدث كلّما رأيتهما، حتى لو لم تكن قد انقضت ساعات بين المرّة والأخرى. حين جاءا ليقفا أمامي في غرفة الزوّار أفهمتهما أنّهما صارا كبيرين وأن البناطلين القصيرة التي تكشف السيقان حتى وسطها لم تعد تناسبهما. وقد نظر أحمد إلى ساقيه، قابلاً بما قلت، بل وعارفاً به، وهو أسرع إلى لصقهما كأنّما لكي يحجب إحداهما بالأخرى. غير أنّي، لكي لا يربكه حياؤه، أدنيت إصبعي من أعلى شفته وتحسّستها لأفهمه إنّ شاربيه سريعاً ما سينبتان. "وأنت أيضاً" قلت، مصاحباً الإشارة بالكلام، لأيمن الذي لم يعرف إن كان عليه أن يبتسم.

كان عليّ أن أقول شيئاً آخر، أو أن آتي بحركة أخرى لكي يرتاحا من وقفتهما المتصلّبة أمامي. وقد بدا لي أنّهما زادا من مسافة الابتعاد عنّي، لأنّي كنت مشغولاً عنهما في الأيّام، أو الأسابيع، الأخيرة ربما، أو لأنّ من كانوا يعلّمونهما نقلا لهما شيئاً عنّي، أو ربما كان ذلك من فعل الأولاد رفاقهما. مددت يدي مشيراً إلى وسط أيمن هناك بين فخذيه وحرّكت يدي كأنّني أسأله عن أحوالها، هل هي كبرت؟ فقط تلك الابتسامة المقتصرة على الشفتين وحدهما. كنت أتوقّع أن يُضحكه

ذلك، أن يضع كفّيه الاثنتين فوقها محاذراً من أن أمعن في ملاعبته فأكرّر سؤالي ذاك ذاهباً بيدي إلى أبعد.

ظلّا على وقوفهما المتصلّب تاركين بينهما وبين جلوسي مسافة قرّراها. ربما أفهموهما أنّني أتلهّى عن الجامع الذي عليّ أن ألازمه، أو أنّني أُهملهما فلا أكون معهما ولا أسعى إلى أن أجد لهما المعلّمين المختصّين كما تقول زوجتي. ينبغي لي ألا أكمل معهما بالمزاح. سأترك لوقت آخر تغيير ما يحملانه في رأسيهما عنّي. ما يحسن فعله الآن هو أن أبلغهما، بل أفاجئهما، بأنّنا سننتقل من الشقيفيّة.

لم أكد أتّخذ الوضع الجدّي لأبدأ حتى أدركت أنّهما يعرفان بما سأقول. وقد ظلّت نظرتاهما نفسهما حين رحت، بيدي، أشير إلى حيث نحن هنا، في البيت هذا، ثم في الشقيفيّة التي أحطتها ضمن دائرة واسعة. "أتعرفان؟" سألتهما مشيراً بإصبعي إلى كليهما. كانا يعرفان. ربما من أمّهما التي لن أسألها إن كانت هي التي أخبرتهما، أو ربما من الأولاد الذين، هم أيضاً، لا أعرف كيف يمكن أن يصلهم العلم بذلك، أو من الرجال الذين هناك. كأنّ الجميع هنا علموا. خطر لي وجه أبو عاطف واشياً وناقلاً إلى آخرين ما يجري بيني وبينه، ثمّ محوته لئلّا يعلق بصورته هذه في رأسي. الكلّ يعرفون إذن، وليس الولدان وحدهما.

هذا ما يلغي ذلك الاحتمال الضئيل بالتردّد في مغادرة الشقيفيّة.

— وأنتما؟ سألت.

لم يُجيبا. أقصد أنّهما لم يجدا ما يقولانه.

لم يسبق لهما أن شاهدا العبّانيّة ليقابلا بين عيشهما فيها وعيشهما

هنا. لكنّهما، في أيّ حال، لن يكترثا بما تتميّز به كلّ من الضيعتين عن الأخرى، إذ إنّهما لا يتطلّبان الكثير من المكان الذي يعيشان فيه. سيكونان هناك مثلما هما هنا، ما داما لن ينفصلا عن أحد تعلّقا به. لن يجيبا إن أعدت عليهما السؤال. لا يعرفان بماذا يجيبان. لن أعود إلى سؤالهما. لا حاجة إلى ذلك ما داما سيظلّان معي، ولن يغيّر في شيء سواء أحبّا أو كرها.

* * *

الضيع التي لا وصول إليها إلّا من طريق واحدة، والمقفلة من جهاتها الأخرى كلّها والتي لا خروج منها إلا من تلك الطريق الواحدة ذاتها، لن يحدث فيها شيء حين أكون غائباً عنها. حين أخرج منها بسيّارتي أكون كأنّي أقفل بوّابتها بالمفتاح لأعود فأفتحها بعد عودتي. سأكون مطمئنّاً إلى أنّ البيت هناك سيظلّ كما هو، والأولاد كذلك، وكذلك الجامع الذي لن أحتاج إلى جهد كثير لتدبيره وإمامة المصلّين فيه. ثمّ إنّ أحداً لن ينتظرني فيه إن غبت. لا أكثر من أن يطلّ رأسُ رجل أو رجلين من بوّابته ليقول واحدهما للآخر إنّني لست هنا، فيعودان من حيث جاءا أو يدخلان لكي يصلّيا وحدهما. "جد لنا بيتاً هناك يا أبو عاطف" قلت له بعد أن أوقفت السيّارة وأنزلت زجاج النافذة ليسمعني. ولما رأى أنّني لا أزال جالساً فيها على مقعدي، أبدى عن ابتسامة هازئة فيما هو يتراجع عن سيّارتي ليخلي طريقي. لكنّه سيفعل ذلك، سيفتّش لي عن بيت... وسيجده، قلت لنفسي وأنا أدير له يدي إنّني راجع فلينتظرني.

لا يهمّ أن تعرف هي، زوجة أخي، أنّني سأنتقل من الشقيفيّة إلى العبّانية، فهي لا تجد فارقاً بين أن أكون هنا أو أن أكون هناك. لن يعني لها شيئاً أنّني سأصير في ضيعة صغيرة مهملة ستخفضني عما كنت فيه. ذلك ما لن تفكّر فيه. فقط ستسألني تلك الأسئلة المجاملة عن زوجتي وأولادي إنّ كانت العبّانية تناسبهم. وأنا سأكتفي بأن أومئ برأسي وأنفض يدي بتلك الحركة التي تعني أن لا شيء يهمّ وأن الفارق بين ضيعة وضيعة لا يعني شيئاً. لكن ينبغي لي مع ذلك أن أُلمح إلى أنّني سأفعل ذلك من أجلها، أقصد من أجلنا أنا وهي. ذاك أنّي سأشعر بأنّي صرت حرّاً من لحظة ما تبلغ سيّارتي آخر الطريق الضيّقة تلك. سأشعر، مع كلّ خروج لي، بأنّ العالم انفتح كلّه وأني لم أعد موصولاً بالمكان الذي خرجت منه، كأنما بحبل طويل معقود بظهري.

حين بلغت الطريق العريضة أثقلتُ رجلي على دوّاسة البنزين ملبّياً ذلك الشعور بأنني أفرّ مبتعداً عمّا أُخلّفه ورائي. ثمّ ارتفعت في داخلي موجة غبطة بدأت معها أغنّي، بصوت عال، ومديراً رأسي مع اللحن: "بتلوموني ليه... إمّم... بتلوموني ليه ...إمّم... لو شفتم عينيه... حلوين قدّ إيه..." وقد عرفت أنّني أجازف بأن يراني أحد من نافذته في سيّارته المسرعة هي أيضاً، لكنني مع ذلك أبقيت رأسي يدور مع لحن الأغنية "... وسهد الليالي... دا مش كتير عليه... ليه بتلوموني ... إمّمم...".

ولكي أستمرّ بالغناء، وأتجنّب المجازفة، رفعت عمامتي عن رأسي وركنتها على المقعد بجانبي. الأغنية نفسها: بتلوموني ليه... لو شفتم عينيه، كأنّها الأغنية الوحيدة الباقية في رأسي. كان السيّد مضر، رفيقي

في النجف، يميل برأسه مرافقاً لحنها فيما غناؤه لها لا يكاد يُسمع. كان يرى أنّ صوته قبيح وأنا أقول له إنّنا وحدنا على الطريق ولن يسمع غناءنا أحد. وحين أروح أنا أرفع صوتي فوق ما كنت أغنّي، كان يقول لي وأنت أيضاً صوتك قبيح، ثمّ نسكت معاً، إذ نكون سمعنا خطوات لا نعرف كم باتت قريبة منّا. هي امرأة، يقول لي بصوته الهامس وأنا أجيبه بأنّ النساء لا يخرجن وحدهنّ في الليل. ولا في النهار، يقول هو مستدركاً. السلام عليكم، يقول الصوت حين يصير قريباً منّا، ونحن نردّ على تحيّته ثمّ ننتظر حتى يبتعد لنعاود الغناء. ارفع صوتك... أنا أغنّي وحدي، أقول له فيجيبني بأنّه يرافقني بالتلحين، قاصداً حركات الطرب التي يجريها بتحريك رأسه. كنّا نرى أنّنا، في نزهاتنا تلك، نفترق عن أولئك الذين نكون معهم في النهار. بتلوموني ليه، أغنيها ملحّنة، ما زلت، لكن من دون أن أطلعها مسموعة، ومن دون أن أحرّك لها شفتيّ. في الجامع أتسلّى بها أيضاً، وفي البيت، حين أكون أقترب من الإبريق لأصبّ الشاي في كبّايتي، وأمام المرآة فيما أكون أسوّي عباءتي على جسمي وأركز العمامة على رأسي، لكن بلا صوت، دائماً بلا صوت.

* * *

كان بلال قد كبر هو أيضاً. حين ظهرتُ له من فتحة الباب أجرى تبديلاً سريعاً على هيئته مستبدلاً الضحك الذي حمله معه من الداخل بابتسامة متفاجئة. "أهلاً عمّي"، قال لي فيما هو يتردّد قليلاً قبل أن يوسع فتحة الباب لدخولي. وقد تردّدت أنا أيضاً، فقد كانوا كثيرين في الداخل،

فتياناً وفتيات في عمر الشباب الأوّل تفرّقوا حلقات راحت تضاحك بعضها بعضاً. قال لي إنّهم رفاقه في المدرسة، ثمّ أضاف، بعد أن نظر إلى الداخل، إنّه دعاهم اليوم إلى عيد مولده. خطر لي أن أسأله عن عمره، لكنّني عدلت. فهذا، بحسبه، مما ينبغي لي أن أعرفه بنفسي. "ادخل... ادخل... تفضّل" قال فيما هو يحيد عن الباب لأمرّ. ولما بدا له أنّني ما زلت متردّداً قال لي إنّ أمّه هنا في البيت وإنّه سيدخل ليبلغها أنّي جئت. لم تتأخّر. سمعت وقع خطواتها القويّة تقترب، ثمّ ظهرت لي، محمرّة الوجه من كثرة الانشغال، وعلى رأسها انعقدت ربطة ملوّنة قدّرتُ أنّها الزينة التي تتزيّن بها الأمّهات عند الاحتفال بأولادهنّ.

– أعود في وقت آخر، قلت لها ملتفتاً إلى الكثيرين الذين في الداخل.

– لكن ادخل الآن، إنّهم رفاق بلال.

– أعرف، إنّه عيد ميلاده.

– لن يتأخرّوا كثيراً بعد، إنّهم هنا من ساعات.

– سأرجع... سأرجع، أنت على كلّ حال ستُشغلين بهم.

قالت إنها أنهت شغلها معهم وهي تستطيع أن تتركهم وحدهم في البيت.

وقد بدأتْ ذلك بأن مدّت يديها لترفع الربطة الملّونة عن رأسها، ثمّ أومأت لي بيدها أن أنتظر قليلاً، وذهبتْ مسرعة إلى الداخل.

كنت جالساً منتظراً في السيّارة حين عادت واضعة غطاء أبيض على رأسها. الاحمرار الذي كان يصبغ خدّيها جرّاء انهماكها في الشغل تغطّى بطبقة أصباغ تخيّلتها كيف أجرتها، هناك في غرفتها، على عجل. قبل أن تفتح باب السيّارة لتجلس بقربي أرسلتْ نظرة أخيرة

إلى باب بيتها المقفل. قالت لي، وهي على المقعد، إنّهم طبعاً يفضّلون أن يكونوا وحدهم. وفيما هي تُنزل فستانها ليغطّي ركبتيها أضافت أنّها لن تتأخّر على أيّ حال. وأنا، الذي لم أكن أعرف حتى حينه إن كانت تقصد فعلاً أن تسير بنا السيّارة، وجدْتني أُدير المحرّك وأبدأ الرجوع إلى الخلف غير عارف ما هي الخطوة التالية.

وهي لم تشر لي بشيء حين بلغت السيّارة الطريق حيث يجب أن أعرف إلى أين سنذهب. فقط ذلك التبديل السريع لجلوسها الذي لم تنقضِ دقيقتان أو ثلاث على تسويته، مفضّلة أن تضع رجلاً فوق رجل. بدت بذلك أنّها تركت لي أن أقرّر ماذا أفعل، أنا الذي لا ينبغي لي إلّا أن أظلّ أسوق السيّارة، ناظراً إلى الطريق أمامي.

– تغيّر عليّ بلال، فاجأني حين فتح لي الباب.

– هو تغيّر عليّ أيضاً، كلّ يوم يأتيني بشيء جديد.

– لأنّه لم يعد ولداً...

– يحبّ الحفلات، هو ورفاقه. يريدون أن يسهروا كلّ يوم.

– صار يتعبك...؟

– أخاف ألا أعود أفهمه، بعد سنة أو سنتين مثلاً.

فكّرت أنّ هذا يكفي عن بلال. إن أجبتها أنّ الأولاد يتغيّرون جميعهم في هذا العمر لن نعود نعرف كيف نخرج من الحكي عنهم. لكنّني مع ذلك لا أجد شيئاً آخر أقوله. كأنّني انتبهت، مرّة أخرى، إلى أن لا شيء بيننا نحكيه، أقصد لا شيء خارج الكلام القليل الذي لا تتعدّى جملته كلمتين أو ثلاث كلمات؛ الكلام الذي يوصل إلى شيء بعده؛ إلى أن أتقدّم خطوة نحو أن أصل إلى ما أريده منها: خطوة

إضافية لأصير في المرحلة التي تلي...

هي تظنّ أنّنا بوجودنا معاً هكذا، منكشفين لمن قد يعبرون في الطريق، ستتقدّم بي خطوة، خطوتها، نحو أن أقول بالكلام ما أشعر به نحوها. أن أقول لها مثلاً لماذا أرغب فيها وأن أصف لها مشاعري، هكذا مثلما يفعل المتعلّقون بحبّ بعضهم بعضاً. كان ينبغي لي أن أصرّ على أن تبقى هناك مع ابنها وضيوف ابنها وأغادر بمفردي. أن أقول لها إنّني سأعود بعد ساعة وأروح في ذلك المكان العالي الذي أعرفه أنتظر خروجَ الأولاد، وخروج بلال معهم، فأنزل إليها، وهي وحدها في البيت، لكي أبدأ معها، بالكلام القليل، أو من دون كلام أبداً، من حيث انتهينا في زيارتي الأخيرة.

كانت يدها مستلقية إلى جانبها، قريبة تكاد تصل إلى طرف مقعدي. ربما أرختها هكذا عن قصد، مظهرة عن بياضها وانتفاخها الخفيف وعن الأحمر الفاقع الذي لوّنت به أظافرها. كأنّها تقدّمها لي، وأنا لن أحتاج إلى أن أجد عذراً لإمساكي بها وإبقائها في يدي. لكنّني لن أفعل. ليس بسبب السيّارات العابرة، تلك التي يحبّ مَن فيها أن يروا مَن هناك إلى جانب رجل الدين، بل لأنّي لا أستطيع أن أذهب إلى أبعد من أن أُبقيها في يدي، كأن أصل إلى ساقها الذي عاد وانكشف إلى ما فوق الركبة.

وراء مقودي كنت أتقدّم بسرعة واحدة لا تنقص ولا تزيد. ونحن، أنا وهي، بقينا صامتيْن ناظريْن إلى الطريق أمامنا، تلك التي سنخلّفها وراءنا بعد أن نتقدّم عنها. ولا أعرف لماذا لا أقرّر أنا بنفسي متى نرجع، هذا مع أنّني أنا الذي يجب أن أبادر إلى أن أقول شيئاً أقطع به الصمت الذي يصير أثقل مع كلّ مسافة نقطعها من الطريق، وأنا الذي عليّ أن

أمدّ يدي إلى يدها المنتظرة بلا حركة.

كانت قد انقضت أقلّ قليلاً من نصف ساعة حين قالت لي إنّ نزهتنا هذه قد فشلت. قالت ذلك بعد أن استقامت بجلوسها وراحت تسوّي، بيديها الاثنتين، الغطاء على رأسها. "فشلتْ" قالت، تاركة إيّاي للحظة أفكّر في وقع الكلمة القويّ وباختلافها بفصاحتها عن كلامها العادي. ومع أنّني فكّرت أنها استعارتها من لغة ابنها ورفاق ابنها، إلّا أنّني، مع ذلك، شعرت بأنّها استعادت القوّة السابقة التي كانت لها أيّام ما كنت أتسرّق النظر إلى تنقّلها في بيتها.

– الأحسن أن نعود، قالت بعد أن نظرتْ إلى الساعة في يدها.

استجبت من فوري، فقد كان المنعطف الذي يسهّل لي إدارة سيّارتي قريباً.

حين صرنا في طريق العودة قلت لها، كأنّما لأعتذر عن صمتي السابق، إنّني سأنتقل لأعيش في ضيعة أخرى.

انتظرتْ وقتاً قبل أن تخرج من هيئة الصمت التي اتخذتها.

– أنت وعائلتك طبعاً؟

قالت مصحّحة طريقتي في قول ذلك.

– اسمها العبّانيّة.

أمهلت نفسها لحظات قبل أن تطبق شفتيها وتهزّ رأسها نافية أنّها عرفتها أو سمعت اسمها.

– هي القرية التي أقام فيها عمّي السيد عقيل.

ربّما عنى لها ذلك شيئاً، فقد بدت كما لو أنّ ذاكرتها هدتها إلى شيء.

كنت أنتظر أن يدفعها فضولها إلى أن تعرف متى سننتقل، أنا وعائلتي، أو حتى أن تسأل، هازئة ربّما، إن كنت سأحلّ فيها محلّ عمّي السيد عقيل.

بقينا صامتين في الدقائق التي تلت. وهي، لكي تفهمني أنّها ستظلّ على حالها هكذا صامتة، جعلت تشاغل نفسها بالنظر إلى يديها الملوّنتي الأظافر، ترفعهما أمام عينيها ثمّ تقلبهما لترى كيف تظهران من باطنهما أيضاً. كانت بذلك ترفعهما من القرب الذي كان متاحاً لي، وها هي تدعوني إلى تأمّلهما بعيدتين مع كلّ حركة منهما ومع كلّ نظرة من عينيها إليهما. كما لو أنّها تغيظني بهما، تظهرهما أمامي، أنا الذي أتسرّق النظر إليهما، لكن لتقول إنّها تمنعني عنهما. حين أخفضتْهما لكن لتضعهما مسبلتين مستويتين على ساقيها شعرت بأنّها تختبرني وأنّها، مع ذلك، ستعود لترفعهما بمجرّد أن أحرّك يدي باتجاههما. لم أفعل، كانت المسافة إلى بيتها ما زالت تحتمل أن أترقّب شيئاً يحدث ويغيّر ما نحن فيه، لكن ينبغي لذلك ألا يتأخّر، أو ألا أتأخّر أنا عن المبادرة إليه، إذ بدأتُ أحسّ بحرارة يديها وبطراوتهما وبالملمس الملتمع للّون الأحمر الذي يصبغ الأظافر. تكون قد نجحتْ إن انسقت إلى رغبتي في الإمساك بهما، أو بإحداهما، تلك التي أستطيع أن أقبض عليها بحركة خاطفة واحدة. لكنّها ستبعدها، بحركة مقابلة تقوم هي بها، حركة خاطفة ومباغتة. أو أنتظر أن يتغيّر شيء، أن يأتي شيء منها حين تفكّر في أنّ الطريق تزداد قصراً أمامنا. كانت يداها ما زالتا هناك على ساقيها، معروضتين لي، وهي، مجازفة بفوات الوقت القليل الباقي لنا، أدارت وجهها إلى زجاج النافذة. لن أفعل، سأبقي يديّ ممسكتين

بالمقود وسأبقي عينيّ ناظرتين إلى الطريق أمامي. هذا ما يجب أن أفعله في انتظار أن نصل إلى هناك، حين ستقف السيّارة على ذلك الممشى المتطاول أمام الباب.

وصلنا في وقت خروجهم. كانوا متجمّعين أمام الباب المفتوح مكلّمين بعضهم بعضاً ومنتظرين أن يخرج من بقي منهم في الداخل. فتحتْ هي الباب مسابقة توقّف السيّارة، ثم ركضتْ مسرعة إليهم. كان بلال آخر الخارجين وهو لوّح لي بيده قبل أن يلتفت إلى أمّه متّجهة نحوه. لم تطل كلامها معه. لا أكثر من كلمات قليلة راحت بعدها تبتسم لرفاقه. وحين بدأوا بالمسير دخلتْ هي من الباب المفتوح من دون أن تلتفت إليّ باقياً وراء مقودي. اقترب بلال مني وقال لي إنّه ذاهب مع رفاقه الذين جعلوا يتمتمون مسلّمين عليّ فيما هم يعبرون من جهتيْ السيّارة. سألته إن كانوا يحتاجون إلى أن أوصلهم إلى حيث هم ذاهبون، فابتسم لي وأدار ذراعه إليهم ليقول إنّهم كثيرون. ثمّ خبط كفّه خبطة خفيفة على حافة النافذة بيننا، هكذا مودّعاً إيّاي بحسب ما يفعل من هم أكبر منه عمراً. شاهدته في المرآة وهو ينضمّ إليهم خارجين من الممشى الطويل. وهو بدأ الكلام من فوره حين صار بينهم، ناسياً هكذا ما خلّفه وراءه. كان عليّ أن أشعر بالخجل من بقائي هناك، وحدي وراء ظهور من يغادرون وأمامي الباب الذي يحيّرني بقاؤه مفتوحاً. عليّ أن أخجل من أن أظلّ باقياً حيث أنا ولا يدعوني أحد إلى شيء. هل تركتْ الباب مفتوحاً عن قصد؟ هل انّها تكمل اختبارها لي فتروح تقفل الباب حين تراني خرجت من السيارة؟ هل تريدني أن أدخل حقّاً؟ وأنا، هل يليق بي أن...؟

أدرت محرّك السيّارة وعلى مهل رحت أسير بها إلى الخلف. وعلى مهل أيضاً أدرت السيّارة إلى وجهة الطريق. وإذ أطلعتُ صوت المحرّك قويّاً كأنّني أعلن بدء ذهابي، ظهرت هي على الباب، ممسكة الدرفتين بيديها وناظرة إليّ.

كانوا قد تركوا كلّ شيء في مكانه. على الطاولتين اللتين جمعتا معاً كانت الصحون متّسخة ببقايا ما كان فيها، والشراب الذي فاض عن أكوابهم بقّع الشرشف الأبيض الطويل الذي يغطّي الطاولتين. كذلك تناثرت على الأرض قشور الفاكهة وبقع من سوائل وضعت فوقها محارم ورقيّة لكي لا تتمدّد رقعها وتتّسع. وقفت وهي تنظر إلى الفوضى أمامها ولا تنظر إليّ واقفاً أنا أيضاً مقلّباً نظري مثلها إلى ما اتّسخ وما انقلب من مكانه. بدت لي كأنها استدعتني من الخارج لتُشهدني على ما تركه الأولاد لها، هي التي كانت تعرف، لا بدّ، أنّ هذا ما ينتظرها من احتفالهم. وبعد أن أفردت ذراعيها بتلك الحركة المتسائلة ماذا عليها أن تفعل ومن أين تبدأ، أشارت لي إلى الكنباية الصغيرة التي كانت قد أُزيحت عن مكانها:

– خمس دقائق... سألمّ الصحون والأوراق فقط...

– أنا أساعدك، تريدين أن أساعدك؟

– لا... لا... خمس دقائق لا أكثر، قالت مشيرة إلى الكنباية، تلك البعيدة عن الطاولتين وما حولهما.

تردّدتُ قليلاً ماذا أفعل. كانت الكنباية قد أُفردت عن كلّ شيء حيث لا طاولة صغيرة أمامها ولا شيء إلى جانبيها. فكّرت أنّني، إن جلست، سأبدو مثل متفرّج تؤدّى المشاهد له وحده.

وهي لم تنتظر قيامي بالخطوة الأولى إلى هناك. تركتني واقفاً حيث أنا واتّجهت إلى المطبخ، مزوّدة جسمها بتلك الطاقة المفاجئة، والتي ستبديه لي مختلفاً في ظهوره عمّا كنت أعرفه منه.

وأنا على الكنباية هناك سيتاح لي أن أراها كيف تتصرّف وكيف تتحرّك حين لا يكون أحد معها. هذا يكفي وحده ليكون ما أشاهده تلصّصاً. حين عادت من المطبخ رفعت كفّها مفرجة أصابعها، ثمّ قالت: خمس دقائق. كانت تحمل صينية واسعة وفوطاً مطويّة مرتّبة، وأنا الجالس على تلك الكنباية، رحت أستعدّ لأن أشاهد ما سيُعرض لي.

تابعتُ مشيها إلى الطاولتين لتضع على طرفهما الصينيّة. كانت قد غيّرت اسكربينتها العالية الكعب بمشاية بيتيّة أبدت ربلتي ساقيها أكثر امتلاء. كانت تعرف أنّ نظري كلّه متجّه إليها، وأنّني غير متحرّج من أن تباغتني بالتفاتة تضبطني بها متلصّصاً. كنّا كما لو أنّنا متوافقان على أن أرى ما أحبّ أن أراه، وأن تتصرّف هي كما لو أنّها تخبّئ عنّي ما قد يُظهره انحناؤها وطيّها لركبتيها، ثمّ وقوفها بعد ذلك شادّة التنّورة إلى الأسفل.

أخفضت نظري متابعاً إيّاها فيما هي، مبقية على انحنائها، تلمّ الأوراق المبعثرة على الأرض. ثم أعليت نظري حين وقفت لتسند بمرفقها ظهرها الذي أتعبه الانحناء. وهي نظرت إليّ مبتسمة كأنّها تقرّ لي بأنّها تتعب هكذا مثلما يتعب الكبار. وإذ استدارت ومشت خطوتين إلى حيث كانت الصينية على طرف الطاولة، مخلية المكان الذي كانت تقف فيه، وقعت عيناي على صورة لأخي لم أشاهدها

معلّقة هنا، على الحائط، من قبل. كان الزجاج الذي يؤطّرها يلتمع من وسطها، عاكساً ضوءاً لم أتبيّن من أين يأتيه. لم يسبق لي أن رأيتها معلّقة هنا، بل لم يسبق لي أن رأيتها بين الصور التي أعرفها. كانت هي بيننا، في الوسط بيني وبين أخي الذي في الصورة، منحنية تلمّ الأوراق. وأخي، بتلك النظرة المتمسخرة لكن الضاحكة أيضاً، بدا كما لو أنّه كان يراقبنا منذ أن دخلت هي، ولحقتُ بها أنا، لنكون في البيت وحدنا.

– هي واحدة من الصور في الألبوم... بلال أحبّ أن نكبّرها ونعلّقها هنا على الحائط.

ربّما كانت آخر صورة أُخذت له، فلا شيء فيها يختلف عمّا كانه في الشهور، بل الأسابيع، التي سبقت موته.

– هو... بلال... أخذها إلى محلّ التصوير وعاد بها مبروزة وكبيرة، أضافت فيما هي لا تزال منتظرة متوقّفة عن شغلها.

ما يُجفل في صورته هذه حيويّته التي تبديه كأنه سيحرّك شيئاً في وجهه، أو أن يرفع يده مثلاً، لتبين أمامه.

– استفاق على أبيه، قالت مديرة ظهرها لترفع الشرشف عن الطاولتين اللتين يغطّيهما.

تصرّ على أن تُظهر تنصّلها من عودة زوجها، أو استعادته، الآن، بعد أن مرّت تلك السنوات على موته. ربما تهيّأ لها أن ذلك يعني إدخاله من جديد إلى البيت، أو أنّ وجوده، ولو في الصورة، يعني أنّها قرّرت أن تُغيّر في ما تحوّل إليه عيشها.

أنا أيضاً كنت مرتبكاً ولا أعرف بماذا عليّ أن أشعر:

– يمكن أن تكون هذه أفضل صورة تُعلّق له، قلت مثنياً على اختيار

بلال، وإن كنت رأيت أنّ تلك النظرة الساخرة والاعتداد الذي يبديه كأنّه يباغت أحداً غير مناسبين لتذكّر رجل ميّت. يجب ألا يستمرّ الحرج أكثر من دقائق ننسى في آخرها الصورة المعلّقة هناك. سأكون مثل أولئك الناس المبالغين بالحديث عن فرط حساسيّتهم إن عظّمت من شأنها. لكنّني، مع علمي بذلك، لم يبدُ لي أنّني سأتخلّص من نظرة العينين اللتين لن تغمضا أبداً.

– تريد أن أنزلها الآن، أن أضعها في الغرفة ما دمت هنا؟ قالت ذلك ممازحة، فيما هي تخطو من أمامي لتأخذ ما تحمله إلى المطبخ. ومن هناك، من حيث يطلع صوت الماء مندفعاً من الحنفيّة، قالت إنّ بلال يبدو مفتخراً بأبيه أيضاً، وهو راح يحدّث رفاقه اليوم كيف أنّه كان في عمر الثلاث سنوات وكان أبوه يرفعه عالياً، إلى سقف الغرفة، محمولاً على كفّ يده القويّة.

– الأفضل أن نغيّر نحن مكاننا، وليس مكان الصورة.

– أن نذهب إلى غرفة النوم تقصد؟ أجابت فيما هي تمرّ من أمامي، مطلقة نحوي تلك النظرة المراوغة.

– غرفة النوم فكرة معقولة، قلت، مراوغاً أيضاً.

– وبلال، الذي لم يقل لي متى سيرجع؟

– لا أكثر من أن نتأخّر بفتح البوّابة.

احتمال الخطر ذاك، واحتمال الإرباك أيضاً الذي وضعتنا فيه صورة أخي، يناسبانني. بهما أستطيع أن أتذرّع لأوقف ما نحن فيه، هناك قبيل الحدّ الذي أعرف أنّني غير قادر على بلوغه. سأقول مثلاً إنّني سمعت طرقاً على الباب، وأقوم كأنّني بوغتّ تاركاً إيّاها تقول إنّها لم تسمع

شيئاً. ما يناسبني هو أن يكون انفرادنا غير آمن، أو أن يكون ممكناً لي أن أجد سبباً لأعتبره كذلك، ولأنسحب، تاركاً إيّاها مستلقية على السرير، وعلى مسافةِ لحظات قليلة من بلوغ ذروتها.

– اليوم لا... ليس اليوم، قالت مرسلة نحوي نظرة مغوية.

ولم تتأخّر عن إنهاء تمشّيها من أمامي، ذاهبة إلى المطبخ وعائدة منه. أخذت واحدة من الكراسي المبعثرة حول الطاولتين وقرّبتها من الكنباية حيث أجلس: "إيه... أين كنّا؟" قالت بادئة مما ترى أنّه الكلام الذي يحوّل وجودي عندها إلى زيارة عادية.

* * *

الفصل السابع

مثلما عرفت من قبل بأنّ مرضي سيأتيني، حادساً بمجيئه من خوفي وحده، أعرف الآن أن المرض سيعاودني، وأني عدت إلى أن أخاف إن ذكر أحد اسمه أمامي. لم أشاهد علامة من علاماته ظاهرة على جسمي، لكنّني مع ذلك كان إحساسي بمجيئه قويّاً. سيكون هذه المرّة أعصى على المعالجة، وأنا، على أيّ حال، لا أجد نفسي قادراً على أن أتحمّل من جديد ما أُجري عليّ في المستشفى. لا أقدر حتى على تخيّل نفسي ممدّداً على ذلك السرير الضيّق وهم حولي، أطبّاء وممرّضون، يكلّم بعضهم بعضاً قبل أن يغيّبوني بالمخدّر الذي يُنزلني إلى ذلك القاع أرتطم به في أقلّ من لحظة أو لحظتين. وما يتعبني هو أنّه عليّ أن أبقي خوفي في داخلي لا أخبر عنه أحداً. إن فعلت أكون أخبر من أكلّمهم عن وسواسي وليس عن مرضي، وهم سيقولون لي إنّني غير مرتاح في هذه الأيّام، مبتسمين في أثناء ذلك، هكذا مثلما سيفعل الطبيب إن قلت له إنّي أحسّ بمرضي قبل ظهور علاماته. بل وهو سيوسع ابتسامته إن قلت له إنّني، في تلك المرّة الأولى، أدركت بحدسي أنّه سيجيء، وهو جاء. "ابقَ هنا في المستشفى على أيّ حال" سيقول لي بعد أن ينهي ابتسامته. وأنا لا أتخيّل نفسي إلّا بادئاً، بالفحوص أوّلاً، تلك الطريق التي ينبغي لي أن أكمل فيها حتى نهايتها.

لا علامة واحدة ظاهرة على جسمي ولا أحسّ بوجع أو بنزف

من مكان ما فيه. "لكنّ ما لا أتبيّنه الآن سيظهر بعد حين"، أقول للطبيب فيما أنا أعيد تسوية ثيابي عليّ. في أحيان أفكّر أنّني لست فقط أحسّ بوجوده بل إنّني أستعجله ليأتي مسرعاً. أعرف أنّني أستطيع أن أنشغل عنه بقيامي بما ينسيني إيّاه، كأن أصطحب أبو عاطف إلى العبّانيّة ونروح معاً نسأل عن بيت، أو أن أقضي وقتاً زائداً في الجامع، لا أكون فيه ناظراً فقط إلى أولئك الذين حسّنوا إقامتهم فيه فأعادوا طلاءه وبدّلوا بعض حصره بأخرى جديدة، وجلبوا آلة مكبّرة للصوت يستطيعون بها أن يكلّموا الشقيفيّة، بصوت واضح مسموع، وهم قاعدون في أماكنهم.

– قم بنا يا أبو عاطف، أقول له بعد أن كنت قد وقفتُ وبدأت تهيئة ثيابي للخروج. وهو يقوم، لكن بعد أن يتلفّت حواليه كأنّما ليرى إن كان أحد من الذين في الجامع قد انتبه إلى إطاعته لي بأنه سيقوم بعد أن أقول له "قم". وعلى الطريق، ونحن في سيّارتي، أراه يطيل سكوته ناظراً من الزجاج إلى ما نمرّ به. وحين يخطر له أن يقطع صمته، يبدأ بأن يعود إلى تذكيري بأن لا أحد يترك الشقيفيّة من أجل أن يعيش في العبّانيّة. يكون يقصد الفرق بين إمامة الجامع الذي هنا والجامع الذي هناك. وأنا أجيبه بأنّنا خرجنا لتوّنا من جامع الشقيفيّة وهو رأى، بل وخبر، كيف يكون جلوسنا بين أولئك الذين يحتلّونه. "لكنّ ذلك لن يدوم" يقول لي، ليضيف بعد ذلك إنّ وجود هؤلاء في الجوامع ليس طبيعيّاً وإن لعبتهم، بحسب ما يسمّيها، لن تطول.

"ليسوا من رجال الدين" يقول مظهراً على وجهه علامة الاستغراب. "أين درسوا الدين؟" يتساءل، قاصداً أنّهم لم يخرجوا

من النجف مرتدين العباءات والعمائم، كما أنهم، فوق ذلك، لا تبدو عليهم هيئة السيّاد والمشايخ. وأنا أجيبه بأنّني تعبت، وأنّني لم أعد صغيراً حتّى أُبعدهم عن الجامع وأروح أعمل فيه على قدر ما يعملون.

وهو قال لي مرّة إنّني رجل دين ولست موظّفاً لكي أنهي خدمتي في عمر التقاعد. "رجال الدين ترتفع مكانتهم كلّما كبروا في العمر" أضاف متذكّراً، لا بدّ، أولئك الكبار الذين ابيضّ شعر لحاهم كلّه وتدلّى إلى منتصف بطونهم. أنا لم يخطر لي أبداً أني سأصل إلى ذلك، بل لم يسبق لي أن تخيّلت نفسي وقد أُجلست على طرّاحة لأطلق فتاوى بصوت لا أكاد أقوى على أن أطلعه من حنجرتي.

– جدّك السيّد مرتضى أكثر ما يُذكر عنه هو ما أفتى به في آخر أيّامه.

أجابني أبو عاطف مستعيداً ما قاله جدّي حين أفتى بأن تستعيض الزوجة المطلّقة ثلاثاً بتعريض نفسها لموج البحر بدلاً من أن يُجامعها رجل غير زوجها. في عمري المبكر، حتى قبل أن أذهب إلى النجف، كنت أجد ذلك حيلة لا يحتاج اختراعها إلى علم قليل أو كثير. كما كنت أجد تصديقها من قبل الناس، بل واحتفالهم بها، دليلاً على هبلهم وقلّة فهمهم. وحين صرت في النجف رحت مع رفيقي السيّد مُضر ننكّت على فتوى جدّي بأن نقول إنّ ذلك لو كان صحيحاً لما ارتدّت النساء عن السباحة في البحار. بل إنّنا صرنا ننكّت على جدّي نفسه فنقول إنّه، وهو في عمره ذاك، كان يعرف ما تشعر به المرأة حين تصيبها الموجة القويّة، هناك، حيث كان ينبغي أن يصيبها ذَكَر الرجل.

– وصلنا يا أبو عاطف، أقول له فيما أنا أركن سيّارتي عند الفسحة الواسعة لصق حائط الجامع... "ننتظرهم هنا في الداخل... سيأتون بعد أن يقول لهم الأولاد إنّنا هنا".

* * *

أتذكّر رفيقي السيّد مضر لحاجتي إلى أن أكلّمه بما لا أستطيع أن أكلّم به أحداً. أن نضحك، أنا وهو، من أمور لا أستطيع أنا إلّا أن أعابث شعر لحيتي وأتّخذ هيئة المتفكّر حين أُسأل عن مسألة منها لأجيب بما ينبغي فعله حيالها. وأن أكلّمه عن الأغنيات التي كنّا نغنّيها معاً في الليل، محاذريْن أن يسمعنا أحد من الماشين على الطريق. بل أشتاق إلى أن نغنّيها من جديد، الآن، وإن بصوت خافت نحرص أنا وهو على ألّا يصل إلى سمع زوجتي فيما لو كنّا جالسيْن في غرفة الزوّار عندي في بيتي. وأن أقول له ما أشعر به نحوها، هي زوجة أخي، بل وأن أصطحبه إلى بيتها لأقول له: هذه هي يا سيّد مضر... كيف تراها؟

أبو عاطف الذي بتّ لا أكلّم أحداً سواه يريدني أن أكون بحسب ما جئت إلى الشقيفيّة لأجله. جرّبت مرّات أن أغمز له متبيّناً إن كان يحتمل سماع ما لا ينتظره منّي، فلم أتلقَّ منه إلّا تلك النظرة التي تبديه كأنّه لم يسمع أو أنّه فهم واستحى أن يجاريني بما سمعه. وها هو يريدني أن أبقى في الشقيفيّة ولا أتركها لهؤلاء الذين لا يعرف مَن هم أو إن كانوا حقّاً من البلاد التي يقولون إنّها بلادهم.

– تأخروا يا أبو عاطف... نحن هنا من نصف ساعة ولم يأتِ أحد منهم.

– لا يريدوننا عندهم، قال، ثم انتظر دقيقة ليضيف، إنّ "الأحسن لنا أن نعود إلى بلدنا".

– قم بنا نتمشّى يا أبو عاطف. كيف يعرفون أنّنا هنا إن لم نظهر لهم؟

رأيناهم على الطريق، في زقاق حشره بيتان متقابلان وضيّقاه. كانوا أربعة رجال يسيرون متفرّقين على الرغم من أنهم بدوا جميعاً مجدّين في مشيهم. وقد وقفنا لهم لكي يصلوا إلينا ولنعود معهم إلى الجامع. وهم زادوا من سرعتهم حين رأونا واقفيْن ننتظرهم. عندما وصل أوّلهم انحنى ليقبّل يدي فأسرعت إلى ردّها كما ينبغي لي أن أفعل، وكذا فعلت مع الرجلين اللذين تبعاه. ثم وقفنا معاً منتظرين وصول آخرهم لاهثاً متّكئاً على عصاه. وهو، حين اقترب ومددت يدي لمصافحته، أخذ يحدّق في وجهي كأنّه يحاول أن يتذكّر شيئاً. و لم يتوقّف عن التحديق فيّ وإمساك يدي إلّا حين قال له أحدهم إنّني متعب ويجب أن أرتاح.

الرجل السمين الأقلّ كهولة بينهم ألحّ في دعوتنا إلى بيته، لكنّنا آثرنا أن نعود إلى الجامع الذي ليس فيه حتى ماء للشرب كما قال. كانوا ملتفّين حولي في طريق عودتنا تاركين أبو عاطف يسير بمفرده متأخّراً عنا. وهو راح يكلّمهم من حيث هو سائلاً إيّاهم إن كانت البيوت هنا كلّها مأهولة. وهم، لكي يجيبوه، جعلوا يشاورون بعضهم بعضاً. وأنا، الماشي في وسطهم، رحت أتلفّت إلى الخلف لأُفهم أبو عاطف أنّنا نضيّع وقتنا وأنّ هؤلاء لن يفيدونا في شيء.

– نحن تأخّرنا، قال أبو عاطف حين وصلنا إلى حيث كنّا أوقفنا السيّارة.

أنا أيضاً قلت إننا تأخرنا، واستدرت لأخطو إليها غير مكترث بأننا، أنا وأبو عاطف، لم نظهر عن اعتذار يسبق تركنا لهم. وهم بدوا مدهوشين من سرعة توجّهنا نحو السيّارة وقولنا لهم كلام وداع متعجّل.

– هؤلاء هم مَن ستعيش معهم، قال أبو عاطف بعد أن أنهى فتح زجاج نافذته.

– هؤلاء كهول، ليسوا هم مَن...

– الأقل كهولة منهم لا يختلفون عنهم... كلّهم هكذا... بسبب المياه التي يشربونها ربما.

قال ذلك من دون أن يبدو ساخراً أو ممازحاً، وأنا أدرت وجهي إليه كأنّما لأستفهم إن كان يقصد حقّاً ما قاله عن مائهم. "هم هكذا، مرّتين جئت سائلاً لك عن بيت، وفي المرّتين كان من يرافقونني يدقّون أبواب البيوت سائلين مَن فيها إن كانوا يعرفون بيتاً خالياً، هكذا، كأنّ ضيعتهم هذه أكبر من أن تحدّها عقولهم".

– هي الماء التي يشربونها، قالها مرّة أخرى متعمّداً الالتفات نحوي، كأنّما ليحذّرني من أنّني سأصير مثلهم بعد وقت من إقامتي بينهم.

***

مرضي الذي أحدس بعودته لم يصل إليّ بعد. ربما عرف أين سيحلّ، في أيّ موضع من جسمي، لكنه، حتى الآن، لم يصبني. ذاك أنّي ما زلت في المرحلة التي أكون فيها خائفاً من مجيئه، مرحلة التعرّق ووهن اليدين

حتى لتكاد تسقط مني كبّاية الشاي فأسرع إلى إرجاعها إلى الصينيّة أمامي. هذه إنذاراته، أقول فيما أنا أمسح بقفا يدي شفتيّ الرطبتين، ثم أقوم عن الكنباية، لا لأفعل شيئاً، بل لأقف فحسب، ولأمشي خطوات في المساحة الضيّقة من أجل أن تنسيني حركتي ما يفكّر فيه عقلي.

كذلك ينبغي لي، كي أتلهّى عنه، أن أذهب إلى أبعد في إشغالي لجسمي. "أين هما الولدان؟" أقول لزوجتي، فتجيبني مثلاً بأنّهما لم يعودا منذ الظهر، من دون أن تتوقّف عن طيّ كومة الغسيل التي جمعتها أمامها. وقد أعود إليها مرّة ثانية لأسألها إن كانا قد أكلا قبل خروجهما. وإذ تجيبني بأنّهما أكلا، أعود إلى كنبايتي وأفكر في أنني لم أسألها عن البنت أين هي. لكنّني لا أفعل. سأبدو أمامها، في تلك المرّة الثالثة، كأنّني أدفعها إلى أن تسألني إن كنت أشكو من شيء. وأنا أكون راغباً في ذلك، أن تقول لي كلمة تطمئنني، رغم أنّني أعرف أنّ كلمتها هذه، مهما كانت، لا تعني شيئاً. ثمّ ماذا أقول لها؟ "أنا خائف" لتعود تسألني، فيما لا تفارق عيناها قطعة الثياب التي رفعتها أمامها: ممَّ أنت خائف؟

سأحتاج إلى شيء حقيقي يمكنها أن تراه أو أن تلمسه. كأن أقول إنّني أتحسّس وَرماً هنا، أو إنّني رأيت دماً في بولي. الآن، وأنا بعدُ في مرحلة الخوف من المرض، لا يفيدني أن أكلّم أحداً. ستكون مهمّة أبو عاطف سهلة في محاولته طمأنتي إلى أن ما بي ليس شيئاً. على كلّ حال، اذهب إلى الطبيب، يقول لي، كأنّما ليسكتني، إذ ماذا أقول له بعد قوله اذهب إلى الطبيب. لا أكثر من نعم... نعم... الأحسن أن أذهب إلى الطبيب.

ثمّ أعود إليها وقد صارت بين الأسرّة في غرفة الأولاد: ألا تعرفين أين هم؟

– من؟

– الأولاد، الولدان والبنت.

فقط تلك التكشيرة المستفهمة التي ألمحها في ضوء الغرفة الخفيف. وإذ أهمّ بأن أنصرف عنها، يأتيني صوتها: أنت تسأل كثيراً عن الأولاد؟

– أريد أن أنزّههم... أن آخذهم في نزهة بالسيّارة.

– إلى أين؟

تسأل، قاصدة أنّهم لم يعودوا صغاراً ليكفيهم مجرّد الركوب في السيّارة. ولا أستطيع أنا إلّا أن أبقى حيث أنا، سادّاً باب الغرفة، لحظة أو لحظتين، قبل أن أخطو تاركاً إياها وهي تردّد في رأسها صدى جملتها الأخيرة هذه.

– أنا ذاهب إلى الجامع، أقول لها بعد أن أكون فتحت باب الخروج، لكنّني، وأنا أنزل الدرجات، يخطر لي أنّني سأقعد قلقاً بينهم وأن لا طاقة لي حتى على ردّ تحيّاتهم. الأفضل لي أن أسير متجوّلاً على قدميّ ملقياً تحيّات سريعة على من قد أصادفهم. ثم أعود إلى استعجالي لكي أبدو قاصداً بيت أحد يحتاج إلى مشورتي.

* * *

تلك الكلمات التي قلتها كانت واحدة من الأغلاط التي نرتكبها في لحظة من لحظات الاستعجال. لم أكن قد فكّرت، كما ينبغي لي،

قبل أن أقولها أمامهم هناك في الجامع. و لم أكن قد أخبرت بها أبو عاطف الذي أعرف أنّه سيرى في ذلك تجاهلاً مني له واستخفافاً به. الأرجح أنها خرجت من فمي هكذا، مثل واحدة من كلمات المجاملة، أو مثل كلمة اعتذار نقولها لمن تأخرنا عشر دقائق عن موعد اتفّقنا عليه معه: "هذه الكتب التي عندي، الكتب التي كانت لأبي، سآتي بها إلى هنا"، قلت فيما أنا أدير عينيّ إلى تلك الجهة من الجامع، كأنّني أقترح أن توضع هناك، لصق الحائط الخالي. ومن دون أن ألتفت إلى أيّ منهم، هم الذين سمعوني، تخيّلت كيف اتّسعت عيونهم، وكيف ارتسمت على وجوههم الابتسامة التي سيبدأ من بعدها سيلان اللعاب، تلك التي تبديهم كأنّهم كسبوا شيئاً من دون حتى أن يسعوا إليه، وها هم يفكّرون في ما يجب فعله ليصير في أيديهم. وقد تأخّروا في الاستجابة لما قلته، ربما ليضفوا أهمّية وثقلاً على ما سينطقون به، ذاك الذي لم يكن أكثر من : "بارك الله فيك يا مولانا"، قالها من هو الأكثر صمتاً من بينهم في العادة. قالها خفيفة، لكن مصاحَبة بتلك النظرة المؤكِّدة، النظرة التي تقول إنّ اتّفاقاً قد أبرم.

لا بدّ أنّ ذلك قد خطر لي من قبل، مرّة أو أكثر، لكنّني كنت أستنكره وأبعده بحركة هاشّة من يدي. هناك في الجامع خرج مني من دون تهيئة، كأنني قلته لأبرّر خروجي المسرع بعد دقائق قليلة من وصولي وجلوسي في الركن الذي اعتدت الجلوس فيه. وقد قمت من بعد تصريحي ذاك، مكتفياً بمباركة الله التي استحققتها. "السلام عليكم" قلت قبل أن أبدأ أولى خطواتي إلى الخارج، مسلّماً هكذا

بالاتفاق الذي أُبرم، والذي سيكون عليّ أن أنفّذه بعد ما لا يزيد عن زيارة أو زيارتين لي إلى الجامع، وإلا سأبدو أمامهم، وأنا هناك، أنني أتأخر في القيام بشيء اتفقنا على القيام به.

وفي الخارج، فيما أنا أسير متجهاً إلى بيتي، كان عليّ أن أبدأ بردّ الصفعات التي أتخيّلها تقع على رأسي وخدّيْ. أعرف أن حجتي بأنّني وهبت الكتب للجامع لن تصمد طويلاً، إذ سيعاودني بعدها شعوري بأنني أعطيتها لهم، لهم هم، حتى لو أبقوها حيث هي، كاملة في خزانتها، هذه التي ينبغي لي أن أحملها إليهم هي أيضاً.

– سأنقل الكتب، كتب أبي، إلى الجامع، قلت لزوجتي حين بدأت الابتعاد عن الباب الذي كانت فتحته لي. كنت أعرف أنّ ذلك لن يعجبها، لكنني كنت في حاجة إلى أن أسمع شيئاً من أحد.

لم تقل شيئاً، و لم يبنْ عليها شيء. لا أكثر من أنّها توقّفت لحظة عن المشي، لتقوم بتلك الالتفاتة غير الكاملة التي لم تصل بها إلى أن تراني، حيث لا أزال واقفاً لم أتجاوز عتبة الباب.

– شاياً... أريد شاياً، قلت فيما أنا أنعطف لأصل إلى كنبايتي. كان ذلك ردّي على امتناعها عن الجواب.

وأنا جالس على الكنباية، رحت أفكّر في أنني لا أستطيع إلا أن أعطيهم الكتب كلها. ربما أبقي الكتاب الذي قرأت فيه تلك الأشياء التي خطّها أبي، والتي أضاف إليها كتاباته القليلة. سوى ذلك، سأعطيهم الكتب كلّها لأنّني سأحتاج إلى صبر ووقت طويلين حتى أتصفّحها وأبقي عندي ما قد يهمّني منها. وقد أحسست بالتعب

الذي سأقاسيه بمجرّد ما تهيّأ لي أنّني أخرج الكتب، واحداً بعد واحد، وأروح أقلّب صفحاتها لأتبيّن ماذا فيها.

ولم تحضر الشاي.

– قلت إنّي أريد شاياً، ألم تسمعي؟

وهي، الباقية في المطبخ، لم يبدُ ما يدلّ على أنّها سمعت هذه أيضاً. وأنا، ساخطاً، قمت عن كنبايتي إليها:

– أين الشاي؟ قلت كأنّني أستدرج كلمة منها، أيّ كلمة، لأعلي صوتي.

– العلبة فارغة، لم يعد عندنا شاي. ولكي تبدو هي أيضاً مستعدّة لأن تسخط، قرّبتْ علبة الشاي الفارغة إليّ دافعة إيّاها دفعاً لأراها بعينيّ.

كان ذلك أكثر من حنق معتاد. بوجهها المتصلّب الخالي من اللون تقدمت إليّ كأنما لترغمني على أن آخذ العلبة التي تريدني أن آخذها عنوة من يدها. وأنا اكتفيت بأن جعلت أتمنّع مقبضاً يديّ وثابتاً في وقوفي الذي يسدّ الباب. لم أكن أستطيع أكثر من ذلك، ذاك أنّها بدت أشدّ غضباً مني، وأنها ستذهب في غضبها إلى حدّ سأتحفظ عن مجاراتها فيه.

– ابتعد... ابتعد، أخذت تقول معلية صوتها ومتحايلة بجسمها كأنّما لتمرّ من ذلك الفراغ الضيّق بين جسمي وفتحة الباب. وأنا تنحّيت مخلياً الباب لأدعها تمرّ. ومن حيث وقفتْ، مسندة ظهرها إلى حائط الممشى، راحت تنظر إلى علبة الشاي التي لا تزال في يدها، ثم أعلت يدها بها، مرّة، ثم مرّة أخرى، لكنها، بدلاً من أن

ترميها من يدها أو تصيب بها الحائط المقابل، بدأت تُطلع صوت بكاء محشرج.

لم يسبق لي أن رأيتها تبكي. كنت أفكّر أن وجهها لا يغيّر هيئته الواحدة لأنها لا تعرف إلا ذاك الشعور الواحد بكره حياتها. وقفتُ صامتاً أمامها فيما هي تستمر ببكائها المحشرج المتدافع. لم أعرف ماذا أفعل. لم أعرف كيف أنتقل بهذه السرعة إلى أن أقول كلاماً يهدّئها. وسيكون أكثر صعوبة أن أمدّ يدي إلى كتفها، أو إلى يدها، وأسير بها إلى حيث أُجلسها في غرفة الاستقبال.

– أحمد مريض، قالت لي بعد أن تعدّيتها ذاهباً بمفردي إلى غرفة الاستقبال.

توقّفتُ، كأنّما لأقلّب في رأسي كلّ ما قد تعنيه كلمة مرض.

– مريض كيف؟ قلت وأنا أعود إليها.

– مريض... كان يجب أن نأخذه إلى المستشفى، قالتها هكذا كأن أوان ذلك قد فات الآن.

* * *

المعلّمة التي عادت إلى الالتقاء بها أقلقتها وخوّفتها. قالت لها إنّ الدمامل التي تطلع في أنحاء من جسمه، تلك التي يفرزها الجسم ليتخلّص من أوساخه، هي علامات على مرض يجب أن نبدأ بمعالجته الآن، قبل أن يزيد ويستفحل. أنا نفسي كنت أراها في جسمي وأنا صغير في عمره، وكانوا يفقأونها لي بعد أن تحمرّ رؤوسها. على جلد ابني أحمد رأيت الدمامل التي لم تيبس بعد، واحدة منها في ذراعه

نبتت بقرب دمّلة طريت وبدا أنها توشك أن تزول، رادّة القيح الذي كان فيها إلى داخل جسمه، وواحدة في رقبته فوق ظهره، واثنتان في أعلى ساقه اقتربت إحداهما من أسفل بطنه. و لم تكن تؤلمه إلا حين تحتكّ بشيء كما أفهمني، نافضاً يده مرات كأنه يبرّد الحرارة التي يأتي بها وجعه منها.

– إنها دمامل، تصيب الذين بدأوا الدخول في عمر البلوغ.

– لكني أريد أن نأخذه إلى المستشفى.

– الدمامل هذه لا تخيف.

– بلى تخيف، يجب أن نأخذه إلى المستشفى.

فقط من أجل ألا ترافق كلامها تلك النبرة المتّهِمة بأنّي لا أهتمّ بالأولاد كما ينبغي لي، قلت لها، كأنّي أعرض مساومة، إنّ من الأحسن أن نأخذه إلى الطبيب أوّلاً: هكذا يجب أن نفعل، الطبيب يعرف أكثر منا ومن المعلّمة.

– أنا سآخذه إلى المستشفى، وحدي، قالت وقد بدأ يعاودها حنقها وتصلّبها.

وإذ أطرقتُ مسلّماً بأننا سنفعل ما تشاؤه، ظلّت هي مستمرّة في عنادها:

– سآخذه إلى المستشفى وستكون المعلمة معي.

كنت جازماً بأن ما ينبت على جلده لا سبب له إلا فوران جسمه، وهذا على الرغم من أنّني كنت أترقّب، منذ أن كان صغيراً بعد، أن يأتيه مرض تصعب مداواته. لم تثنني عن ظني هذا قوة جسمه، تلك التي أراها في ثخانة عضله الذي راح يصير أقسى وأكبر في

سنوات نموّه الأخيرة. أكثر ما كنت أرى ذلك في ساقيه، وفي كتفيه اللتين تبدوان لي أكثر غلظة من أن أتمكن من إمساكهما إن خطر لي أن أطرّي عضلهما بأصابعي. كان يدهمني الخوف عليه مثل موجة ترتفع في داخلي، سواء رأيته مقبلاً إلي، أو واقفاً أمامي، أو مديراً ظهره ليذهب مبتعداً عنّي. ربما بدأ ذلك من وقت ما تأخّر في لفظ الكلمة الأولى، وفي بقائه أخرس من بعدها، وأصمّ لا تستجيب عيناه وحركة يديه للأصوات التي كانت تنفخها أمه في وجهه. لا أعرف من أين جاءني ذلك الهاجس الذي ظلّ ملازمني على الدوام: أولئك الذين يولدون بعيب فيهم لن يعيشوا طويلاً. ربما من خبر سمعته وأنا صغير، أو من ظني بأن النقص في الخلقة نذير من الله وعلامة على قلّة العمر. لم يكن مصير جودت هو ما أوحى لي بذلك، إذ لم يكن يخطر لنا، نحن مجايليه، أنّه سيموت، وإلّا لكان الآخرون أشفقوا عليه وقرّبوه إليهم بدل أن يرشقوه بالحجارة ليبعدوه عنهم. ثمّ إنه كان قد رتّب حياته كما لو أنّه لن يموت، فاشترى ماكينة ثانية لخياطة الليف أضافها إلى الماكينة الأولى.

أنا وحدي من بين الأولاد كنت أكلّم جودت وأفترق عنهم من أجل أن أكون معه. كأنني كنت، بغير وعي مني، أُعدّ لما سيحصل لي مع ابني، بل مع ابنيّ الاثنين، على الرغم من اختياري أولهما، أحمد وحده، لأقلق عليه وأخاف. "نأخذه إلى المستشفى غداً"، قلت لها من وراء باب الغرفة التي ذهبت إليها لتحبس نفسها فيها. تظنّ أنه كان عليها أن تبلغني ذلك منذ أن بدأت تلك الدمامل تظهر على جسمه، ما إن تيبس واحدة حتى تنبت واحدة أخرى قريبة منها.

كان عليها أن تخبرني، أنا الذي لا تعرف ماذا يشغلني عن ابنيّ وابنتي كما راحت تقول.

* * *

كأنّها عرفت كيف تنقل عدوى خوفها إليّ. حين أخرجته من الباب، ثمّ أوقفته عند مصطبة الدرج لتحضر من الداخل شيئاً نسيته، رحت أمسح خدّيه بيديّ لظنّي أنه ربما يكون خائفاً مثلها. وعلى الدرج كان يطيعها في نزوله مبقياً قوس كتفيه تحت ذراعها الذي يحيط به. لكنها أرخته حين أتاها صوت المعلّمة من الأسفل داعية إياها إلى أن تسرع. وحين سمعتُ إغلاقها لبوّابة الحديد، واستدرتُ من ثم لأتابع النظر إليهما من نافذة غرفة الاستقبال، رأيت ابني أيمن واقفاً خلفي، تاركاً بينه وبين درابزين الدرج مسافة خطوة. ابتسم لي ابتسامة فاترة ظلّ من بعدها ناظراً في وجهي كأنه يتبيّن كيف سأتلقّاها. ابتسمتُ له أنا أيضاً، ثمّ أمسكته من أعلى ذراعه مرافقاً إياه إلى الداخل. وهناك، بعد أن أطبقت الباب، شعرت بما كانت قد اتهمتني به زوجتي، حيث استدار هو متجهاً ناحية المطبخ والغرف، تاركاً إياي لأذهب إلى حيث أكون، وحدي، في غرفة الاستقبال.

لكنني تبعته. كانت هبة قد استفاقت من نومها وهي، منذ أن أنزلتْ رجليها عن السرير، بدت كما لو أنها انتبهت إلى أن شيئاً تغيّر من حولها. "صباح الخير يا هبة الحلوة"، قلت لها متقدماً خطوات نحوها. وحين صرت واقفاً أمامها رفعت رأسها إليّ وسألتني أين هي أمها. ثمّ أمسكتُ يدها لأخرج بها إلى حيث يقف أخوها متطلّعاً

حوله في الغرفة الثانية. قلت إننا الآن سنأكل، مصاحباً ذلك بتلك الحركة المتكررة بين يدي وفمي. لكن هبة عادت وسألتني أين هي أمها وأين هو أخوها. قلت لها إنها أخذته إلى الحكيم ليشكّه بالإبرة، ثمّ مشيت بها وبأخيها إلى المطبخ لأرى ماذا أطعمهما.

وقد أدرك أيمن أنني مقبل بهما على مهمة لا أتقنها، فاندفع هو ليسبقني إلى إخراج الخبز من صندوقته وإلى أن يفتح البراد بعد ذلك لينظر ماذا فيه. وهو، من شقّ باب البراد المفتوح، أدار وجهه إلي ليدعوني إلى مشاركته النظر في الصحون الموضوعة على الرفوف. وفيما أنا أتقدّم لأحني رأسي، مدّ يده إلى حيث البيض وهزّ رأسه سائلاً إياي إن كنت أحبّ أن نقلي منه. ولكي أطيل وقت انشغالنا معاً، رحت أتناول البيضات، واحدة بعد واحدة، وأسأله في كل مرة، إن كان عليّ أن أزيد على ما بات منها في يدي. كان يعرف أنّني أتعمّد، بل أفتعل، ما أقوم به لتسليته وطمأنته، وهو أخذ يجاريني في ذلك بوضعه بيضة ثم بيضة ليصير ما في كفيّ كومة بيض علينا أن نعيدها بعد ذلك إلى رفّها.

بيديه غير الخبيرتين، اللتين كانتا تتحركان بأكثر مما تقتضيه مهمّتهما، جعل أيمن يعدّ فطورنا، مبعداً إيّاي بيده كلما اقتربت لأعاونه. بعد ذلك حمل الصينية الواسعة لينقلها إلى الغرفة الملاصقة للمطبخ، غير أني أدرته إلى غرفة الاستقبال، داعياً إياه مع أخته ليأكلا عندي. لم تعد هبة تسأل عن أمها أين هي، لكنّها، هي أيضاً، لم تكن تتكلّم ولا تبتسم أو تضحك حين أشبّه لها دخول اللقمة في الفم بدخول القطار في النفق، إذ ربما كان هذا مما يتسلى به من هم أصغر منها عمراً. ولم تأكل كثيراً. أيمن أيضاً كان يأكل لقماته الأخيرة

مستعجلاً ابتلاعها من أجل أن يقوم، من فور ما ننتهي من الأكل، لكي يحمل الصينية إلى المطبخ. وهذا ما دفعني، أنا أيضاً، لأسرع في إنهاء أكلي، متيحاً له أن ينتهي من عمله بفطورنا.

لم يعد إلي في غرفتي. يحتاج مني إلى دعوة ثانية. وحين قمت إليه رأيته وقد بدأ يرتدي ثيابه. سألته إن كان يريد أن يخرج فهزّ رأسه مبطئاً، علامة على أنه لا يعرف وأنه لم يقرّر ذلك بعد. لم أدْعُه إلى أن يأتي للجلوس معي. أعرف أنني سأضجره، وأن أخته لن تبقى أيضاً عندي، فسرعان ما ستذهب إلى ما يلهيها، هناك قرب سريرها.

لم يخرج، و لم يكن يفعل ما يصدر صوتاً من بقائه بمفرده. فكّرت، وأنا باق في مكاني حيث أنا، في أنّه لن يخرج لأنّه اعتاد أن يكون دائماً برفقة أخيه، وأنّه سيكون يجازف أو يختبر أن يقوم بمفرده هذه المرّة بما اعتادا القيام به معاً. لن يعرف كيف يكون وحده بين أولئك الذين كان يقعد بينهم في الجامع أو يذهب معهم إلى النزهة في البرّية منقّلاً بينه وبين أخيه الأكل الذي سيكون حصتهما من الطعام الذي سيشتركون جميعاً في أكله.

* * *

أنا أيضاً لم أكن أفعل شيئاً. أجّلت لوقت لاحق الوقوف أمام خزانة الكتب لأرى إن كان من بينها ما يجب أن أبقيه عندي. كما أنّني تكاسلت عن أن أقوم لأصنع كأس الشاي التي اعتدت شربها. لا أكثر من أن أقوم عن كنبايتي إلى حيث النافذة، ثم أعود إلى الكنباية. فكّرت أنّه سيكون نهاراً طويلاً وأن عليّ أن أفعل شيئاً لأبدأ بتقطيعه.

تذكّرت ما قالته لي زوجتي عن أنّهم ما عادوا صغاراً ليبهجهم مجرد ركوبهم في السيارة، لكن هبة ما زالت تحبّ ذلك، فكّرت. وحين قمت لأسألهما عن ذلك، واقفاً في آخر الممشى حيث أكون مرئيّاً منهما معاً، رأيت أيمن واقفاً على مصلّيته مسبلاً يديه إلى جانبيه ومُطلعاً من شفتيه صوت التمتمة. وقد بقيت واقفاً في مكاني منتظراً أن أراه يسجد ويقوم بعد ذلك من سجوده. ثمّ خطر لي أن أصغي إلى التمتمة التي تصدر من خبطه لشفتيه علّني أسمع ما يشبه أن يكون كلمة صحيحة، أو على الأقل أن يُخرج ذلك الصوت السهل على السمع للحرفين الأوّلين من بسم الله، فهذان لا يحتاج نطقهما إلّا إلى الشفتين وحدهما، ما دام ما يمكن أن يتعلّمه هناك في الجامع لن يكون أكثر من تحريك الشفاه وتقليد الصلاة تقليداً.

– أيمن بيصلّي، قالت هبة من حيث بقيت جالسة في ضوء الغرفة الخفيف، مبقية اهتمامها في ما تشغل به يديها. ثم، من دون أن ترفع عينيها إليّ قالت، كأنها تكلّم نفسها، إنّ أحمد يصلّي هو أيضاً.

– وأنت بتصلّي؟

– لأ، قالت فيما هي منصرفة إلى ما تتلهّى به.

– لأنّك صغيرة؟

– إيه لإني صغيرة.

* * *

لم أخرج من البيت في ذلك النهار، و لم يأتِ أبو عاطف ليزورني.

أيمن أيضاً ظلّ في البيت مثلي متنقّلاً بين الغرفتين والمطبخ. كان قلقاً على أخيه، وأنا كنت أرى أنّ مشيه المتواصل في تلك المسافات القليلة دليل على انتظاره وقلّة صبره. هبة كانت تعرف كيف تسلّي نفسها مستغرقة في الدمية التي بين يديها وفي قطع القماش الصغيرة التي تُلبسها لها.

وقد تأخّرت زوجتي في العودة إلى البيت، وهذا ما أخافني وأقلقني. كنت بين الحين والحين أذهب إلى حيث أيمن لأرى إن كان يتسلّى بشيء، ثمّ أعود إلى غرفتي مدركاً أنني مثله لا أتنقّل إلا بسبب قلقي. كان الليل قد حلّ حين سمعت صوت السيّارة، ولما رآني أيمن أشير له بإصبعي أنّ السيارة باتت هنا في الأسفل، خرج، وهم بعد في الأسفل، لينتظر وصولهما واقفاً في أعلى الدرج. حين أطلّا من بوابة الحديد رأيت زوجتي تقرّب يدها لتمسك يد أحمد، كأنما لتعينه على الصعود. وهو وافقها على ذلك، لكنّه ما لبث أن أفلت يده منذ أن صارا مواجهين الدرجات. ثم سبقها بعد ذلك، لكي لا تعود إلى الإمساك بيده أو لتضع يدها على ظهره مظهرة رعاية زائدة له. حين صارا في الأعلى، انتظرتْ أن يتعدا قليلاً، كأنهما هو وأخوه يستطيعان أن يسمعاها، لتقول لي إنهم أخذوا عيّنة من دمه ومن الدمامل التي في جسمه، وإنهم أجروا له فحوصاً أخرى أتعبته. ثمّ قالت، فيما هي تتقدّمني إلى الداخل، إنهم سألوها إن كانت تفضّل أن يبقى هناك في المستشفى حتى تظهر نتائج الفحوص.

– يعني ألم يقولوا شيئاً قبل نتائج الفحوص، ألم يفكّروا في شيء؟

– قالوا إن علينا أن ننتظر يومين حتى نعرف.

* * *

في الصباح، وهو نائم في سريره، استبق جسمه النتائج التي كنا ننتظرها. أتت إليّ زوجتي راكضة لتقول لي بصوت هامس متعجّل، أن أتبعها. كان نائماً على ظهره، كاشفاً الغطاء عن ساقيه الممدّدتين خارجتين من طرف السرير. وحين اقتربت منهما رأيت تلك النقاط الحمراء تنتشر على كلّ بصمة فيهما. وإذ أعليت الغطاء لأكشف عن باقي جسمه رأيت هذه النقاط تغطّيه كلّه، مثل غرزات لا عدّ لها شُكّت برأس دبوس محمّى. ومن دون وعي مني أسرعت إلى إيقاظه، هازّاً إيّاه من أعلى ذراعه، ثم محيطاً خدّيه بيديّ الاثنتين محرّكاً وجهه يميناً ويساراً. وهو فتح عينيه متّسعتين وراح يحدّق في وجهي.

لم أعرف كيف أسأله إن كان جسمه يؤلمه. وأمه الواقفة خلفي كأنما لتنتظر آخر ما أستطيعه معه، لم تستطع إلا أن تمدّ يدها إليه لتلمس، بكفّها الممدود، النقاط الحمراء المنتشرة على ساقه. ثمّ قالت لي أن أضع يدي على جبينه لأعرف إن كان محموماً. أما هو فلم يشأ أن يبقى طويلاً تحت أيدينا ووجوهنا المبحلقة فيه. قام عن سريره، فتراجعنا عنه من أجل أن يمرّ من بيننا ونعرف كيف سيكون حين يقف ويمشي.

كان يتحرّك في البيت كعادته. أول ما فعله كان ذهابه إلى المطبخ ليشرب. رفع الإبريق ليرى إن كان الماء الباقي فيه يكفي عطشه، ثم أعلاه بعد ذلك عن رأسه ليدفع الماء إلى فمه. وحين استدار ورآنا أنا

وأمه واقفين على باب المطبخ، ابتسم لنا تلك الابتسامة التي سرعان ما أقفلها متطلّعاً حوله ماذا عليه أن يفعل.

ربما كان قد انتبه قبلنا، في وقت ما من الليل، إلى ما طفا على جلده. منذ أن أفاق، وعلى الرغم من مشاهدته لنا منحنيين فوقه، لم يخطر له أن ينظر إلى حيث ننظر، ولم يستوقفه ما شاهده على يديه حين رفع الإبريق بهما. وحين عاد إلى الغرفة ليرى إن كان أخوه لا يزال نائماً، عجبت كيف أنه، على رغم ما به، يتحرك ويتصرف كأن لا شيء تغيّر فيه. كانت أمه تتبعه أنّى اتجه ومع كلّ خطوة يخطوها. وبين الحين والآخر، تروح تنظر إليّ كأنما لتعرف مني ما هذا الذي أصابه. ثم، من وراء ظهره، أخذت تطرق بسبابتها إلى الأسفل لتفهمني أنّنا الآن، الآن، يجب أن نذهب به إلى المستشفى.

* * *

الخوف من المرض، حدسي ذاك الذي يصيب، أصابه هو بدلاً مني. حين جاءني هذه المرّة كان ينذرني بما سيحصل له وليس بما سيحصل لي. على الطريق ونحن ذاهبون إلى المستشفى، كنت متيقّناً من أن المرض لن يأتينا معاً في وقت واحد. ليس لأن القدر يعجز عن ذلك، وليس بسبب رحمة الله، بل لأنني لا أجد ذلك مناسباً لما أذكره من عيش الناس وأمراضهم. مرة أخرى، وهو جالس في السيارة إلى جانبي، بدأت أفكر، وإن بتخبّط أشدّ، ما الذي يُمرض في ما نحن فيه. في اليوم الذي تلى معرفتي بمرضي، وبعد عودتي إلى البيت، صرت أنظر إلى الحائط وأقول إنها الرطوبة التي في الحائط هي التي

أمرضتني. في أحيان أخرى، أقول إن المرض أتاني لقبولي في أن أكون ما لا أحب أن أكونه وإطاعة أبي فيه. أو أقول إنه كمد عيشي مع زوجتي. أو أقول إنه أكلها الذي، ها هو الآن، يلحق ابني بي. كانت جالسة في الخلف، على المقعد وراء ابنها، كأنّما من أجل أن يكون قريباً إليها، في حضنها، إن حدث له شيء ونحن في الطريق. وهي، كلما سرنا خمس دقائق، تقدّم رأسها إليه لتسأله إن كان يريد أن تفعل له شيئاً. وكلما نظرت في المرآة إلى وجهها المقدود كأنما من جلدة واحدة أقول إنها ولدته أصمّ أخرس هكذا وها هي الآن تمرضه. ثم إنها تخيفه مما هو فيه بإقبالها عليه في كلّ مرّة وجعله يلتفت إليها ليعرف أنها تسأله إن كان يريد أن تفعل له شيئاً. أخافته، وها هو يمدّ يده إليّ طالباً مني أن أوقف سيّارتي. "ماذا يريد؟" سألتْني، ثم التفتت إليه لتقول له، بالكلام، ماذا يريد. كوّر أصابعه أمامي ليفهمني أن أنتظر، ثم خرج إلى الحقل الذي إلى جانبنا ليبحث عن مكان يحجبه عن السيّارات العابرة ليبول فيه.

– كان الأحسن أن تنزل معه، قالت لي فيما هي تفتح بابها وتتّخذ الوضع الذي تكون فيه متهيّئة للنزول.

وأنا، من مكاني على مقعدي، تابعت مشيه وانعطافه إلى خلف كومة الأحجار والتراب ثمّ وقوفه هناك ليبدأ تدفّق بوله، قوياً بما يلائم عمره الفتي، لكن مريضاً، لا بدّ، تخالطه جراثيم وبيوض من تلك التي تلازم الأمراض. وها هو ينفض النقاط الأخيرة، ثم يقفل السحّابة ويخطو، متأخّراً لحظتين أو ثلاث عن تخيّلي، ليظهر من وراء الكومة.

رفعت كفّي إليه حين وصل، سائلاً إياه إن كنت أستطيع الآن أن أكمل مسيري.

وهو أطرق برأسه موافقاً، ثم اعتدل في جلوسه ناظراً إلى الطريق أمامه.

– نزل ليبول من خوفه، قلت بصوت شبه هامس كأنما من أجل أن تسمعه هي وحدها.

لم تردّ على ما قلته، فقد عرفت أني وجّهت إليها الاتهام بتخويفه. بدلاً من ذلك، رفعت نفسها عن كرسيّها وقرّبت جسمها ليصير وجهها مواجهاً لوجهه، ثم، قبل أن تعود إلى مطرحها، مسحت وجهه، كل وجهه، بكفّها، من أعلى إلى أسفل، كأنها تباركه. وهو، بعد أن أخذ يطرف بعينيه اللتين أزعجتهما حركتها، التفت إليّ ليرى إن كان أزعجني أنا أيضاً ما فعلته.

* * *

ليس طبيباً واحداً، بل أطبّاء كثر تجمّعوا حول سريره وأخذوا يتحادثون، فيما هم يلتفتون مرّة بعد مرّة إلى ناحية من جسمه سبق لهم أن رأوها. كنت أنتظر الوقت الذي يبدو فيه مناسباً تكلّمي وسؤالي لهم عما به، لكنهم، فيما هم لا يزالون يتحادثون، بدأوا انفضاضهم من حوله.

– لا تتركهم يذهبون هكذا، قالت لي ظانّة أنّهم لا يفهمون لغتها.

واحد منهم تمهّل في خروجه. كان يريد أن يعرف شيئاً عن ابني أحمد لا علاقة له بمرضه. سألَنا إن كان تعلّم شيئاً، قاصداً المدارس التي يتعلّم فيها مَن هم مثله. وإذ أسرعت أمه إلى أن تخبره عن أن

لا شيء حولنا، مؤسّسة أو مدرسة تعلم من هم مثله، بدا هو منتظراً أي جواب نقوله. لم يتركها تكمل كلامها فقد اكتفى منه بما بدا له رغبتها في أن تحكي. قال لنا إنهم اخترعوا الآن آلة صغيرة تنقل ذبذبات الأصوات من الأذن إلى الرأس، وإنّ الأصمّ والأخرس، إن كان بعد صغيراً، يستطيع أن يبدأ بها تطوير قدرته على السمع وتعلّم النطق. حتى إنني لم أفكر في أن هذا ما ينبغي عليّ فعله إن نجا أحمد من مرضه، كما لم أفكّر أيضاً في ابني أيمن. بدا لي هذا الطبيب أقلّ زملائه مرتبة وهو لم يطمئني بنصحه لنا عن شيء نفعله لاحقاً، بعد خروج أحمد من المستشفى. زوجتي أيضاً بدت مثلي، منتظرة انتهاءه وذهابه، من دون أن تعود إلى كلامه الذي انقطع أو حتى أن تسأله عما يظنّه عن حال أحمد.

– سأبقى هنا، قالت لي معلنة كيف سيتوزع دورنا أنا وهي.

لم أقل إنني أعرف أكثر مما تعرف هي عن المستشفيات. قبلتُ بما قرّرتْه، لكنّني قلت لها إن علينا أن نعرف ماذا سيقول لنا الأطبّاء أولاً.

انتظرنا أكثر من ساعة واقفين أنا وهي في تلك الغرفة الضيّقة. كان أحمد مستسلماً في تمدّده لا تتحرّك فيه إلا عيناه اللتان، لكي لا تقعا عليّ أو على أمه، ظلّتا تجولان في الأشياء القليلة التي تحتويها الغرفة الضيّقة: السقف المنخفض المزين بمربعات من الفلّين، طرف السرير الحديدي الذي رفعوه لكي لا يسقط هو على الأرض، الشرشف الأبيض الذي جعل يمسكه بيديه كأنما ليتبيّن مدى طراوته. بقينا واقفين حوله منتظرين، وحين بدا أنهم سيفعلون له شيئاً لم يكن ذلك مع أيّ من الأطبّاء الذين كانوا حوله. فوّضوا إلى ذلك الشاب الذي أرخى

لحية صغيرة أسفل ذقنه ليخبرنا أنهم سيأخذونه بعد قليل إلى غرفة واسعة، وانتظر منا أن نسأله عن شيء. لكنّنا أدركنا أننا لن نعرف منه شيئاً منذ أن أجاب عن سؤالي الأول عن المدّة التي سيبقى فيها ابني في المستشفى: "لا نعرف الآن، علينا أن ننتظر". ثم، لكي ينهي المهلة التي أعطاها لاستفهامنا، نادى الممرض المنتظر في الخارج، ليدخل جارّاً السرير الذي سينقل عليه أحمد إلى غرفته.

* * *

تركتها هناك تلحق بالممرّض المسرع في جرّ سريره إلى آخر الممشى الطويل. كان وجودي في تلك الغرفة الضيقة، واقفاً الوقت كله، قد أتعبني وأضجرني. وحين رأيت ضوء النهار في الخارج انتعشتُ وأتتني رغبة في أن أسير بخطى مرحة. بل إنّ لحناً انفلت من مكان ما في رأسي، فأوقفته من فوري، قاطعاً إياه حتى قبل أن أعرف من أي أغنية هو.

وأنا على الطريق، حين وصلت إلى حيث تلاشت زحمة السيارات، فكّرت في أنني لا ينبغي عليّ أن أؤنّب نفسي إن دهمني صوت منفلت من أغنية. ذلك لن يزيد في مرضه ولن يقلّل من خوفي عليه. ثمّ ماذا يضير في أن أترك الأغنية، أو ما أحفظه منها، يتتالى في رأسي مقطعاً بعد مقطع. بل ماذا يضير في أن أُخرجها مغنّاة من بين شفتيّ: "بتلوموني ليه... بتلوموني ليه... بتلوموني لييبه... لو شفتم عينيه... حلوين قدّ إيه... وسهد الليالي...". كنت، فيما أنا أغنّي مسنداً مرفقي إلى حافة النافذة، كأنّني أتحدى أحداً أو أتجرّأ على أحد. وكان صوتي يرتفع، ويخرج عن لحن الأغنية الذي

أعرفه. وحين توقّفت عند آخر ما أتذكّره من الكلمات، ورجعت إلى تلك البداية من جديد، كنت كأنني أصرّ على أنني حرّ في ألا أؤنّب نفسي ولا أعاقبها: "بتلوموني ليه... بتلوموني ليه"، صرت كأنّني أصرخ ذلك في وجه أحد. ثم رحت أعيد الكلمتين هاتين، مرة بعد مرة بعد مرّة، مرهقاً نفسي بهما ومواصلاً عنادي. وقد بقيت أكرّرهما حتى صارتا تتردّدان لوحدهما، تاركتين عقلي يشتغل منصرفاً عنهما.

– لست من صنف الناس الذين يسائلون الله إن كان أتى به ليعذّبه، قلت لزوجة أخي التي انعطفتُ بسيارتي إلى طريق بيتها كأنما من دون إرادة مني. هذه المرّة لم أكن متردّداً في الخارج منتظراً أن تظهر لي لتدعوني إلى الدخول. بل إنها، حين أطلّت من فتحة الباب، وجدتني أمامها، واقفاً هكذا كأنني جئت لأبلغها شيئاً. وهي أدركت ذلك منذ أن رأتني، فلم تبتسم تلك الابتسامة المعابثة التي تقول لي "هذا أنت؟". وقد دخلت من فور ما تنحّت عن الباب قائلة لي: "تفضّل... تفضّل ادخل". وهي تبعتني إلى الداخل لتقف قبالتي وتنتظر أن أبدأ أنا بالتكلّم عمّا بي:

– أحمد...

ظلّت ناظرة في وجهي، من أجل أن أكمل من دون أن تقول هي كلمة واحدة. وإذ بدا أنّ ما سأقوله أكبر من مرض عادي، أمسكتني هي من وسطي وتقدّمت بي لتجلسني على الكنباية.

– نشرب قهوة، سألتني، لكن مع بقائها مصغية لما قد أقوله عن أحمد.

– هو الآن مع أمه... في المستشفى.

– انتظر... سأعمل قهوة، قالت كأن ما سأضيفه عن أحمد لا ينبغي أن يُقال بتعجّل هكذا.

– لن أتأخّر هنا... أيمن وهبة في البيت وحدهما.

– لن نتأخّر، قالت فيما هي تسير إلى المطبخ مسرعة متعجّلة.

– منذ متى هو في المستشفى، قالت من حيث هي في المطبخ.

ما كان يجب أن أتجنّبه هو أن أبدو كأنني موشك على البكاء. يجب ألا أخفّف من شعوري بالمرارة لكن يجب ألّا أبدو موشكاً على البكاء:

– أنا لست من صنف الناس الذين يسائلون الله إن كان أتى به ليعذّبه، قلت معلناً احتجاجي على ما يلقاه أحمد ومتنصّلاً في الوقت نفسه من أن يكون ذلك كفراً. لكنني، كأنما لأسترسل في احتجاجي وغضبي قلت، رافعاً عينيّ إلى سقف الغرفة فوقي: لست مثل أولئك الذين يقولون إنّه كان يصلّي لله، رغم مصيبته بخرسه...

وهي ظلّت صامتة. لا يناسب أن تهدّئني وتطيّب خاطري، أنا رجل الدين، بأن تردّد كلاماً من ذلك النوع الذي يذكّر بتقوى الله وبرحمته. ذلك لا يناسب، ولا يليق بها أيضاً لأنّه سيجعلها تبدو مثل نساء القرى.

بدلاً من ذلك، راحت تسألني عمّا بان عليه حتى أخذناه إلى المستشفى، وإن كانت حرارته قد ارتفعت مثلاً، أو أنه تقيّأ، أو تألّم إلى حدّ أننا حملناه راكضين به. وهي صارت تنتقي الكلمات لتطمئنني وليبدو أن ما به سيفلح الأطباء في شفائه. "غداً ترى"

صارت تقول، "هو عارض وسيزول... عارض قوي لكنّه سيزول... غداً ترى".

كلامها المؤاسي كان يجب عليّ أن أوقفه، كما كان عليّ، في سبيل ذلك، أن أكفّ عن أن أبدو محتاجاً إليه ليخفّف من قلقي. كان يجب أن يتوقّف كلامها المؤاسي وهيئتها المؤاسية التي تعيدها إلى أن تكون قريبتنا، قريبة العائلة، زوجة أخي حين كان أخي ما زال بعد حيّاً. ما رغبت فيه هو أن تكون مثلما كانت ونحن معاً في السيّارة، عائدين من نزهتنا التي فشلنا في إنجاحها. أن تكون جالسة إلى جانبي متنمّرة متمنّعة فيما أنا أختلس النظر إلى أصابعها الملوّنة أظافرها بالأحمر اللامع.

– أنا سأقوم، قلت بادئاً قيامي عن الكنباية.

كنت أحتاج قبل أن أغادر إلى حركة ما منها تعيد صورتها الغاوية، حركة خفيفة لا تتجاوز عن مرض ابني لكنّها تذكّرني بوجهها الآخر ذاك.

– اجلس قليلاً... لا يهمّ إن تأخّرت ربع ساعة

وأنا، لأساعدها على ما أردتها أن تغيّره في هيئتها، قلت لها، "بل يجب عليّ أن أذهب" مرفقاً ذلك بوضعي يدي فوق يدها، للحظة أو لحظتين، بما يعود بنا قليلاً إلى ما هو بيننا، لكن بما يقينني في الوقت نفسه على حالي التي أنا فيها.

* * *

كأنّني قطعت لهم عهداً وتراجعت عنه. أرى ذلك في نظراتهم

التي أفاجأ بها محدّقة فيّ قبل أن ترتدّ عني بعد انتباهي لها. كأنهم ينتظرون مني، على الأقل، أن أحدّد لهم موعداً للمجيء بالكتب. أن أعتذر عن تأخّري بأن أقول لهم مثلاً إنني أنتظر أن أعيد ترتيب أثاثي، أو إنني أنتظر وقتاً أكون فيه أقلّ انشغالاً، أو أن أقرّ لهم بأني مشغول بمرض ابني، ذاك الذي لم يسألوني عن غيابه وعن غياب أخيه أيضاً.

وأنا، الذي أعرف بأن لا حاجة لي إلى هذه الكتب، إذ أعرف أني لن أقضي وقتي بأخذ أحدها من الخزانة وردّه إليها لآخذ كتاباً آخر من بعده، أراني مستهولاً إخراجها من بيتي. كأني بذلك أحنث بالوعد الذي قطعته لأبي، أو أتخلّف عن تلبية طلبه الوحيد مني: "الكتب"، قال لي، في استفاقته تلك، التي كان يعرف أنها لحظة انتباه عليه أن يغتنمها، أو أنه استجمع كل قوته المتلاشية من أجلها. أراد، قبل أن يعود إلى غيبته، أن يورّثني ما ورثه. أن تصير عندي، في بيتي،عهدة عندي من أبيه وجدّه وجدّ جدّه إلى أوّل من خطر له أن يمسك ريشة ويخطّ بها كلمات الكتب الأولى. ومثلما يظهر لي وجه أخي، ساخراً مرّة، مؤنّباً مرّة، سيظهر لي وجه أبي. "أعطيتهم الكتب؟" سيقول لي، مقرّباً منّي جبينه النحيل حتى لأكاد، لصغره، أحيطه كلّه بكفّي. ولن أردّ عليه. لن أقول له إنك متّ، مثلما كنت أقول لأخي. ولن أقول له إنك أنت نفسك لم تفتح خزانة الكتب هذه منذ أن كنت أنا صغيراً.

لكنني رغم ذلك أجدني مستهولاً أخذها إليهم. ومع ذلك سأفعل. أنا لن أقرأها، أجيب أبي. أولادي أيضاً لن يقرأوها. ربما

تفيدهم هناك في الجامع. ربما يدفعون الأولاد الذين في عمر ولديّ إلى أن يبدأوا بقراءتها، أو أن يتعلّموا قراءتها. "هذه ليست للجامع، هذه لنا" يجيبني لكن بنبرة صوته التي كانت له في أيام قوّته، النبرة الزاجرة التي تبديه، حين ينطق بها، أو يصرخ بها، كأنّه يرفع عصا ويهمّ بإنزالها على الرجل الواقف أمامه.

– ما رأيك أنت يا أبو عاطف، هل أعطيهم الكتب؟

– لكنّك وعدتهم.

– أقدر أن أجعلهم ينسون.

– لن ينسوا، ستظلّ ترى على وجوههم تلك النظرات التي تقول إنها تفاجئك. هم يرسلونها إليك عن قصد. عن قصد يجعلونك تضبطهم هكذا ناظرين إليك.

– لكن أنا لا أحتاج إليها يا أبو عاطف، وكذلك ولداي، أنت تعلم...

* * *

كان ابني أحمد قاعداً على سريره، لابساً ثوب المستشفيات الذي كنت أُلبسته أنا من قبله. زالت تلك الحبيبات الحمراء التي كانت قد انتشرت في جسمه، وأنا مددت يدي إلى ساقه المنكشفة كأنما لأتبيّن إن كان قد بقي منها أثر على اللمس. "اختفت" قلت لأمّه مبتسماً. وهي أجابت أنه ضجر من السرير وأنه، مع ذلك، لا يقوم عنه.

"لماذا يا أحمد"، تمتمت فيما أنا أبعد الحامل المعدنيّ الذي

علّقوا عليه أكياس الدواء: "قم نمشِ... قم". لم يردّ يدي، لكنه أفهمني بحركة من رأسه أنّه لن يقوم.

– يستحي أن يمشي هكذا بثياب المستشفى، قالت ناظرة إلى ما كشفه الثوب من جسمه.

أفهمته أني أنا نفسي كنت أمشي جارّاً الأدوية معي. ثم توجّهت إلى الجهة الأخرى من السرير لكي أقفل الكبسونات حتى يتغطّى ظهره كلّه.

– لن يقبل... لن ينزل.

– نمشي هنا في الغرفة، أفهمته بأن أشرت بإصبعي إلى هنا، ما بين جدران الغرفة فقط. وهو نظر إلى الباب طالباً مني أن أذهب إليه وأقفله.

– هذا مما تعلّمه في الجامع، قالت وهي تنظر إليه يخبّئ ما أمكنه من ساقيه، حتى وإن لن يراه أحد سوانا.

مرّة ثانية أفهمته أنني أنا نفسي كنت أمشي بالثياب هذه. ابتسم، فقد تخيّلني ماشياً بها في الممشى بين الممرّضات والغرف المفتوحة أبوابها.

لم يمشِ إلّا باتجاه الحمام. وهو، مع ذلك، التفت مرّات إلى الخلف ليرى إن كان الثوب يكشف عن شيء. ثمّ أقفل باب الحمام.

– ستعود النقط. هم أزالوها بالأدوية، لكنها يمكن أن تعود.

كان ذلك مرضياً لها، وهي قالته كأنها تبشّرني بأن المرض أقل خطراً مما كنا نظن.

– يعني ليس مصاباً بذلك المرض؟

– إلا إن كان الدكاترة يكذبون عليّ.

– والدمامل التي في جسمه؟

– لا أعرف، يمكن أن تعود.

– هم ماذا قالوا عن الدمامل؟

– قالوا إنهم سيعرفون من الفحوص التي لم تطلع نتيجتها بعد.

حين انفتح باب الحمّام بدا وجه أحمد شاحباً وبلا لون. وكان ظهره مقوّساً فيما يداه ممسكتان بحامل الأدوية. "سيغمى عليه... عجّل أمسكه..." قالت مندفعة نحوه لتحيط وسطه بيديها الاثنتين. وأنا قلت لها أن تتركه بعد أن أحطت بيديّ جذعه مبقياً يديه حرّتين. ثمّ قلت لها أن تنادي على الطبيب لكي أعيده أنا في أثناء ذلك إلى السرير. كان ثقيلاً و لم أستطع أن أرفعه. وهو ترك أمره لي مع أنّ عينيه كانتا مفتحتين، بل كان ينظر بهما إلى ما تقعان عليه. جاء الممرّض راكضاً إلينا، وهو راح يطمئنني ويأخذ ثقل أحمد عني. لا أكثر من أنها دوخة، قال لنا مطمْئناً قبل أن يضيف أنه لم يكن ينبغي تركه وحده في الحمام، وأنه، فيما لو سقط، لكان آذى نفسه.

– يعني ما زال مريضاً؟ قلت وأنا أشاهده يسوّي الشرشف فوق أحمد مغطّياً به كلّ جسمه.

– لم يكن ينبغي تركه وحده في الحمام. نحن هنا، اضغطوا على هذا الزرّ فنأتي.

– نعرف.. نعرف، قالت زوجتي زاجرة إياه.

كنت أنوي أن أسأله إلى متى سيبقى في المستشفى لو لم يدفعه إلى الخارج زجرها له. بدلاً من ذلك، اقتربت من أحمد لأرى إن كان قد بقي فيه أثر للدوخة. حين صرت لصق سريره قامت يداه بتلك الحركة التي تعني أن رأسه ما زال يدور، ثم رفع يده من صدره إلى حلقه ليقول لي إنه سيتقيّأ.

لكنّ شيئاً لم يخرج من معدته. فقط تلك الأصوات التي أتعبته وأدمعت عينيه وأعرقته. وأنا من خلف أمه التي ألصقت كيس القيء بفمه رحت أقول له، كلما استجمع قوته ليفرغ ما في معدته، "إيه... أطلعها... الآن أطلعها... الآن... الآن"، ولم أكن أعلم أني أعلي صوتي فوق الصوت الذي يطلع من حنجرته الفارغة المجوّفة.

* * *

قلت لأبو عاطف فيما كنا أنا وهو نُنزل الكتب عن رفوف الخزانة: أنا سأخلع الجبّة والعمامة. ضحك، بل أراني أنه يكتم ضحكة ليقول لي من بعدها: "وماذا ستشتغل؟ أستاذ مدرسة؟".

– أنا لم يكن عليّ أن أقبل بما قرّره لي.

– من؟

– أبي.

لم يكن يُخرج الكتب ستفاً من الخزانة. كان بالأحرى كأنه يتفرّج عليها، يقرأ ما على الجلدة ثم يفتح الكتاب ليرى بأي خطّ كُتب، أو

ليتبيّن إلى أي مدى اصفرّت أوراقه أو تآكلت.

– إن بقينا هكذا لن ننتهي في يومين، قلت، ثمّ أضفت ممازحاً أن علينا أن نستعجل لأن الجماعة ينتظروننا.

– انظر كيف خيّطوا هذا الكتاب، كأنهم دقّوه دقاً بالمسامير.

وأنا، لكي أدفعه إلى العجلة، أخذت الكتاب من يديه وألقيته على كومة الكتب.

– يجب أن نرى ماذا فيها. في أيامهم كانوا يخبّئون المصاري بين الصفحات... تخيّل أن نجد تلك المصاري القديمة التي كانت الورقة منها في مساحة السجادة، قال مفرداً كفّيه معاً ليريني كيف كانت المصاري.

كان يتسلّى، بل كان يلعب. لم يعد يحرجني ميله إلى المزاح وسؤاله لي، مثلاً، إن كنت سأشتغل أستاذ مدرسة.

– فلنسرع يا أبو عاطف، أو، وربما هذا أحسن، دعنا نترك كلّ شيء في مكانه. أنا سأتدبّر الأمر غداً.

– لكن الجماعة ينتظرون في الجامع... ينتظرون أن تصل الكتب حتى يبدأوا بقراءتها، قال متمسخراً.

* * *

أحمد لن يموت ولن يشفى. في السيّارة كان مسروراً بخروجه. كان يلتفت إليّ بين الحين والحين ليبتسم لي، ثم يعود إلى استغراقه في ما كان يفكر فيه. وكان يدير رأسه إلى حيث تجلس أمه في الخلف، كأنما من أجل أن يتبيّن إن كانت لا تزال هناك في مقعدها. قال لها الطبيب

إن ما حصل له سيعاوده، وإن علينا، كلما حصل ذلك، أن نسرع في إحضاره إلى المستشفى. و لم يقل لها جواباً شافياً حين سألته إن كان سيوجعه مرضه. لم يزد على أن راح يميل برأسه إلى اليمين وإلى اليسار موازناً بين الاحتمالات. المرض في كبده، قالت. وحين بدا لها أن المرض هذا جعل واحدنا يصغي إلى ما يقوله الآخر، قالت لي إننا يجب أن نعرف كيف نكون معه، ليس في ما خصّ مرضه بل في وجوده في البيت وعلاقته بأخيه وأخته.

كأنها بذلك تعيد تنظيم حياتنا كلها. وقد استفزّني هبلها حين بدا لي وجهها في المرآة وقد ظهر عليه، من جديد، عارض الطمأنينة ذاك. كانت مستقيمة في جلوسها، مقدّمة وجهها إلى الأمام وتاركة مسافة بين ظهرها والمقعد، كأنها تسابق سرعة السيّارة وتستعجل وصولنا لكي نباشر عيشنا بحسب برنامجها الجديد.

– قالوا لكِ أن نسرع في إحضاره إلى المستشفى؟

– يعني ألا نتأخر مثلما تأخرنا هذه المرة.

– وهل قالوا لك ماذا يحدث في حال تأخّرنا؟

لم أذكّرها بذلك من أجل أن أصحّح لها شيئاً، ولا من أجل أن أجعلها تشكّك في طمأنينتها وتفاؤلها. أردت فقط أن أزدري سذاجتها، أن أقلب مزاجها الذي يغيظني، وأن تصيبها المرارة التي يجب أن تصيبها.

* * *

– اتركيه، هو يعرف كيف ينزل من السيارة وحده.

كانت تمدّ يديها الاثنتين إليه، وهو، وقد استدار في جلوسه نصف استدارة، لم يعرف ماذا يفعل.

كنت أوقفت السيارة قرب بوابة الحديد، لكي تحجب نزوله عمن يكونون هناك في الساحة، ولكي تصير المسافة التي سيمشيها قصيرة.

تراجعت هي معيدة يديها إلى حيث يجب أن تكونا، لكنها ظلّت واقفة متهيّئة لتلقّيه إن هبط أو داخ.

– ادخلي أنتِ، قلت لها فيما أنا أزيحها لأقف في مكانها، مستعدّاً لأن أغلق باب السيارة بعد خروجه.

وإذ صارا كلاهما وراء البوابة، عدت أنا إلى مقعدي لأعيد إيقاف السيارة حيث أوقفها عادة. أحسست بجسمي نشيطاً مفرطاً في نشاطه، على رغم مسافة الطريق الطويلة، وكنت لذلك راغباً في أن تسير الأشياء بسرعة. في أقل من لحظات كنت معهم، على أول الدرجات. كان أيمن قد نزل، تتبعه أخته وهي تقول كلمات كأنها تكلم بها نفسها. لم يكن من شيء أفعله، أو أقوله. لا أكثر من أنني سبقتهم، هم الثلاثة، لأمسك بيد هبة وأسألها، مداعباً، إن كانت طبخت أكلاً لها ولأخيها. وهم لم يتأخّروا عنّي على أي حال. تركتهم يدخلون إلى البيت قبلي حيث لم يعد من شيء أفعله لأجاري به نشاطي الزائد. ستتولّى هي أمره هناك، وأنا سأتوجه إلى غرفة الزوّار لأهدّئ الاندفاعات التي لا شيء أفعله لتصريفها.

ربما، بعد قليل، ستُطلع صوتها منادياً أو متشكياً، متحوّلة عن الخضوع الذي قبلتْ به على الطريق. وأنا، من مناداتها وتشكّيها سأعرف ماذا يفعلون هناك: هل ستغيّر ثياب أحمد بأن تلبسه ثياب

النوم، وهل ستنيمه في السرير أم إنه سيقعد لأن لا حاجة به إلى النوم؟ من هنا سأعرف، من الكلام، أو من الصوت الذي سأسمعه. بين الحين والآخر سأقوم إلى هناك لأتحقّق مما كنت أعرفه برؤيتي له بعينيّ. ثم أعود إلى حيث أجلس، على كنبايتي ذاتها، مفكراً في أنني، بعد يوم أو يومين من مراقبة أحمد، سأعرف كيف سيكون عيشه وكيف سيكون عيشنا معه.

* * *

مرة أخرى قلت لأبو عاطف إنني أريد أن أخلع جبّتي وعمامتي. وهو، في هذه المرّة، بدا مصغياً. لم يتبسم بما يعني أنني أقول هذا من دون أن أكون مصدّقاً أنا نفسي إمكان حصوله. ربما يظنّ أن مرض ابني أحمد أبعدني عن قول الأشياء هكذا، لمجرّد أن فكرتها خطرت في رأسي. بل إنه رأى أيضاً أن عليه أن يوقف ميله إلى ممازحتي وإلى تلقّي ما أقول بالنظرات الشكّاكة المعابثة. "بعد هذا العمر؟" سألني. ثم انتظر ثواني قبل أن يرفع عينيه إليّ ليسألني: "لكن كيف ستعيش؟". لم أجب بما ينتظره، ربما لكي لا أفصح له عن كل ما أفكّر فيه. فقط قلت له إنني سأتدبر أمري وإنني سأعيش مثلما تعيش بقيّة الناس...

– هل نقوم بنقل الكتب إلى الجماعة؟

قام. وانتظر قيامي أنا أيضاً لنمشي الخطوات القليلة إلى الكتب التي كنا أخرجنا بعضها من الخزانة وتركناها كوماً مستوفة على الأرض. وإذ وقف خلفي لأبدأ بإخراج ما على الرفوف وإعطائها له

ليجد لها مكاناً على الأرض قرب سابقاتها، قال لي إنّه لا يفهم كيف يمكن رجل دين أن يتوقّف عن كونه رجل دين. "ماذا سيقول الناس الذين يعرفونك... ثمّ ألا تخاف؟".

– من ماذا سأخاف؟

– تخاف من أنك عرفت الدين... وأنت تتركه بعدما عرفته؟

لم أشأ أن أهوّن عليه الأمر بأن أقول له إنني تارك الجبة والعمامة وليس الدين.

– تظن أن ذنبي سيكون مضاعفاً يا أبو عاطف، وأن الله سيحاسبني أكثر مما سيحاسب غيري؟

– "وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟" قالها صحيحة، مطلقاً معها ابتسامة بدا بها كأنّه يتعدّى إلى ما أختص أنا بقوله.

وقد ابتسمت أنا أيضاً فيما أناوله ستفة أخرى من الكتب وأهمّ بوضعها فوق تلك التي ما زالت بين يديه مشقوعة حتى ذقنه.

– على كل حال، سأجرّب كيف ستكون الحياة من دون هذا اللباس... سأجرّب يا أبو عاطف.

ضحك فيما هو يرفع جسمه من فوق كوم الكتب، ثم قام بتلك الحركة المتسائلة التي تعني إن كنت سأرجع رجل دين بعد أن أكون قد استقلت من ذلك.

– فلنقل لهم أن يأتوا ليحملوها، قلت بعد أن صارت كلها مفروشة على الأرض.

– يعني ستعطيهم إياها هكذا بلا ثمن... ما دمت لن تعود تتردّد إلى الجامع.

– ربما... لكن هل نعطيهم خزانتها أيضاً؟

– أو ارمها. لو أبقيتها هنا عندك سيملأ السوس الذي في خشبها عفش البيت كله.

* * *

لم يمكث أحمد في سريره أكثر من يومين. بل إنه رغب في أن يقوم من الصباح الذي أعقب عودته، لكن أمّه أبقته فيه، مبقية أخاه وأخته قريبين منه أكثر الوقت. في الصباح الثاني استيقظ قبلنا جميعاً. بل إنّه أيقظنا بحركته بعد أن لم يطق البقاء مستيقظاً وحده. وإذ أفهمنا أنه يريد أن يغتسل، قالت لي زوجتي، فيما هي تأتيه بثياب نظيفة، إن كان من الأحسن أن أدخل معه إلى الحمّام. لكنّها صرفت النظر مسرعة عن ذلك بمجرد ما رأتني أميل برأسي رافضاً ومستنكراً.

خرج ممشّط الشعر من الحمام، حاملاً بيده الثياب الوسخة ليعطيها لأمه. قالت لي إنّه مشّط شعره، قاصدة من ذلك شيئاً لم تعرف كيف تبيّنه، حيث إني لم أعرف إن كان قيامه بذلك قد أسعدها به أو أنها أشفقت عليه. كان أخوه واقفاً منتظراً انتهاءه، متهيّئاً لمرافقته. قالت لي أمهما إنهما يجب أن يأكلا، "ضروري أن يأكل أحمد، يجب ألا يشرب الدواء من دون أكل". وهي، على أي حال، لم تكن قد أعدّت شيئاً. ومن دون أن أظهر عن سخطي، قلت لها إنّه كان أحرى بها أن تضع لهما شيئاً في الصحون فيما كان هو في الداخل يغتسل. ثم مشيت أنا إلى المطبخ، وفتحت البراد لأقف ناظراً فيه متحيّراً ماذا أُخرج منه. لكنها لم تتأخّر عني. أزاحتني عن

باب البراد المفتوح وراحت تنظر إلى الرفوف، مثلما كنت أفعل.

كانوا معي في غرفة الاستقبال، هم الثلاثة، حين أطلّت علينا، حاملة ثلاثة أرغفة ملفوفة لا أعرف ماذا وضعت فيها. كل هذا سيأكلونه؟ قلت لها. لم تجب. وهم تقدموا نحوها مستهولين الأرغفة السمينة التي لن تتسع لها بطونهم. "هذا كثير على أحمد... لن يقدر"، وهي أجابتني بأنّ الدواء سيحرق معدته إن نزل على لحم بطنه.

بعد أن فهمت أنهما ذاهبان إلى الجامع، داعبتُ أحمد بأن أشرت إلى شعره الممشّط سائلاً إياه ما علاقة هذا بالجامع. لم يضحك، لكنه سايرني برفع عينيه إلى الأعلى مثلما كان ليفعل لو كان يستطيع أن يرى شعره. وإذ خطر لي أن أطلب منهما إبلاغ الرجال الذين هناك أن الكتب باتت جاهزة عندي، وأن عليهم أن يرسلوا أحداً لنقلها، انتبهت إلى أنني أُفهم ذلك لأيمن، الصغير، وهذا ما أربكني قليلاً وجعلني أنظر إليهما معاً قائلاً لهما أن يسبقاني وإنني قادم من بعدهما لأبلغ الرجال بنفسي.

– قال الطبيب إن عليه أن يأخذ الدواء كل يوم، قالت لي مبقية قنينة الدواء في يدها.

– و لم يقل لكِ إلى متى؟

– لا أعرف، لم يقل لي.

أخذتُ قنينة الدواء من يدها ورحت أقرأ ما على ورقتها، وهي، فيما رحت أقلّب القنينة، مدّت يدها لي بالدواء الآخر ذي الحبّات الصغيرة. اكتفيت بالنظر إلى الحبّات، ثم أدنيتها منها:

- وهذا أيضاً لا تعرفين إلى متى...

كان عليك أنت أن تسأل... أنت تعرف المستشفيات أكثر مني.

***

- نسيت العبّانية؟

كنت قد أحضرت أبو عاطف من بيته ليكون معي في الجامع.

- بل صرفت النظر عنها... ضجرت منها قبل أن أنتقل إليها.

- ستبقى هنا معنا إذن؟

- لا أعرف.

شعرت به ملتفتاً إليّ هامّاً بأن يقول شيئاً، لكنّه ما لبث أن أمسكه.

- تظنّ أنني لا يحقّ لي أن أتصرف بحسب ما يعجبني ولا يعجبني، سألته.

- لأن لديك أولاد، ألم تفكر كيف سيعيشون؟

- تظنّ أني سأتركهم وأهرب يا أبو عاطف؟

وقد أضجرني الجامع أيضاً بمجرد أن خطوت من بابه. كان الأولاد هناك قاعدين متربّعين في ركن منه مصغين إلى ولد بينهم يكبرهم سنّاً. أما الرجال الثلاثة المداومون فيه فبدوا منهمكين من دون أن يكون بين أيديهم شيء يشتغلون به. حين رأوني وقد وقفت غير بعيد من البوابة وإلى جانبي أبو عاطف، أسرعوا في اتّجاهنا. "الحبايب كانوا هنا"، قال لي من همّ بمصافحتي أولاً، قاصداً ولديّ. ثم قال لي إنهما غادرا لأن أحمد تعب... "لكنّهما صلّيا على كل حال".

لم أشأ أن أطيل بقائي بينهم. وقد تركت لأبو عاطف أن يخبرهم

بشأن الكتب. التمعت عيونهم، هم الثلاثة، حين أُخبروا بذلك. ليس من أجل الكتب فقط، بل لأنني أكون، بإعطائها لهم، أضع البصمة الأخيرة على تسليمي لهم.

– الآن؟ تريد أن ننقلها الآن؟

اكتفيت بأن أومأت برأسي موافقاً، ثم التفتّ إلى أبو عاطف لأقول لهم إننا سنكون في انتظارهم هناك في بيتي.

وهم لم يتأخروا. بدأوا من فور دخولهم من بوابة الحديد يطلقون أصوات الاستئذان وكلماته. وحين بدأوا بالدخول من الباب راحوا يرفعون أيديهم إلى صدورهم فيما عيونهم لا ترتفع لترى طريق الدخول إلى غرفة الاستقبال. "تفضّلوا... تفضّلوا" صار يقول لهم أبو عاطف مشيراً لهم، من فور ما أصبحوا في الداخل، إلى الكتب المستوفة.

– نأخذها كلها؟

– كلها.

ثمّ بدأ أولهم برفع ستفة منها بيديه الاثنتين ليحمّلها لرفيقه، ثمّ رفع ستفة أخرى لرفيقه الثاني ليخرج بها هو أيضاً. ثم تبع هو رفيقيه باسطاً يديه تحت ما تحملانه، وهو سألني إن كان عليه أن يغلق الباب. ثم قامت يده بتلك الحركة التي تعني أنهم عائدون بعد أن يضعوا الكتب هناك.

– فليأخذوا الخزانة أيضاً، قلت لأبو عاطف فيما أنا أتجه إلى الغرف لأرى كيف هو أحمد.

* * *

الفصل الثامن

لا أعرف إن كنت أستعد لأن أبدأ حياة جديدة، أو أنني أنهي فقط ما سبق من حياتي. الخطوة التالية، التي يمكن أن تكون خطوة أخيرة، هي التي ينبغي لي فيها أن أخلع جبّتي وعمامتي، وأن أخرج من بيتي مرتدياً الثياب التي يرتديها الناس. لم يترك تخليّ عن الكتب أثراً يقلقني، لا ندماً ولا شعوراً بالخسارة. فقط تذكري لأولئك الرجال القديمين الذين كانت أسماؤهم تتردد في بيت أهلي، والذين لا أعرف إن كان ينبغي لي أن أضمّ أبي إليهم: جدّنا السيد إسماعيل، جدّنا السيد عبد الحسين، العلامة الذي ظلّ مقامه مُزاراً حتى بلي وسقطت قبّته فوق قبره. جدّنا السيّد علي الذي أذهل مشايخ إسطمبول حين استدعوه ليحاججهم. كانت أسماؤهم ملازمة لنا في بيتنا، أسمع عنهم يوماً بعد يوم ولا أعرف لهم وجوهاً، إذ لم يكن في أيامهم آلات تصوير كتلك التي وقف أمامها جدّي موقفاً ابنيه معه. فقط كلمات رُويت عنهم رحت أنا أحوّلها ملامح لرجال وأصنع منها وجوههم. أو أتخيّلهم ظلالاً بلا وجوه جالسين أكرّرهم واحداً بعد واحد وهم يخطّون بريشة الكتابة المتعثّرة سطوراً على أوراقهم المصفرّة القديمة، تلك التي سيخيطونها إلى أوراق أخرى لتصير كتباً. لم يترك تخلّي عنها أثراً يقلقني، لا ندماً ولا شعوراً بالخسارة، كما أنني لم أستصغر نفسي و لم أقل مَن أنا حتى أضيّع ما كتبه هؤلاء وحفظوه جيلاً بعد جيل. ربما لأني لم أعرف قيمة ما أُورثتُه. ربما لأني بتّ لا أشعر بقوّة القرابة بيني وبينهم، أو ربما لأني أستعدّ لأن أبدأ حياة جديدة أو أكتفي بأن أنهي ما سبق من حياتي. أن أخلع عني جبّتي وعمامتي،

هكذا من دون أن أعرف كيف سأكون بعد ذلك وماذا سأفعل. ما أعرفه هو أنني ينبغي لي ألا أتردّد وأنا في سبيلي إلى ذلك، أو أؤجّل، فذلك سيبقيني حيث أنا، وكما أنا، ماكثاً في غرفتي هذه، لا شيء أفعله إلا انتظاري للشمس يتقدّم خطّها على البلاط تحتي فأُبعد رجلي عنها فيما أظلّ قاعداً على كنبايتي. ينبغي ألا أتردّد في ذلك. أقصد في الأمور التي عليّ أن أُنجزها ليكون تركي لما أنا فيه كاملاً. أن أقول إني لن أعود إليها، لن أذهب إلى بيتها، ثم أجدني رغم ذلك وقد ركبت السيارة وسرت بها مبدّلاً سرعتها، بطئاً وتعجّلاً، مماشياً التردد في رأسي، الذي يقدّمني ويؤخرني. في أحيان أتوقف وأنا لم أقطع ربع المسافة إلى بيتها. في أحيان أخرى، أعطي للتردّد وقته فأوقف السيّارة بجانب الطريق وأروح أقابل، بل أصارع، بين رغبتي في أن أكمل الطريق إلى بيتها وقراري بالرجوع إلى بيتي. ثم أصير أقوّي هذه على ذاك وذاك على هذه كأنني أشغل نفسي برمي الحطب في النار، حطبة لهذه وحطبة لذاك. حتى إنني أتواطأ، بل أكذّب، على نفسي فأضع بين الحجج التي ينبغي أن تبعدني عنها قولي لنفسي، بطريقة أبدو فيها كأنّي أرافع ضد أحد لأدينه: لن أضع فمي هناك في الموضع الذي كان يلثمه أخي. وأزيد على ذلك ما قد يقرّبه من أن يكون حيّاً ما يزال فأقول "شفتيه" بدلاً من أن أقول فمه، أو أقول لعابه، وذلك لأجعل نفسي متخيّلاً شفتيه الرطبتين السائلتين لتنطبق شفتاي فوقهما، حيث كانتا، على الجسم الأبيض الذي، إذ أستحضره حيّاً وحقيقياً في تخيّلي، أسرع إلى إدارة وجهي عنه لئلا أعلق به. وربما أظلّ متعلقاً به، منجذباً

إلى ما يخطر لي، شهياً ومنتظراً، فأراني مقرباً وجهي وعيني كأنها صارت هنا أمامي، في متناول يدي وعلى هذا القرب من شفتيّ، فأهمّ بأن ألثم ما سبق لي أن لثمته من قبل، هنا عند أسفل رقبتها، أو في أعلى صدرها المنكشف كله، هكذا بما يلزم مني أن أضع حطبة كبيرة، سريعة الاشتعال، في أوار انسحابي وتراجعي.

ولأزيد من انسحابي وتخلّصي أروح أزيحها، كأنّما بحركة من ذراعي، لأحل محلها أخي، قابعاً في صورته تلك التي أخرجها بلال من عتم الخزانة التي كانت فيها. أرى أخي، بعد أن تحوّلت عيناه إليّ، محدّقاً إليّ من وراء الزجاج الذي يحبسه ملتصقاً به. أرى عينيه وحدهما من دون وجهه. تلك النظرة الغامضة، الزاجرة حيناً والممازحة العابثة حيناً، والمنقلبة من الزجر إلى العبث أو من العبث إلى الزجر في أحيان، تلك النظرة التي لا أفهمها ولا تنطبق مع تذكّري له كيف هو، أو كيف كان. في أحيان أقول إنه يفعل ذلك من أجل أن يشوّشني فلا أعرف إن كان غير مكترث بما أفعله لزوجته هنا في بيته، أو إن كان يلعنني. لكنّك متّ، متّ، أقول له فيما أنا أنظر في مرايا السيارة أمامي وحولي قبل أن أبدأ بتحويل سيري إلى طريق الرجوع.

– أنا سأخلع الجبة والعمامة يا أبو عاطف، ولن أعود أمسك مسبحة بيدي، قلت له فيما أنا أمدّ يدي إلى جيبي لأخرج المسبحة.

– خذها، هذه لك.

وهو تردّد في أخذها. رأى ربما أن هذه هي بداية تخليًّ، بداية لخلعي ثيابي التي أرتديها. قال لي، من وراء المسبحة التي تتدلّى أمامه:

– هذه مسبحة الوالد رحمه الله؟

– لا يهم، هي مسبحة مثل غيرها. ثم إن عندي بيته كله ليذكرني به.

بيته المقفل على أثاثه ومتاعه، وعلى رائحته أيضاً، تلك التي لم تنتقل معه بعد أن جئت به إلى بيتي. بقيتْ رائحته هناك، وأنا أعرف أنني سأشمها من فور ما أقطع مسافة الممشى الباطون الموصل إلى أول البيت. ما زالت عابقة فيه، لا بد، على رغم العتق والغبار الذي تسرّب من الشقوق والفسوخ.

– خذها يا أبو عاطف... توكّل على الله، قلت هازّاً إياها أمامه من أجل أن أوقف تردّده.

أخذها. وهو رفعها متدلّية أمام عينيه، ثم قرّبها من أنفه ليستنشق ما يظنه الرائحة الباقية فيها، من أثر أبي وليس مني.

* * *

آخر ما بلغته من الطريق إلى بيتها تلك الفسحة التي في الأعلى، المشجرة، التي أوقفتُ سيارتي فيها مرة ورحت أنتظر عودتها إلى بيتها. لم أستطع أن أصل إلى أبعد من تلك التلة. و لم أكن أفعل شيئاً في وقوفي هناك إلّا منع نفسي من النزول إليها، رغم علمي أنني سأعود أدراجي بعد كل مسافة قليلة قد تقطعها سيارتي. ومع ذلك بقيت أنظر من هناك إلى بابها علّه ينفتح، فتخرج منه لترى إن كان أحد قد جاء. وذاك ما أترقّبه أنا أيضاً بجعلي عينيّ تطوّفان حول البيت وعلى الطريق الموصلة إليه. أفكّر في أن الساقين القويتين

والمستفزّتين في مشيهما بالكعب العالي، ويديها الملونة أظافرهما بالأحمر الفاقع، وأصابعها الخبيرة، وصدرها، وشهوة صدرها، يصعب أن تكون مكتفية بي وحدي. تلك القوّة يفيض عصبها عن مجرد ما تقوم به أمّ في تربية ابنها ودعوة رفاقه إلى أن يتضاحكوا ويأكلوا حلواه في عيد ميلاده. من حيث أقف هممت بالنزول مرّات، جاعلاً نفسي في مكان الرجل الآخر الذي أترقب مجيئه، ورحت أراقب نفسي متقدّماً على تلك الطريق، ماشياً على قدميّ. بل إنّني، لظنّي أني بتّ قريباً منها، أراني أدير محرّك سيّارتي، لأبدأ نزولي إلى هناك، لكن لا لأكثر من ثوان قليلة أطفئه من بعدها.

* * *

أكلّم أبو عاطف لأني لا أعرف أحداً سواه. يرضيه أن أقبل منه ممازحته لي ونصحه. ولا يهمّه ألا أعمل بحسب بما يقول، إذ يكفيه أن أُظهر له تلك الابتسامة المجاملة أو أهزّ رأسي موافقاً كأنّني أقول له إنني سمعت وفهمت.

يظنّ أني ألوّح أو أهدّد بتركي عمامتي. فهذا، بحسبه، ما لا يقدم عليه أحد. "غداً تتغيّر الأحوال" يقول لي. يرى أنني أهدّد بذلك ردّاً على ما يُنزل الله بي وبأولادي. لكنني أجاريه في ما يعتقده. أجيبه: "وكيف ستتغير الأحوال يا أبو عاطف؟" تاركاً له أن يفهم أنني أقصد مرض ابني أحمد، وخرسه، وخرس أخيه. وقد ذكّرته بذلك بعد يومين أو ثلاثة، هناك أمام بيتي، فيما نحن، أنا وزوجتي، نُنزل أحمد إلى السيارة بعدما عاوده طفح جسمه. فقط ملت برأسي لأريه ما نحن

فيه، ولأنتقل إلى الجهة الأخرى من السيّارة لأفتح باب المقعد الذي بجانبي. وهو، أبو عاطف، ظنّ أني مستمر بقولي له "وكيف ستتغير الأحوال؟"، فيما أنا أرفع إليه يدي، محيّياً، قبل أن تتحرك السيارة بنا.

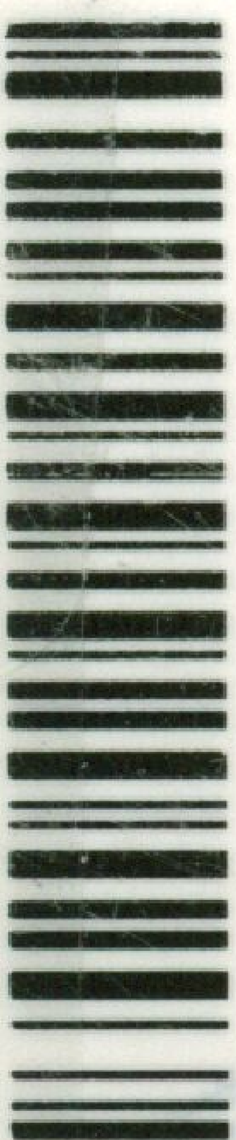
* * *

في هذه المرة الثانية لم يبقوا أحمد إلا يومين في المستشفى. لم يكن يحتاج إلى ذلك، فقد بات الأطباء يعرفون، من دون أن يُجروا فحوصهم، ماذا عليهم أن يفعلوا. "أي إن علينا أن نأتي كل خمسة عشر يوماً إلى المستشفى" قالت بعد أن عدّت الأيام الفاصلة بين إقامته السابقة في المستشفى وإقامته هذه. لا أعرف إن كانت ما تزال على رضاها الأول. ونحن بعد في المستشفى قالت لي إن الطبيب أخبرها أننا، ابتداءً من المرة المقبلة، لن ندفع تكاليف علاجه. "الوزارة ستتكفل بذلك"، قالت وهي تكتم ابتسامة.

قرّر أن يخلع عنه جبّته وعمامته. هكذا من دون أن يعرف كيف سيكون بعد ذلك وماذا سيفعل. هل هو موت والده الذي حرّره؟ هل هي إصابته بمرض السرطان وخوفه على حياته؟ أم ملله من البيت ومن زوجته ومن ذهابه إلى الجامع؟ أم رغبته الجامحة في امرأة أخيه المتوفّي؟

لا ينبغي له أن يتردّد، أو يؤجّل. فذلك سيبقيه حيث هو، وكما هو، ماكثاً في غرفته، لا شيء يفعله إلا انتظاره للشمس يتقدّم خطّها على البلاط تحته...

حسن داوود كاتب وروائي لبناني. ترجمت رواياته إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية. صدر له عن دار الساقي «مئة وثمانون غروباً»، «فيزيك»، «غناء البطريق»، «أيام زائدة».





DAR AL SAQI
دار الساقي

ISBN 978-1-85516-927-2

